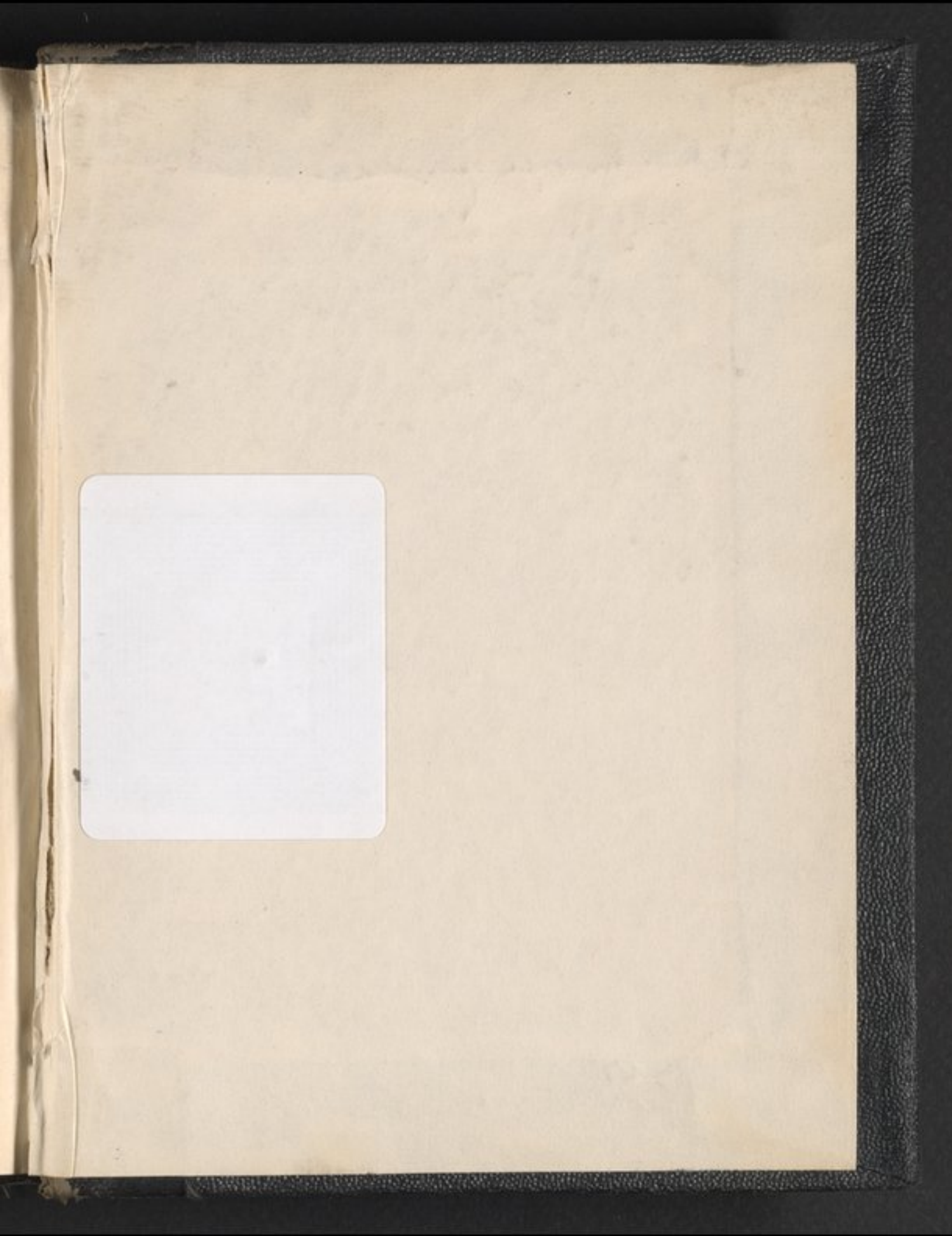
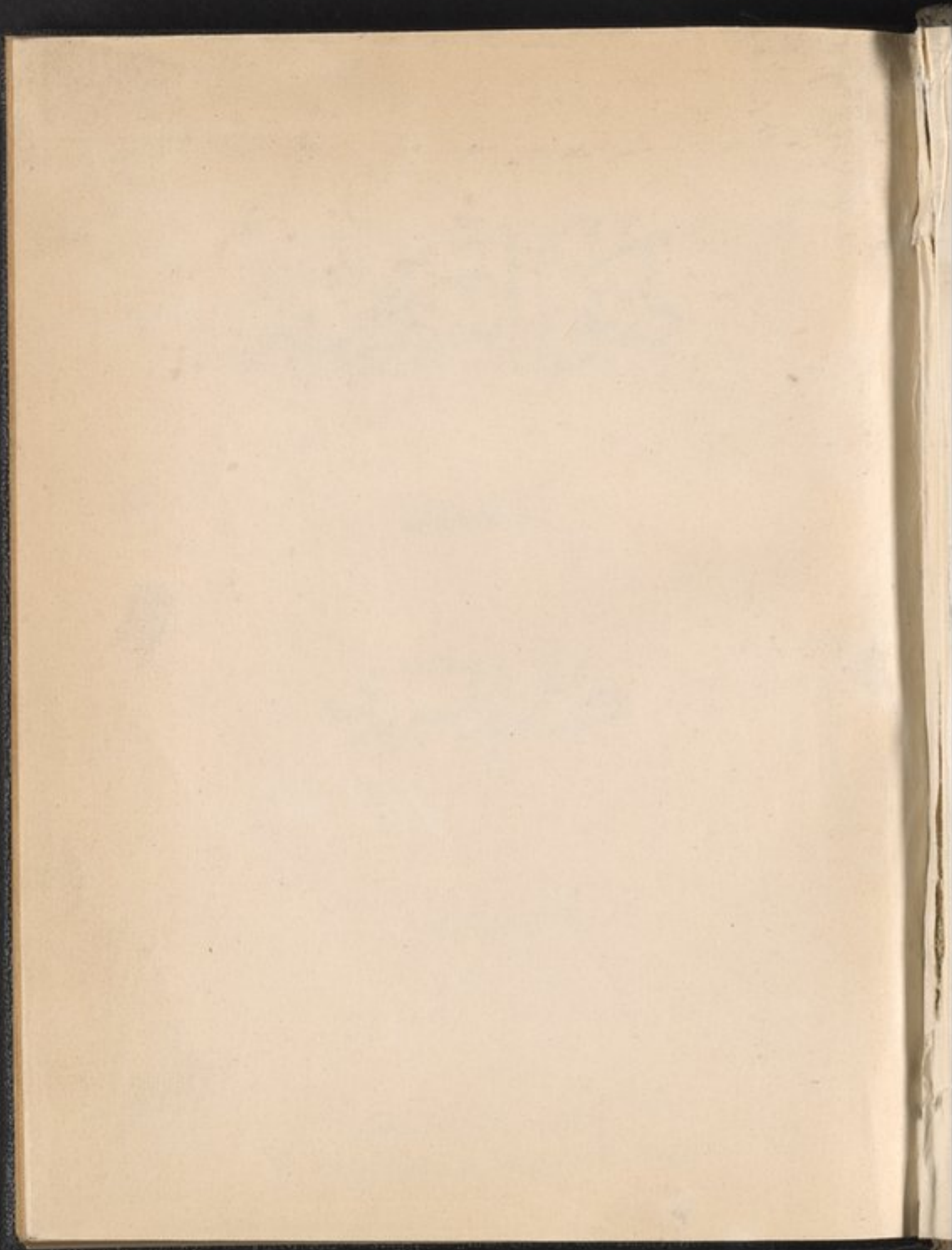


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01213 1417







هدية لطلاب الحفنة
من رواد الجامعة الأردنية

من المؤلف

المستحق

٥٤١٧٥٥

صَوْرَةُ اسْتِلاَمِيَّةٍ

BP

75.2

M36

H?

الحلقة الثالثة

عبد محمد الطسهدى

الناشر

دار الكتب الأهلية

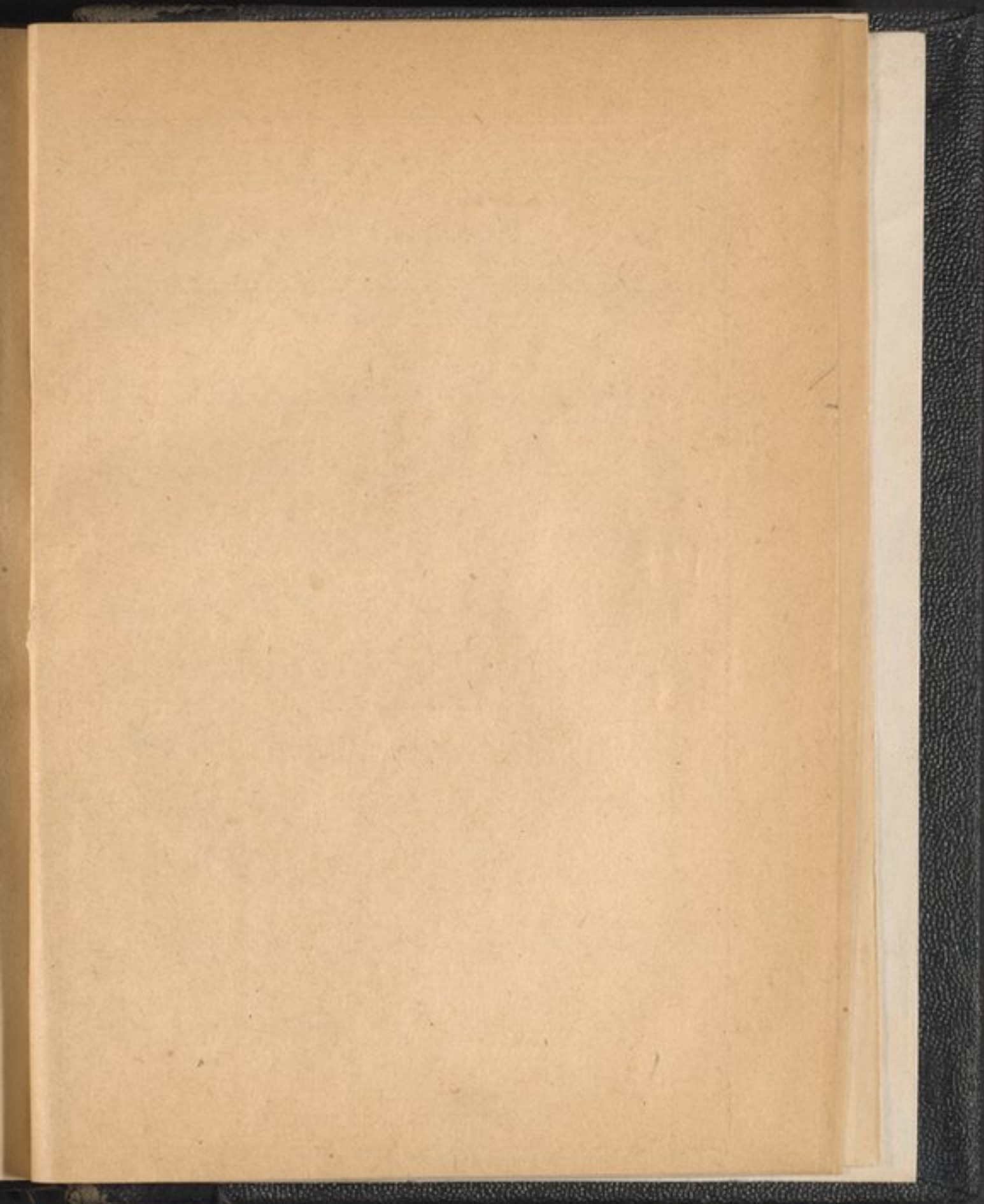
ميدان الأوبرا - مصر - ت: ٤٩٥٦١

619
23.8

26560

من سورة التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِي أَثْنَيْنِ إِدْهَمًا فِي الْفَارِ إِذِ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَةً عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۚ إِنْفِرُوا خِفَافًا
وَتِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ



مقدمة البحر الثالث

بقلم المجاهد الصادق فضيلة الأستاذ حسن البنا المرشد العام للأخوان المسلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أدركت الأمة الاسلامية من أول يوم : أن حياة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم . وسيرته هي السراج المنير الذي تهتدى به إذا التبست أمامها المسالك ، واشتبهت معالم الطريق : وفقهت في ذلك الآية الكريمة : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر و ذكر الله كثيراً . . . »

فعمقت على هذه السيرة الزكية ، تأليفاً وتدويناً ، وتعرفاً ومدارسة ، حتى لم تدع صغيرة ولا كبيرة من حياته صلى الله عليه وسلم الطيبة إلا أحصتها ، وزخرت المكتبة الاسلامية بألاف المجلدات بما كتب في كل عصر عن النبي العظيم صلى الله عليه وسلم .

وكان على أهل كل عصر أن يكتبوا لعصرهم . وأن يخاطبوا

الناس فيه . . .

وقد أدى السابقون واجبه في ذلك ، وكان لا بد للمؤلفين في هذا العصر من أن يجددوا هذه المكتبة الزاخرة وأن يعرضوا دررها وجواهرها على الناس بلغة عصرهم .

وقد وفق في ذلك الكاتب القدير الأستاذ عبد الحميد المشهدى أيما توفيق . إذ تناول السيرة النبوية المطهرة والتاريخ الاسلامى بهذا الأسلوب القوى الطريف الممتع حقاً في كتابه هذا « صور إسلامية » ،

ولم تكن الانسانية في حاجة إلى من يهديها سواء السبيل ، ويأخذ بيدها إلى ما فيه خير الناس وصلاحهم كما هي في حاجة إلى ذلك الآن ... ولن تستطيع المؤتمرات السياسية ، ولا اللجان الادارية ولا الاتفاقات الاقتصادية — أن تسوق للناس السعادة والطمأنينة وحدها — مادامت القلوب والنفوس لم تشرق من جديد بأضواء المثل العليا ، والمشاعر الفاضلة ، ولن نجد هذه المعاني إلا في تلك السيرة المطهرة .

جاء رسول الله « محمد » صلى الله عليه وسلم يعلن في الناس أنه يقص عليهم من نبي نوح ، ويعود بهم إلى ملة إبراهيم ، ويدعوهم إلى توراة موسى ، ويصدق إنجيل عيسى ، ويتمم الله به تلك الشرائع كلها ويسجلها في « القرآن الخالد » (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

ودعا رسول الله إلى هذا الحق المبين في وضوح وقوة وصدق
 ويقين وهتف في مسمع الدهر ، وصاح في أذن الدنيا : « يا أيها الناس
 إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله
 إلا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله
 وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ،

لقد جاء محمد بالحق فماذا بعد الحق إلا الضلال . . . ١٤٠
 جاء « بالربانية » التي تصل الانسانية بالله تبارك وتعالى ، وترفعها
 إلى الملأ الأعلى ، وتغمرها بأقدس معاني الايمان الكامل ، والطمأنينة
 السابغة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن
 القلوب » الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب . .
 وجاء ... « بالانسانية الفاضلة » التي تجعل الانسان سيد نفسه وسيد
 غيره ، وخليفة الله في أرضه ، وأمينه على كونه ، خلق الله غلافه بيده
 ونفخ فيه من روحه وكرمه وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له ما في
 السموات وما في الأرض جميعاً ، وأسجد له ملائكته وعلبه الأسماء
 كلها ، وكان فضل الله عليه عظيماً :

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل
 وجاء « بالعالمية » التي تعلن الأخوة بين بني البشر ، وتنادي

أن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل ، فلا جنس ولا لون ، ولا دم ولا نسب ، ولكن مؤمن وكافر ، وعامل وخامل ، وصالح وفاسد : « فاما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . »

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . »

وجاء بعد ذلك كاه : « بقول فصل وحكم عدل ، يحل المعضلات ، ويوضح المشكلات ، ويداوى العلل والآفات ، في كلمات قصار جوامع تحت الدواء الصالح والعلاج النافع ، وحسبك بتوجيه يتناول مشكلات العالم الأساسية ، فيحلها في ثلاثين كلمة لا ثلاثين كتابا ، فيعالج مشكلة الحكم بثمان كلمات هي قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله » ، يقرر بها حق الأمة في الشورى ، ويثبت بها هبة الحاكم في النفوس ، وحزمه في التنفيذ

ويعالج مشكلة الاسرة في ثمان أخرى هي قوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ، فيقرر المساواة في الطبيعة الانسانية ، ويحدد الحقوق والواجبات في الحياة الأسرية ،

ويعالج مشكلة الطبقة والثروة في أربع عشرة كلمة ، سبع للناس
 عامة « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، . وسبع للحاكم
 خاصة . » خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ،

هذا بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه وجاهد في
 سبيله . ولقد كان صلى الله عليه وسلم الصورة العملية الماثلة الصادقة في
 إنفاذ مادعا إليه فكان خلقه القرآن : —

كان « ربانيا » يقطع الليل تسبيحا وقرآنا ولا يغفل عن ذكر الله
 طرفة عين . . « يا أيها المزمع قم الليل إلا قليلا ، .
 وكان « إنسانيا » سمى نفسه إلى أعلى مراتب السمو الكريم حتى
 خاطبه ربه فقال : « وإنك لعلى خاق عظيم . . .
 وكان « عالميا » انفسح صدره وشرعه حتى كان رحمة الله للعالمين ..
 وكان « عمليا » حتى قال والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت
 لقطعت يدها

فاذا كان ساسة العالم . وقادة الشعوب يريدون حقا أن يضمّنوا
 لها السلام الدائم والأمن الشامل الكامل فلن يجدوا ذلك في
 المؤتمرات الدولية ، ولكن في طوايا النفوس الانسانية ، ولن يشفى

لهم هذه النفوس من دأبها إلا هذا العذب البرود من سؤر النبي صلى
الله عليه وسلم ...

فألى العذب الفرات أيها الظالمون ، وإلى السلام والأمن أيها
الخائفون ...

من عجيب أمر الاسلام أنه ما من شريعة في الارض أقرت السلام
كما أقره هذا الاسلام :

فاسمه من السلام ، وشعار أهله وتحياتهم سلام ، وختام صلاتهم
سلام ، ومن مناسكه في حجه السلام ، وقد نزل كتابه في موكب تحف
به ملائكة السلام : « إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر
ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من
كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر ،

فألى الذين يريدون السلام حقا نوجه القول أن يتجهوا إلى نبي
الاسلام وكتاب الاسلام : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي
به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور
بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ...

ربيع الآخر سنة ١٣٦٤ هـ مسن البنا

جفنة الدم

تضم هذه الصورة وصفا لما
كانت عليه الحالة خارج دار
الندوة وداخلها ، يوم اجتمعت
قريش للتأمّر على حياة
رسول الله صلى الله عليه وسلم

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو
 يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر
 الله والله خير الماكرين (قرآن كريم)

هؤلاء أشياخ قريش في طريقهم إلى دار الندوة مطأطء
 الرؤوس لثقل ما تحمل من هموم وكثره ما يمر بها من خواطر، وهؤلاء
 شباب بني عبد شمس ونوفل ومخزوم يؤلفون حلقات متناثرة قبالة
 الدار يتناقشون — في حدة — حول ما توافد الأشياخ لأجله وهذه
 نوافذ الدور المحيطة بالمسكان المرموق تشرف منها وجوه مسعدة فامتزج
 فيها الجمال المقبل بالوجل المدبر ، وحارت فيها عيون تلاقى فيها الصفاء
 الناعس بالحيرة المذعورة ، وهذا فضول الطفولة يدع الذراري شاخصة
 هنا وهناك حول هذه الحلقات تتسمع وإن لم تفهم وتمعن النظر وإن لم
 تع ، حتى إذا هوت كف أحدهم على قفا زميله دعابة له أو قصاصا
 انتظمت للجميع حلقة مستديرة لمشاهدة الألف الصغيرة تتناوب
 الضرب وتبادل التجريح . وتتجاذب التمام ، معركة لم يفضها إلا ترنح
 سكير يهرف بما لا يعرف ، ويعني بما لا يكاد يبين ، فهمس أحدهم في
 أذنه قائلا : سنكفيك أمره

فتراجع المخمور إلى الورا ثم انثنى إلى الأمام ثم مسح على شاربه

وعشونه (١) وجحظ في وجه محدثه وقال وهو يهتز في شبه اغفاء
من يكنه يا هذا؟

الشاب — ابن أبي كبشة (٢) ذلك الذي ينفر الناس من الخمر
السكران — مترنحا — مسكين أعذروه فإنه لم يذقها . . .
وحق هذه الآلهة لو شرب محمد قدحا واحدا منها ، لباع رسالته بالثاني
ثم اهتز يمنة ويسرة والأطفال تداعبه بجذب إزاره ، وهو يسبهم
ويخوفهم ثم شخص إلى الواقفين وقال :

دعوه ينفر الناس من الخمر ، لينفروا منها ويعافوها لتكثر
فترخص ، فأظل أشرب منها وحدي حتى أسقط عند دنائها إغماء . . .
ثم مضى وهو يترنم

يحسو على ذكراك ياهبل ساقى المدام ويطرب التمل
لو كان أحمد ذاق نشوتها ما كان فيه بغيرها شغل
ضحك الشبان لهذا التخلص الطريف ، وبيناهم ينهرون الأطفال
القائمين على مناوشته وإذا بشالوم المرابي المعروف بمكة
ينظر يمنة ويسرة كأنه يسائل نفسه عن سر هذا الزحام حول
دار الندوة ، ولما لم تسعفه فراسته توقف عن المسير وغرس عكازته
في الرمال وأسند ذقنه على طرفها ثم راح يتساءل :

(١) العشون مؤخر الذفن (٢) كنية كانت فريش تطلقها على رسول الله سخرية وأبو
كبشة زوج حليلة السعدية مرضع رسول الله

— ما هذا الملا من قريش في مثل هذه الحال

أحدهم — إنهم يأتمرون بصاحبك محمد بن عبد الله يدعو إلى
القرض الحسن ويعلمها حربا ضروسا على التعامل بالربا ، وينذر
المتعاملين بنار الجحيم

شالوم — ساخرا — شفقة بهذا الرجل فان بذهنه دخلا ، وإلا
فأين المال من يد أصحابه ، وليس فيهم إلا قتي مفتون . و عبد آبق ،
وشيوخ مأفون ، وجلهم فقير معدم ، ولو طعموا يوما لذة المال
لأنستهم حلاوته عذاب الجحيم . . ولم يقطع على الشيخ اليهودي
حديثه ، إلا ديب كاهنة جاءت في ثيابها المرقشة تحملها هراوتها وقد
أحاطت عنقها بمجموعة متنافرة من حبات سود خالطتها أزواج الودع
وفصلت بينها أرجل الأرانب وخرزات المرجان ، ودست في شعرها
الرمادي الأشعث ريشات بعض الطيور الجارحة واخترمت شحمتي
أذنيها شوكتان من سعف النخيل الوليد ، وبعد أن طافت بالبيت
واسترحمت صغار الآلهة وقفت قبالة (هبل) تناجيه في صوت
قوى أجش

ويح نفسي !! أما لما نزل بقريش من نهاية ١٤ ؟ أما لاصطباركم عليه
من حد ١٤ لقد مزقت دعوة محمد الأواصر ، وقطعت الأرحام ، وتمرد
العبيد على السادة ، وشحت القرابين ، وضعف الأقبال على الحج واستهتر
الشبان بالكهان ، واستخفوا بالآلهة فألى متى يظلمنا هذا البلاء . . . ١٤ .

وما أتمت الكاهنة عبارتها الأخيرة حتى دمعت عينها من شدة
 الناثر، ثم أصابها سعال متتابع أعقبه بهر وإعياء فألقت بنفسها على
 عصاها فأنثنت تحت ثقلها فتدلّت عليها رويداً رويداً حتى أقعت على
 الأرض ثم راحت تبتهل تارة وتسعل أخرى وتبكي ثالثة ثم غالبت
 تأثرها وشخصت إلى (هبل) بعينها الضارعتين المعتكرتين، فألقت كلبا
 يبول في حجره فهضت مسرعة لتطرده فانكفأت على وجهها، ثم
 نهضت من جديد ولكن غريمها كان قد ولى فدنت من هبل على مهل
 فألقت برمة فيها بقية من لبن فأدركت أن الكلب قد أتى على ما كان
 فيها، ثم بال في مكانه وانصرف، فحلت منطقتها وراحت تمسح عن
 إلهها بولة الكلب وهي تبكي فسمعت على مقربة منها من يقول :

رب يبول الكلب في محرابه وينال منه !؟ إنه لذليل

وما إن سمعت ذلك حتى توقفت يدها عن المسح كأنها شلت ثم
 نظرت خلفها وصاحت يا للآلهة . انه ذريح المجنون . . لو أن قائلها
 سواك !؟ ثم راحت تحدث نفسها : ليت شعري إذا كان « هبل » قد
 أغضى عن اللبن كرما وتساخا فكيف يغضى عن المهانة والأذى ؟
 فسمعت مرة أخرى من يقول :

والهون يدفعه الحليم بقوة إن لم يكن إلا الدفاع سبيل

فردت عليه تقول :

قبحت مجنوناً .. وكم من حكمة

يلقى بها المجنون وهي مزاح
هبل أباح الكلب شرب لبانه

لكن جناب الرب كيف يباح ١؟

ثم انصرفت حزينة مذعورة تتلفت عن يمين وشمال .

حلق الليل بجناحيه في الفضاء . وخيمت الظلمة في دار الندوة لولا
ذبالة مصباح معتكرة تترنح في يد الرياح ، ظهرت تحت ضوءها الباهت
عمائم المشيخة من قریش قد استسلموا لهوا جسمهم وراحوا بين لاه على
الرمل بعود ، وما سح على صفيحة سيفه ، وعابث بشعيرات ذقنه ،
وما شق هذا السكون عليهم إلا قدوم الحكم بن هشام في وضاعة
وجهه وامتداد قامته ، والتماع شبابه (١) واسترسال ذؤابتيه على
منكبيه ، فتجاوبت أصداء الدار ترحيباً به .. مرحباً وأهلاً

عقبة — وناقة ورحلا

أبو البختری — ومستنأخا مهلاً

ثم دخل أبو سفیان فتعالت الأصوات

(١) لم يسمع في الجاهلية لمن دون الأربعين بحضور مجالس الشيوخ إلا لابي الحكم بن هشام
المعروف بأبي جهل لرجاحة ذهنه بين الجميع

.. وملكاً رجلاً

زمعة — يعطى عطاء جزلاً

وأشار إلى أبي سفيان

ثم ساد الهدوء فترة من الزمن انشغل فيها بعضهم باصلاح عمامته
أوالجمع بين أطراف ثيابه ثم مال أبو سفيان إلى الحكم بن هشام
يسأله من هذا الرجل الوضئ الغريب (١) فسمع من الجانب البعيد
للدار صوت شج قوي يقول :

— شيخ من نجد وأنا ابن أختكم

الحكم — ابن أخت القوم منهم

الرجل الغريب — رأيتم حسنته وجوهكم ، طيبة ربحكم ،
فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم فان كرهتم ذلك خرجت عنكم
زمعة — ما دام نجدياً لا من مكة فدعوه لا يضركم حضوره معكم

ثم نظر أبو البختري إلى أبي سفيان وسأله

ما وراءك من أخبار هذا الرجل (٢)

أبو سفيان — يواصل أصحابه الهجرة منذ أكثر من شهرين إلى
يثرب . فقد ظعن مصعب بن عمير وعامر بن ربيع وامرأته ليلى بنت
أبي حشمه ، وعمار بن ياسر وبلال بن أبي رباح ، وسعد وسالم مولى

(١) روى أن إبليس لبس ثياب نجد وتسلل إلى الاجتماع (٢) يقصد محمداً

أبي حذيفة وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وعمر بن الخطاب

أصوات — في فزع — ابن الخطاب ؟

أبو سفيان — وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكبا

فوكز زمعة الحكم بن هشام وقال له هذا أخوك لامك يحادنا
من أجل محمد، فاحمر وجه الحكم وطأ رأسه خجلا ثم تنفس وقال
سأعرف كيف أعود به في الحديد (١)

أبو سفيان — وواعد هشام بن العاص عمرا على السفر ففطن
لهشام قومه وحبسوه عن الهجرة وشاء الوليد بن الوليد وسلمة بن
هشام أن يهاجرا فحبسا في الحديد، وأراد أبو صهيب الرومي أن
يرحل بدوره فلم يعدم من قال له أتيتنا صعلوكا فقيرا فكثير عندنا
مالك ثم تريد أن تخرج به والله لا يكون ذلك أبدا، ومنعوه، ولكنه

(١) وقد بر الحكم بوعدة وسافر مع شقيقه الحرث إلى المدينة وأنها عياشا أن أمه قد نذرت
أن لا تغسل جسدها ولا تمشط شعرها . ولا تستظل من شمس حتى تراه . ففرق لحال أمه ثم ذهب
إلى عمر بن الخطاب يستشير . فأقنعه عمر أنها خدعة ولكنهما عادا بحذانهما ببر الوالدين
وما ورد في دينه عنهما فضعف ورحل معهما فعدوا عليه في الطريق وأوثقاه بالحديد وأذاقاه ألوانا
من العذاب ثم ألقيا به في السجن مع هشام بن العاص حتى فتح رسول الله مكة وأطلق سراحه مع
بقية المسجونين وروى أن الحرث بن يزيد القرشي كان من أشد الناس قسوة على عياش في محنته
فلما أطلق سراح عياش راح يبحث عن غريمه قبل أن يعلم بإسلامه . حتى عثر عليه وقتله فتركت
لآية (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ الخ .)

قد لا يعجز عن الرحيل بفضل ماله (١)

وقد أعدنا إلى دين قريش من أتباع محمد الحرث بن ربيعة
وأبو قيس بن الفاكمة وأبو قيس بن الوليد والعاص بن منبه وعلي
ابن أمية .

الأسود — وما خطب أم سلمة هذه تغادينا عند الابطح بالبكاء
حتى المساء .

أبو سفيان — انه لدليل جديد على قوة سحر هذا الرجل لعقول
أصحابه فقد أراد أبو سلمة الهجرة فعلم أهل زوجته بذلك فخالوا بينها
وبين صحبتها ونازعوا زوجها سلمة الصغير وتجادبوه بينهما حتى خلعوا
يد الطفل المسكين ولكنه غلبهم عليه ، ورحل به ، وخلف زوجته تبكى
لوعة هذا الفراق حتى اليوم (٢)

وقصارى القول أن محمدا تهيأ للهجرة ، فقد انتهى الى ، أنه راح منذ
أيام يواخى بين أصحابه ليرتفق الاذنى منهم بالأعلى ، وليستعين الأعلى
بالأدنى ، فأخى بين أبي بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين
عثمان وعبد الرحمن بن عوف وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن
الحرث وبلال وبين مصعب وسعد بن أبي وقاص وبين أبي عبيدة بن

(١) وقد هاجر فعلا بفضل ماله ولما لقيه رسول الله بالمدينة قال له ربح يعك يا صيب
ثلاثا فدهش صيب لهذه المفاجأة وأيقن أن جبريل هو الذى أخبره بذلك وقد نزلت فيه آية
(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) (٢) روى أنها ظلت تبكى عاما كاملا فى المكان
الذى فارقت فيه زوجها وولدها حتى رقت لها أهلها وخلوا سيلها فلحقت بالمدينة

الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله
وبين علي وبين نفسه

الحكم - أن أبا سفيان يقص علينا من الأنباء ما ليس بخاف
إلا على القليل ممن كانوا خارج مكة لبعض شؤونهم ، وإني لأرى أن
هجرة محمد على وشك الوقوع ، وإذا تم له ذلك فأنها قد تكون باب نصر
لدعوته ، وإن الخوف على دين قريش ليس من هجرته بقدر ما هي من
هجرة دعوته ، فقد لا تعدم خارج مكة آذانا وقلوبا لاسيما بين هؤلاء
الذين يجاورون تعاليم أصحاب الكنائس والبيع (١) وهي ديانات قريبة
الشبه بما يقوله محمد ، بل قد لا يعدم أنصارا من اليهود والنصارى
أنفسهم ، وقد يلتجئ إليه بعض القبائل لترات بينها وبين غيرها ، فيجعل
محمد من شتاتها جمعا . ومن ضعفها قوة . والافانظروا كيف جعل من
مثل عمر بن الخطاب عدوا لقريش يتحدى أبناء عمومته وخولته حين
هجرته (٢) ويدعو قريشا - على ملاء - الى النزال يتهدد به من حاول
منعه عن الهجرة ، وكيف طابت الهجرة لأبي سلمة دون زوجته ونازع
أهلها ولده حتى خلعت راحته ، وكيف عرض صهيب الرومي جل ماله

(١) جمع بيعة وهي معبد اليهود

(٢) عند ما أراد عمر الهجرة تفلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أمهما ، واختصر
حربته ومعنى صوب الكعبة والملاء من قريش في فئتها . فطاف وصلى ثم قال شامت الوجوه
لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تشكله أمه أو يتم ولده أو ترمل زوجته فليلقني وراء
هذا الوادي . فما تبعه أحد

على مانعيه من الهجرة يساومهم على اطلاق حرية ، رغم ما عرف من
شحه ولجاجته ، فاذا تمت له الهجرة فانا سوف لانأمنه في الوثوب علينا
يمن قد تبعه فيسلبنا سدانتنا وسقايتنا ورفادتنا وتسقط سيادتنا على
العرب ويكرهنا على دينه دون ديانة الآباء والجدود ، فانظروا الى
الموقف بعين الجد والحزم قبل أن يخرج زمام الأمر من أيدينا

أبو البختری — احبسوه في الحديد واغلقوا عليه بابا ثم تربعوا
به ما أصاب اشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من الموت
الشيخ النجدي (١) — لا والله ما هذا برأى والله لو حبستموه كما
تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه
فيثبون عليكم وينزعونه من أيديكم ثم يكاثرونكم حتى يغلبوكم على أمركم
فانظروا رأيا غيره

الاسود بن ربيعة — نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا
خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب

الشيخ النجدي — والله ما هذا برأى ألمتروا حسن حديثه وحلاوة
منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يزعم أنه يأتيه من السماء والله
لو فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يحل بحى من أحياء العرب فيغلب عليهم
بحسن حديثه حتى يبايعوه ، ثم يسير إليكم حتى يظأكم بهم فيأخذوا
أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا آخر .

(١) هو إبليس قد تزيا بزى شيخ نجدى كما تقدم

الحكم بن هشام - والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم

عليه بعد

أصوات - وما هو يا أبا الحكم

الحكم - الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا حسيبا في قومه

نسيبا ، ثم يعطى كل منهم سيفا صارما ثم يغدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فستريح منه ويتفرق دمه في القبائل فلا يقدر

بنو عبد مناف على حرب قومه جميعا فيرضون فيه بالديه

أصوات مرحى مرحى ...

الشيخ النجدي - القول ما قال هذا الرجل ... هذا هو الرأي

ولا أرى غيره ، وهذه جفنة من الدم فلنغمس يدينا فيها كعهد وميثاق

على القيام بتنفيذ ما قال أبو الحكم فوضعوا يدهم في الجفنة وبينما هم

كذلك ، وإذا بوجه عقبة بن أبي معيط يحنقن ثم يتفصد بالعرق

ثم إذا به يصيح ادركوني أغيثوني فقد لدغت من عقرب : .. فاذا

بالشيخ النجدي يخطف المصباح ويدنى ذبالبته من موضع اللدغه وعقبة

يتأوه والنجدي يدفع الدخان بفمه ويقول : يالها من لدغة كاوية .. لقد

قاوم وقاوم حتى إذا اشتد به الألم انطلق مستغيثا . ابحثوا عن اللعينة

واقتلوها وبينما هم يبحثون عنها هنا وهناك إذا بعكاشة (١) تسقط

على قفا الحكم بن هشام من بين أعشاش العنكبوت المخيم في سقف

(١) حشرة ذات أرجل كثيرة تسكن دائما نسيج العنكبوت

الدار فانزعج وراح يضرب صدغيه وقناه وودجيه (١) براحتين ملوثتين
 بالدم ظنا منه انها عقرب أخرى فتضاحك القوم لمنظره
 واستلقى النضر على قفاه من الضحك حتى اضطجع الى الحائط ثم
 اعتدل في سرعة خاطفة وراح يتلمس شيئا في ظهره وهو ممتقع .
 ولعله ظن ما ظن الحكم ثم تبين أنها شوكة نخل مديبة اضطجع عليها
 فوخزته فاضطرب فقال الشيخ النجدي
 يظهر أن محمدا قد أطلق علينا سحره
 الحكم - سنكفيك وسحره معا ...

* * *

ولو أن ناظرا وقف قبالة الغار في تلك الليلة الراجفة ثم ألقى بنظرة
 في جوفه لالني جريحين يعانيان أوصاب السير وآلام القروح قد لفهما
 الليل بردائه واحتضنتهما الوحشة بجناحيها . : ثم سمع في سكون هذه
 الوحشة صوت ثوب يتمزق ، ولم يكن إلا رداء أبي بكر يتخذ منه
 ضمادات لجراحات قدم الرسول حتى إذا سكنت آلامه ، وهدأت
 أنفاسه ، توسد فخذ صاحبه تلبية لرغبته . واشباعا لمحبتته
 أما الجريح الثاني . فقد أخذ يجالذ آلام لدغة أصابت عقبه ، حتى
 لا يقطع على رسول الله نومه ، وظل يعانى ويقاوم حتى استيقظ فألفاه
 عليه السلام بلا ثوب فسأله

(١) العرقان الكبيران اللذان يقومان عن بين العنق وشماله .

أين ثوبك يا أبا بكر

— سددت بمزقه شقوق الغار

— ولماذا تورمت ساقك

— نفذ ثوبي وبقي شق فسدده بعقبى حتى إذا كان فيه شيء نزل بي

قبلك فلدغتنى حية

— هلا أخبرتنى

— كرهت أن أوقظك

— فمسح الرسول بلعابه على عقبه وساقه ، فسكنت آلامه وهبط

تورمه وعادت قدمه سيرتها الأولى

— ثم قال

— اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة

وجاء عكرمة بن أبى جهل خائر القوى مبهور الأنفاس وأخذ

يتحدث الى أبى سفیان بما لم يسمعه أحد لولا صرخة بدت من

أبى سفیان تقول

ابن أبى طالب ؟ وكيف اجترأ هذا الحدث أن يدخل الى فراش

محمد وسيوف قريش تغشاه فى الخارج يالها من جرأة عاتية وخذعة قد

أجازها عليكم هذا الغلام وأين كنتم ساعة خروجه

عكرمة - لقد هممنا أن نتسور عليه داره فصاحت امرأة من
الدار المجاورة في وجوهنا فتراجعنا وسمعت من يقول انها لسبة في
العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا
ستر حرمانا ثم قال أمية لا يزيد أن نفتك به إلا في ضوء الفجر ليعلم
بنو عبد مناف أن لا قبل لهم بحرب قاتليه

أبو سفيان - ثم ماذا

عكرمة - والله ما ندرى بعد ذلك كيف غلبنا النعاس (١) فلم
نشعر بخروجه بل وبالتراب عفر به رؤوس الجميع

أبو سفيان - وماذا صنعتم بابن أبي طالب

عكرمة - ضربناه ضربا موجعا ثم حاولنا أن نتعرف منه مكان
ابن عمه فلم نفلح فوضعناه في الحديد وحبسناه في المسجد حتى الآن .
الحكم - يا للهانة ! أرجل واحد يغافل مائة رجل حول بابه
يا لقريش . . نادوا في كل مكان من جاء بمحمد أو صاحبه قتيلين
أو أسيرين فله مائتا بعير

تجابت أنحاء مكة باصداء هذا النداء وتناقلت الشفاه إلى كل
مكان هذه الأنباء ، فكان الناظر إلى مكة غداة هذا اليوم يراها كأنها
تأهب لعدو قادم ، فهذا غبار بعيد ينعقد في أعقاب فارس ينهب

(١) روى أنه خرج وهم نيام وكان يتلو قوله تعالى يس والقرآن الحكيم - إلى قوله تعالى -
فاغشيهم فمهم لا يبصرون

الأرض بجواده في طريق اليمن ، وهذا آخر قد اختصر (١) حربته
 واستحث نجيبته (٢) واندفع بها صوب (جدة) والناس تلوح بيديها
 تشجيعا له ، وهو ساجح في بحر أمانيه بالماتى ناقة وهذان شابان ناهدان
 يحدث أحدهما الآخر في خفة وجلد عما جعلته قريش ثمنا لاحضار
 الصاحبين حين أو ميتين . ففكر هذا الآخر ثم فكر ثم فكر يدا
 بأخري وهو جذلان ثم وكز صاحبه مازحا وولى إلى مربوط فرسه
 وهو يقول له ، لك عندي منها خمس لو ظفرت بهذا الجعل الثمين ،
 وهذه امرأة قد اعتجرت عقالا (٣) وتمنطقت سيفا وقاد لها عبدها
 في طريق المدينة جوادا لا تكاد سنا بكة (٤) تلمس الأرض خفة ورشاقة
 وقد التف حولها بعض أهلها وهي تقسم لهم في عناد الرجال ، أنها
 لن تعود إلا وفي ركبها زمام الرجلين مكبلين بالحديد

وهذا أبو سفيان بن حرب يملأ أفنية مكة غدوا ورواحا يأمر
 وينهى ويشير ويلوح ثم لا يكاد يقف حتى تراه ساجحا بعينيه في
 الفضاء أو مغمضا مطرقا إلى الأرض ولعله كان يستعرض أمام ذهنه
 قوافل التجارة إلى الشام وقد قطعت عليها قوة المسلمين الطريق فبارت
 تجارة قريش وتعرضت مكة لمجاعة مهلكة .: فيفتح عينيه منزعا ويهز
 رأسه هزات سريعة كأنه يفبق من حلم ثقيل ثم لا يلبث أن يسير

(١) وضعها في خاضرتة (٢) ناقته الغلول (٣) أدارت على رأسها عقالا

(٤) حوافره

هنا وهناك على غير هدى يسأل الغادى والرائح عما وراءهم من
نبأ البحث عن الصاحبين

وسمع أبو بكر وقع أقدام على مقربة من الغار فنظر إلى رسول الله
ثم التصق به كمن يحميه من موت محقق ورسول الله مستغرق في تلاوته
وكلما دنا وقع القادمين ازداد التصاقه برسول الله وهو يبكي فقال
له النبي .

— ما يبكيك يا أبا بكر ؟

— ما على نفسي أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره

يا رسول الله

— والذي بعثني بالحق نبيا لا يدخل الجنة مبعضك ولو كان عمله

عمل سبعين نبيا

ثم بدأ أبو بكر يتنحى عن رسول الله رويدا ، وتهدأ أنفاسه ويقر
روعه حين غلبت وسوسة الرمال في حوافر قطع من الغنم ، وعلا
ثغاورها (١) المتقطع على كل صدى آخر ، وظن أن القادمين ليسوا من
قريش ، ولكنه لم يكديهنأ بطمأنينته طويلا حتى سمع من يقول لآخر

— عم صباحا يا عمه

— عم صباحا وخيلا رباحا

(١) الثغاء صوت الغنم

— ألم تشم (١) في طريقك رجلين أحدهما ربيعة (٢) ورضي .
والثاني نحيل قمي . (٣)

— قد يكونان بهذا الغار وإن لم أر أحداً أمه (٤)

— سمع أبو بكر هذا الحديث ، فاستحالت مسامه أذانا مرهفة ،
وأخذت جسمه قشعريرة شديدة أعقبها فيض من العرق ودق قلبه
دقات عنيفة حين وثب أمام فوهة الغار أمية بن أبي معيط من القمة
المجاورة له وتبعه آخر وآخر . فأيقن أبو بكر أن القوم أدركوهما ،
وأن الموت . يحتم على الباب ، فزاد انكاشه وتلاصقه برسول الله ،
ونضح جسمه بالعرق غزيراً

— فتنفس رسول الله وقال واصهيباه ولا صهيب لي (٥)

— ثم سمع الحكم وهو يقول من فوق الغار لأمية في صوت
مخنتق أجش

— أدخل هذا الغار وافل (٦) جوانبه

— فرد عليه أمية هازئاً

(١) ألم تر (٢) متوسط القائمة (٣) قصير (٤) بتشديد الميم - قصده

(٥) كان صوب قد واعد رسول الله على الخروج معه إلى يثرب فلما حان وقت الاختفاء أرسل
إليه أبا بكر فوجده يصلي فنادره وعاد إليه فوجده يصلي ثم جاءه الثالثة فوجده كذلك فانصرف
عنه فلما أحس رسول الله بما حول الغار من قوة تخيل ما يتعرض له أصحابه الآن من تعذيب
فذكرهم وذكر صهيباً بصفة خاصة (٦) فتش جوانبه

ومالي أدخل الغار وعليه من آثار الحقب ما هو أبعد من ميلاد

محمد وصاحبه

الحكم — ميلاد محمد ! وماذا عندك ؟

فرجع أمية إزاره وراح يبول عند مدخل الغار وهو يحدث

الحكم ويقول

عندى شجرة (١) شأنها عجب قد امتدت جذورها بين الجلامد ،
واستطالت غصونها حتى سدت فوهة الغار وها هو ذا العنكبوت
قد نسج خيوطه بين الأغصان ، وهذه حمامة (٢) وحشية قد وضعت
بيضا وأوشك البيض أن يتمخض عن جوازل (٣) فمتى وكيف دخل
محمد وصاحبه بطن الغار ؟

— أبو بكر — هل يرانا أمية يارسول الله

— لو كان يرانا ما قال ذلك ، ولما كشف عن سوءته

الحكم — أما والله إنى لأحسبه قريبا وإنه يرانا . ولكن بعض

سحره قد أخذ على أبصارنا

أمية — هيا يارفاق إلى طريق آخر للبحث عنهما قبل فوات

الوقت فما والله قد طئت قدمه ظهر هذه الآكام

(١) يقال إنها شجرة العشار المعروفة في الصحراء.

(٢) يقال إن حمام الحرم من سلالة هاتين الحمامتين (٣) صغار الحمام

أصوات — هيا هيا ...

تنفس أبو بكر الصعداء وراح ينفصل عن رسول الله رويداً
رويداً كما تنفصل أوراق الورد عن بعضها تحت انداء السحر وجرى
لعابه قليلاً قليلاً حتى استطاع أن يحرك لسانه بالحديث وقال

— حمداً لله وشكراً وتكبيراً

— الله أكبر الله أكبر . والله يا رسول الله لو نظر أحدكم تحت
قدمه لأبصرنا . ولهذا كان حزني

— لا تحزن إن الله معنا

— ما كان حزني إلا عليك يا رسول الله فما أنا لو قتلت إلا فرد
أما أنت فأمة كاملة

— ماظنك باثنين الله ثالثهما

* * *

سحابة كبرى من التراب تهيم في ضوء القمر كالسراب ينبعث
منها في سكون الليل نغاء ورغاء وغمغمة مشافر (١) وحذاء عامر
وعبد الله (٢) في نغم كلحن المزاهر. ويستشف تحتها رؤوس تهتز خلال
السير على وسوسة الرمل من وقع الخفاف والحوافر. وأمام هذا كله

(١) النغاء صوت الغنم والرغاء صوت الابل (٢) عامر بن فهيرة خادم أبي بكر وعبد الله
ابن أريقط دليل الصحابين في رحلتهما

فتيان يهمس كل منهما في مسمع الآخر حتى لا يصل حديثهما إلى آذان قريش ، وتنطمس آثار أقدامهما عن عيون القافة (١) ويفوت حدائتهما على المحدسين ثمرة الاستنتاج والتخمين يحمل صدر أحدهما أنباء قريش ، ويحمل عاتق الأخرى زاد الصاحبين الجليلين فقال أحدهما لصاحبه وهو يحاوره

— ومتى جاءكم رسول الله ؟

— أسماء — عند الظهيرة ولم يكن قد جاء قبل ذلك في مثل هذه الساعة ، فعرف أبو بكر أنه ما قد جاء إلا لأمر خطير ، فأسرع نحوه حافيا يمسح وجهه بطيلسانه واستقبله في الحجرة الكبرى هاشا مأخوذاً . باشا مرهوباً . فأجلسه رسول الله إلى جوار حشيشته (٢) وظل مطرقاً . فأطرق أبو بكر لأطرافه ، ولعل رسول الله كان يستعرض أمام ذهنه الصعاب التي تنتظره ، وآماله الكبرى في التغلب عليها . ولعل أبا بكر لم يكن يملأ رأسه إلا الشيء الذي طالما حدث رسول الله عنه ، وأنه للخلاص أمر لا بد منه ، ثم اعتدلت قامة الرسول ، فراح أبو بكر ينظر إليه بعينيه الدقيقتين وكله آذان ويقظة — يرقب ما عساه يتحدث به الرسول حتى قال له :

— أخرج من عندك يا أبا بكر ، فقال له أبو بكر هما بنتاي
يارسول الله

فسكت الرسول رضا واطمئناناً وزاد الموقف أبا بكر شغفا
وحناناً . ثم قال الرسول :

— إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة

فهزت رعشة الفرح جسم الصديق ، وراح يبكي فرحاً وهو يقول ..
الصحبة الصحبة يا نبي الله بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد
أعددت لها والله العدة ، وهاتان راحلتان قد أعددتهما لهذا
اليوم العظيم

رسول الله — بل بالثمن . . . الصحبة الصحبة يا أبا بكر

فنى أبو بكر عند ذلك أناته وظل يغدو هنا ويروح هناك يعد
دراهمه ويجمع ماخف وغلى من مقتنياته ، وعائشة تجرى خلفه وتساهم
في كل هذا بنصيب المقلد يحكى ما يصنع أمامها وأبو بكر ينظر إليها
بعينين ملؤهما الأسى لفراقها وأخواتها . واللهفة المحترقة إلى صحبة الرسول
ولا يلبث بين الفينة والأخرى يمسح على ظهرها ، ويداعبها وهو في
طريقه إلى إعداد ما يراه ضرورياً للرحيل

عبد الله بن أبي بكر (١) — ولماذا يهاجر أبو بكر ويتركنا وحدنا

أسماء — لأن قريشاً تريد قتل رسول الله وأبي بكر معه

(١) كان رضى الله عنه إذ ذاك صغير السن ، واسكنه يمين ما يقال ولذلك كان يحمل لأبي

بكر كل يوم ما يقال في نوادى قريش ، ولعل في حديثه ما يدل على حدائته ووعبه في الوقت

عبد الله — قتل رسول الله وأبي بكر ؟! قبجهم الله . . وماذا
يحمل عامر بن فهيرة ؟

أسماء — أربعة آلاف درهم (١) سيحملها أبو بكر معه إلى مهاجرة
وهي كل ماله

عبد الله — وهل يحمل أبو بكر كل ماله معه ثم يدعنا عالة
على الناس

أسماء — وان هذا في سبيل الله طين ، فلنأخذ حظنا من الحرمان إذا
كان لا بد منه كبعض المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير
حق ، على اتى علمت أن رسول الله قد استبقى عليا بمكة حتى يودى
الأمانات الى أهلها ثم يصطحب الفواطم الى يثرب وسنكون في معيتهن
عبد الله - ومن يكن ولا أعرف منهن إلا بنت رسول الله

أسماء — وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، وفاطمة بنت حمزة
وفاطمة بنت عتبة وفاطمة أم علي ثم عادت أسماء تقول

وعند انتصاف الليل نهض رسول الله قبالة الخوخة الخلفية لباب
أبي بكر وأخذ يتلو قوله تعالى (رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني
مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) ثم خرج وصاحبه

(١) كانت ثروة أبي بكر وقت إسلامه أربعين ألف درهم وقيل دينار ، فبلغت عند هجرته
مع الرسول أربعة آلاف فقط

وامعنا في الظلام ، وعيوننا تودعهما . وأقندتنا تطوف حولها وقلوبنا
تدق دقا سريعا

عبد الله - كم ليلة خلت الى الآن على الصاحبين في الغار
أسماء - ليلتان وهذه هي الثالثة .

دار هذا الحديث بين عبد الله وأخته أسماء في الطريق بين المنزل
والغار ، وكان عامر بن فهيرة وعبد الله بن اريقط كلما سمعا صوت
أحدهما يكاد يرتفع على ما حولهما ضربا الأرض بعصاهما إيهاما وتخويفا
للشياه أو ارجاعا للشوارد الى أحضان القطيع وعلا صوتهما بالحداء
فتردد الجبال أصداه وهما يهزجان .

سيرى خلاك الذم سيرى في غرة القمر المنير
ودعى لرب البيت ما ودعت من أهل وخير
والبيت في أكناف أعلا م كحراس الدهور
وضعت يدا ابرام ما وضعت في تلك الصخور
فاذا العروبة من جلا ل البيت في حصن خطير
ما نحن الا قبلة الدنيا وسادات العصور

سيرى خلاك الذم سيرى

ولا يكاد ينتهي عامر بن فهيره من أهزوجه حتى يرد عليه
عبد الله هازجا :

لغنمت يا غنمي السلا مة في الرواح وفي البكور

فلربه فضلا خصصت به من المولى القدير
عنى على أثيرهما فى الصخر والرمل العفير
قنى على أثيرهما قنى وسيرى ثم سيرى

سمع الصحبان الجليلة التى اعتاداها كل ليلة فعرفا أنه ركب ولدى
أبى بكر وقد جاء الليلة بمطايا السفر فرحب بهما أبو بكر وباركهما
رفيقه ثم لاحظ أبو بكر على ابنته وجوما لم يعهده من قبيل فسألها
ما وراءك يا أسماء

— استيقظت اليوم على طرق عنيف ، فاذا بى امام الحكم بن

هشام وخلفه رهط من قريش وإذا به يبادرنى

— أين ابن أبى قحافة

— لا أدرى أين ذهب

— وأين صاحبه

— ليس هذا بيته حتى تسألنى عنه فى مثل هذه الساعة ، فرفع يده

ولطمنى فطرح قرطى (١) وأسال الدم من شحمة أذنى

رسول الله — ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته

أسماء — ثم وفد بعد ذلك أبو قحافة يتلمس الطريق بعصاه .

ويتحسس الباب براحته حتى إذا اجتاز عتبة ، تأبط عكازته وضرب

راحة بأخرى ثم ناداني ، فهرولت اليه وأخذت بيده الى الداخل
ووجهه شاخص الى السماء ثم ابتدرني

— كيف حالكم يا بنتاه ، والله إنى لأرى أن أبا بكر قد فجعكم بماله

مع نفسه

أسماء — لا وحقك يا جداه انه قد خلف لنا خيرا كثيرا ، ثم
تركته وسارعت إلى رداء فاستودعته خزفا وحصى ثم كورته ووضعته
في الكوة التي كنت تضع فيها دراهمك ثم أخذت بيد الشيخ ووضعتها
على الرداء فعركه برفق وقال :

— لا بأس يا بنتى إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفيه

بلاغ لكم

— شكرا لله على السراء والضراء

— فابتسم ابو بكر لحيلتها في ارضاء الشيخ وقال لها ثم ماذا ورامك

بعد ذلك

اسماء — شاة سليق لفتها التوابل ، وحفتها أقراص البر الغريض وماء
من عين زمزم تذكر شاربيها بمهد اسماعيل الجد الأول لرسول الله محمد
فابتسم رسول الله وقال :

— ذرية بعضها من بعض . . . ليس من أحد أمن على في أهل

ومال من أبى بكر فبكى ابو بكر وقال :

وهل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله .

ثم شخص الى عبد الله بن أبى بكر وسأله وما أنباء قريش الأخيرة
— ما زال أبو جهل يلح على المنادين بالذهاب كل مذهب ويتردد
على أفواه الطريق المؤدية الى اليمن والشام والحبشة والساحل، وما زال
يرسل القوافل الى كل جهة ويغريهم بالمائة ناقة التي جعلتها قريش جملا
خالصا لمن يأتى بمحمد أو صاحبه حيا أو ميتا وقد زاد بطش قريش
بالمسلمين فراحوا يخرجونهم من بيوتهم وأموالهم ويضعونهم في
في الحديد ويعذبونهم

رسول الله — صبرا صبورا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون
ثم أطرق رسول الله فسكت الكل لا طراقة ولعله كان يوازن —
على ضوء الأنباء الجديدة — بين البقاء في الغار أياما أخرى وبين
الرحيل الى يثرب . ثم ترامت إليه أصوات بعض الديكة من بعد ،
فقال أسماء يكاد الليل أن ينتصف فهب رسول الله واقفا ، فعرف
الكل أنها ساعة الرحيل ، فراح أبو بكر يوزع على الراحلين اختصاصهم
وأخذ عبد الله بن اريبط (دليل الطريق) بزمام الناقة وأخذ أبو بكر
بركابها حتى ركب الرسول ثم قال

— الا أبشرك

أبو بكر — فذاك أبى وأمى

رسول الله — ان الله عز وجل يتجلى للخلائق يوم القيامة عامة
ويتجلى لك خاصة

ثم قال

اللهم اصحبنى في سفري واخلفنى في أهلى

ثم تقدمت اسماء الى ناقة أبيها لتودعها الزاد والماء . فلم تجد ما تعلقه
به في مؤخرتها فشقت نطاقها وشدهما بشق وتمنطقت بالشق الآخر (١)
ثم هوت على رأس والدها الحنون تتظاهر باسرار أمر إليه ، ولكنها
كانت تستودعه حبها وتبته وجدها لفراقه ، وابو بكر يتناوبه عاملان
كبيران . عامل الحنو إلى الأهل والوطن . وعامل حب الله ورسوله
فراحت تغالبه دموعه ويغالبا ، حتى رأى رسول الله يدير زمام ناقته
صوب الكعبة وهو يقول

(اللهم انك لاحب أرض الله الى الله وانك لاحب أرض الله الى
نفسى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت) فدنا ابو بكر من اسماء
وقال لها

ستلحقيننا مع الفواطم (٢) ثم ركب ناقته وأردف خلفه مولاه

(١) ولذلك سميت ذات النطاقين

(٢) روى أن رسول الله بعد أن استقر به الحال في يثرب أرسل كتابا وخرأ (جمع خمار)

عامر بن فهيرة وسارا عن طريق الساحل تضليلا لقريش والنسيم
يحمل إلى آذان المودعين ما يتلوه الرسول من قول الله (وكم من قرية
هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم —
ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) (١)

وبعيرين وخمسمائة درهم مع زيد بن حارثة وابي رافع الى علي بن أبي طالب لاحتضار الفواطم
ومعهن أسرة أبي بكر

(١) وقد نزلت عليه هاتان الآيتان وهو يجالذ حنينه الى مكة عند سفره فراح يتلوها ويكررها



أول تفسير عبري

تصف هذه الصورة استقبال رسول الله
بالمدينة ورأى اليهود في هذا الوافد الجديد
ومدى أثره في حياتهم من نواحيها المختلفة

إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين
كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول
لساحبه لا تحزن إن الله معنا فأزل الله
سكينة عليه وأيده بجنود لم يروها وجعل كلمة
الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله
عزیز حكيم . قرآن كريم

جلس الخبر دانيال في ظل الشجرة المجاورة لمازله بين مجموعة من
بنى قومه ، تلهى بعضهم بلعب الميسر ، وانشغل آخرون بالحديث
في رحلة الصيف إلى الشام ، واشتبك فريق ثالث في الحديث حول
استعداد أهل يثرب لملاقاة النبي محمد والحفاوة به ، وما يمكن أن يؤدي
إليه نفوذه من الخطر على شريعة إسرائيل وتجارها

فكنت ترى الخبر تارة منتصب القامة يستعرض ثوبه ويفليه ،
وتارة أخرى مكبا عليه يرتق فتوقه ويدعم خروقه ، وثالثة تنام يده
عن الحركة ليستقبل نسيمات الضحى تمشح رشح العناء عن جبينه أو
ليدلى بدلوه في المناقشة الدائرة حول قدوم الضيف

ثم احتدت المناقشة ، وارتفعت يد الخبر في وجه أحدهم مع صوته
العالي الاجش ، فسقطت الابرة من يده ، فقام وأقام من حوله في ذعر
باحثا عنها ، فانتقل الموقف من البحث عن ظروف القادم واحتمالاتها
إلى البحث عن ابرة الخبر التي سقطت فجأة من يده . وهو ينافح عن رأيه

ثم هدأت حدة المناقشة، واستحال المتناقشون الى شبه مجموعة من العجائز تقوست ظهورهم، وراحوا يبحثون هنا وهناك وراء الابرة المنشودة وداس أحدهم على نعل الخبر وهو يرفع رجله به فانقطع شراكه، فزاد ذلك في غضبه وهياجه، وكاد يشتبك مع غريمه في معركة، لولا أن قطع عليهم ضوضاءهم صوت (ميمون) أحد قادتهم قائلاً

— كأن الجزع على ابرة ونعل سيلهينا عن البحث في مستقبل بني

إسرائيل .

الخبر — محتداً — أن نعلا وابرة في حوزتي ، خير عندي من

إسرائيل نفسه فتضاحك الجميع ، ثم قال أحدهم

هذا (مشكم) قد وافا من أحشاء يثرب فلننتظر ما لديه من أبناء

القوم وصاحبهم لعل هناك جديداً يمكن الوقوف عليه

فنامت الالسن الثرثارة . وهدأت العواطف المهمة . وجلس

مشكم في حراسة النظرات المتقابلة وأخذ يقول :

لازال القوم في انتظار صاحبهم على أحر من الجمر ، يروحون مع

الشمس . ويغدون مع النجوم . ويتلمسون أخباره مع الوافدين .

يجمعون على إخراج قومه له من مكة . وهربه من منزله ليلا مع

صاحب يقال له أبو بكر . ولكن واحداً من هؤلاء جميعاً لم يره في

الطريق المألوف بين مكة ويثرب .

فلا يدرون من أى طريق سيفد إليها . وان كانوا جميعا واثقين
بقرب حضوره ، ثقة حرمتهم مزاولة أعمالهم واسترواح قلوبهم .
ومعجيب كل العجب أن ينزل رجل من نفوس الناس بعد كلّم الله موسى
ما نزل هذا الرجل من نفوس أصحابه

ميمون — وكيف لا يتم له كل ذلك وله مثل هذا السحر؟! ألم يجمع
بين الاوس والخزرج بعد عداء أجيال متعاقبة وسفح دماء غزيرة؟
ألم يدع الى الايمان بموسى نبيا كليما . وبعيسى وجهها فى الدنيا والآخرة
حتى يتخلص من عداء شعب إسرائيل ويتفرغ لمنازلة الأوثان وعبادها
المأفونين .

مشكم — وعلام اذن نحن فى ماتم؟؟ ما دامت لنا عقائدنا
ولا هناك من يكرهنا على سواها؟ فنظر إليه (دانيال) بعينى ثعبان
وكشر عن نابين زرقاوين وقال :

ومن يدري أيها الطفل ما ذا يكون منه غدا بعد أن يتخلص من
الوثنية والوثنيين ! هل يبقى على تعاليمه أم يتخلص بدوره من شعب
إسرائيل . . ولم يعد هناك ما نلجأ إليه بعد أن التأم شمل الاوس
والخزرج وقد كان لنا من عدائهم حصن حصين .

ميمون — على أن محمدا إذا كان قد ألف بين الاوس والخزرج
فقد فرق بين الولد ووالده والمرء وزوجه ، والا لما أخرجه قومه بعد
أن ضاقوا ذرعا به

مشكم - ولكن كيف اتصر عليهم . وفرسالمنا من يدهم . مع كثرة
سوادهم وقلة اتباعه .

ميمون - إذا سمينا الفرار انتصارا . فسم الضعف قوة والليل
نهارا !!

الحبر - دعوا الحكم على الموقف الآن حتى نرى الرجل وتعرف
منه مياسته مستقبلا نحو شعب إسرائيل
أصوات - الى الغد إذن الى الغد ...

انفرط عقد الاجتماع وانصرف كل الى حيث شاء إلا رجلا واحدا
خلفوه في شبه ركوع يبحث عن إبرته العزيزة قبيل القيلولة ، ذلك هو
الحبر دانيال ، كأنه قد فض الاجتماع من أجل ذلك

أوى الناس الى منازلهم ساعة القيلولة . وخلا الفضاء الفسيخ بمن
كانوا يشغلونه في انتظار الرسول وصاحبه عدا شاورول اليهودى . فقد
فأ الى ظل شجرة مريضة يستروح ظلها تارة ثم يعافه الى ربوة عالية
يشرف منها على طريق المدينة . عنله يكون أول من تقع عينه على
الرجل الذى ملك على أصحابه قلوبهم . وأول من يعلنها لهم فيذهب
وحده بحسن الأحذوثة . فتارة تخدعه بعض الهضاب . يظنها ابلا
فيتمعنها نشوان فرحا ، وتغريه تارة أخرى تموجات السراب . يتوهمها

قافلة فيجحف لها جذلان مسرورا . فاذا تأهب لاعلان ذلك تجلت له
الحقيقة فيعود الى طبيعته مجهدا من تفاعل نفسه . حتى رأى على بعد
شاسع ثلاثة رجال ودليلهم على مطيتين . بينهم رجل يحمل بعض
الأوصاف الذي سمعها عن القادم المنتظر . فشوق ثم عاد فسكن
ولعله قد رابه أن القادمين محمد وصاحبه . وكاد يعتقد أنهم غير
المقصودين بالعناية لولا أنه كلما دنوا منه تحققت لديه علامة جديدة
بما سمعه عن وصف رسول الله . فيظفر دم الفرح في وجهه . ويلتفت
يمينا وشمالا في سرعة خاطفة . ليتأكد خلو المكان من عسائم يشار كونه
اكتشافه . ثم يعود الى امعانه في القادمين فيزداد تأكدا . فتبهر أنفاسه
ويزداد اضطرابه فنتسى ما كان يعلمه عن عددهم وصاح بأعلى صوته
يا بنى قبيلة يا بنى قبيلة . . (١) هذا صاحبكم قد جاء . . والله انه هو بعينه
وضىء رغم آثار السفر . منبلج الوجه ، في أشفاره وطف (٢) وفي
عينيه دمع (٣)

لم يكذ اليهودى يتم نداءه حتى تداعت جموع المسلمين من كل مكان
كالجراد انتشارا . والسيل تدافعا . وعلى رأمهم عمر وعثمان وسعد بن
معاذ وعبادة بن الصامت وأسيد الحضير وغيرهم من أساطين الصحابة
في عدتهم وسلاحهم . فسلموا على رسول ومن معه وهتفوا مكبرين

(١) قبيلة الام الاولى للاوس والخزرج (٢) طول (٣) شدة السواد

قال عمر ادخلوها ان شاء الله آمين

وهذا السرور بريدة بن الحصيب (١) فاتخذ من عمامته راية وشدها
على رمح وراح يسير امام ناقة رسول الله . فقال له الرسول

— من أنت

— بريدة بن الحصيب

— برد أمرك يا أبا بكر واصلح . . . ومن أنت

— من اسلم من بني سهم

— سلنا وخرج سهمك يا أبا بكر

— ومن أنت

— محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله

— أهذا أنت ؟ ! أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده

ورسوله . . ودعا قومه للاسلام ثم قال لرسول الله

— تنزل علام يانبي الله

— ان ناقتي هذه مأمورة

— الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين

نزل ركب رسول الله (بقباء) وحل ضيفا على كلثوم بن الهرم

سيد بني عمرو بن عوف . وظل في ضيافته أياما بني فيها مسجد بقاء (٢)

(١) بضم الحاء وفتح الصاد - كان بريدة قد سمع بما جعله قريش لمن يأتي برسول الله حيا أو ميتا

أخرج مع سبعين من قومه طمعا في الجعل ثم عاد هو وأصحابه أشد ما يكونون إيمانا به

(٢) فنزلت فيه آية - لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه

ثم ركب ناقته واتجه صوب المدينة، فكان الناظر إليها عن بعد يراها
وكأنها سابحة في أمواج من الخلائق متلاطمة، أو سائرة تشق طريقها
في حقول من البشر، فهؤلاء كبار الصحابة في سيوفهم المشرعة كحرجة
متشابكة الأغصان. وهؤلاء مجموعة من محاربي الأحباش يقومون
برقصتهم الحربية، وكأنهم وسيوفهم تلمع في أيديهم تحت التراب
الثائر، نجوم تتلألأ في ظلام الليل، وهذه مجموعة ثالثة تهتف وفي
أيديهم سعف النخل وأفنان الزيتون مشرعة تهتز وتمايل وهم يرددون
الله أكبر هذا سيد العرب الله أكبر أوصانا بخير نبي
الله أكبر يا ابن مطلب خير الجدود وأعلاها ذرى نسب
وهاتيك ربات الخدور قد نبتن كالأزهار فوق الأسطح والشرفات
يرددن في لحن منتظم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وفي وسط هذه الأهازيج الشادية، ومضت عيون في وجه رسول الله
بالشرر، وضائق لمقدمه صدور بالغيظ، ودقت على المستقبل قلوب
بالرجفة والفرع، وأظلمت الدنيا وسط مهرجان النور في وجه ثراة
يثرب من بني إسرائيل وطلاب الملك من سادة الأوس والخزرج فأووا
إلى منازلهم راجعين، تحمل أرجلهم أجسادا بلا رؤوس!!

أخذت الناقة سبيلها بين مظاهر الفرح ومباهج السرور في طريق
 لم تنثن عنه رغم نزاحم الأيدي على زمامها . وتضارب الرغبات لتغيير
 اتجاهها ، فما تركه يد كلثوم بن الهرم سيد بني عمرو بن عوف ، إلا في
 يد عتبان بن مالك سيد بني سالم ، وما تخلت عنه يد عتبان إلا لزياد
 ابن لييد سيد بني يياضة ، وما أسلمته يد زياد إلا لسعد بن عبادة سيد
 بني ساعدة ، وما يئست منه يد سعد إلا على يد بني عدى بن النجار ،
 كل يريد ضيافته وكل يدعوه إلى حيه بين العدة والعدد والثروة والجاه
 والسلاح ، ورسول الله مشرق البسمة إزاء كل هذه الرغبات الكريمة
 يصرفها برده العذب اللبق (بارك الله عليكم .. في كل دور الأنصار
 خير .. خلوا سبيلها فانها مأمورة) ثم غاضت بسمته فجأة حين سمع
 صخر بن عوف يقول وهو يغالب غيره على زمام الناقة

فلنحتكم إلى الأزلام . لنعرف أيننا أحق بضيافة رسول الله

فغضب رسول الله لذلك وقاطعه قائلاً

— لا تحتكموا إلى الأزلام . فانها رجس من عمل الشيطان ، وإن

تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله

سارت الناقة غير بعيد عن دار أبي أيوب تحب وسط الزحام
 المتلاصق وتضع ، ثم عادت أمام هذه الدار وبركت وتجلجلت
 وأزومت (١) فجاء من خلفها جبار بن صخر ونخسها عساها تغادر

(١) تجلجلت وضعت عنقها كله على الأرض وأزومت أخرجت صوتاً دون فتح فمها .

مكانها وتبرك أمام داره ، ولكنها لم تتحرك .. ثم قال رسول الله

— أى بيوت أهلنا أقرب ؟

أبو أيوب — دارى هذه .. أتأذن فى أن أرفع إليها رحلك

الرسول — إذهب فهى لنا مقيلا فالمرء مع رحله

أبو أيوب — يابى الله قد هيا ناه ، فادخلها على بركة الله

الرسول — وهو يدخل — رب أنزلى منزلا مباركا وأنت خير

المنزلين ، ورددها ثلاثا

جرت كل هذه الأحاديث بين النبي وأصحابه ويكاد لا يسمعها أحد
لشدة ما حول رسول الله من ضوضاء الهتافات والتكبير والغناء ،
ودخل عليه السلام للمقبل واصدء المدينة تردد ما يجرى حول دار أبى
أيوب ، وكان أقربها جرسا إلى سمعه عليه السلام . غناء الجوارى فى
صوتهن العذب الحنون .

نحن جوارى بنى النجار يا حبذا محمد من جار
منع بالليل والنهار بربه من عصبية الفجار
وبالسيوف فى يد الانصار مصلته تطيح بالأعمار
ولما طال وقوفهن أشرف رسول الله عليهن من إحدى نوافذ
الدار وقال — أتحببني

فرددن بصوت واحد نعم نعم

فقال - الله يعلم أن قلبي يحبكن

جلس الصحابة قبيل الغروب في دار سعد بن خيشمة على هيئة
دائرة منتظمة تتحدث أسارىهم بالجدل ، وتفيض نفوسهم بالسعادة ،
فسأل زيد بن الخطاب

- من أى الطرق جاء الرسول ، وما وفد قادم على يثرب إلا
وأنكر وجودكم في طريقه ١٤
فتبسم الصديق ثم قال :

- لقد سلكنا الى يثرب طريق الساحل لأنها غير مطروقة ، على
أنا ما سرنا غير بعيد من مكة حتى سمعنا وقع حوافر فرس جاحمة .
ورسول الله مشغول بقراءته ، فتمكن الخوف منى عليه ، فنهته الى الخطر
القادم ، فقال لى (لا تحزن ان الله معنا) ثم توجه الى السماء وقال (اللهم
اكفناه بما شئت) فعثر الفرس ووقع على منخريه . فخر عنه راكبا (١)
وأطرق أحدهما طويلا . ثم أنهضاه وركباه من جديد فلم يسر غير
بعيد حتى ساخت مقدمتاه الى الركبتين ، فخرأ عنه وأطرق أحدهما
مرة أخرى . ثم عادا فركباه ولم يكذب قطع إلا خطوات معدودة حتى

(١) الاول سراقه بن مالك والثاني غلامه الحبشى المعروف بالقوة والشجاعة ، وسبب اطراقه
أنه كان يستشير ازلامه ، وكانت دائما تخرج ضد رغبته فى اللحاق برسول الله طمعا فيما جعلته
قريش ثمنا لقتل رسول الله أو اسره ، واسكنه كان يخالف مشورة الازلام طمعا فى الجمل ،

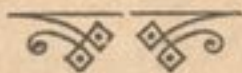
ابتلعت الارض كل قوائمه وتعذر انهاضه ، فنادى يا محمد أنا سراقه بن مالك ، ادع الله لي أن يطلق فرسي فارجع عنك واردمن ورائي ، فدعا له وانطلق فرسه فركبها حتى كان دوننا بقليل وقال :

— إني لأعلم بعد هذا يا محمد أن أمرك سيظهر في العالم . وانك ستملك رقاب الناس . فعاهدني إذا أتيتك يومذاك أن تسكرمني ، فكتبت عهدا بذلك بأمر رسول الله (١) ثم قال له وكيف بك ياسراقه إذا تسورت بسوار كسرى (٢) فقال سراقه : كسرى ؟ كسرى بن هرمز فقال له نعم . فطار ليه من الفرح ، وقال هذا متاعى خذوه معكم وعند الثنية القادمة منيحة من غنمى فاذبحوا وخذوا منها ما شئتم ، فقال له الرسول ، إذا لم ترغب فى الاسلام فلا حاجة بنا الى متاعك ومنيحتك ، اكفنا نفسك وردعنا من وراءك ، فقال لك فى عنق ذلك يا محمد ، وعاد قافلا الى مكة ، دون أن يدركنا أحد بعد ذلك
أصوات — الله أكبر ، الله أكبر

ومال زيد بن الخطاب على اذن زيد بن حارثة يسأله عن سر هذه
الوضاءة التى وافى بها ركب رسول الله ، فأجابه

(١) احتفظ سراقه بكتاب رسول الله حتى اذا كان الرسول عند (الجعرانة) فى طريقه الى مكة — رفعه إليه فرحب به وقال (اليوم يوم بر وبشر ووفاء.)
(٢) صدقت نبوة الرسول فى هذا وقلده عمر فى عهده سوارى كسرى وقال الحمد لله الذى ساهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقه بن مالك .

— لقد والله لازمنا سحابة وفيه منذ زایلنا مكة ، حتى وافينا
 يثرب . ولقيتنا في الطريق قوافل التجارة بقيادة الزبير وطلحة بن
 عبيد الله ، فكسوانا جميعا ثيابا بيضا وزودانا بما كنا في حاجة إليه
 أصوات — الله أكبر الله أكبر



رَمَزُ الْفِطْرَةِ

تضم هذه الصورة قيام علي بن أبي طالب
برد الامانات التي كانت عند رسول الله
إلى أصحابها ، وشوقه الملح إلى الهجرة
ثم وصول الاذن له بذلك ورميله الى
يثرب مع القواطم وأسرة أبي بكر الصديق

وإذا أمرت ما أمرتك به فسكن
على أمة الحجرة لله ورسوله بقدم
كتاني عليك محمد رسول الله

في ضوء مصباح باهت مترنح كأنفاس المريض ، وفي صمت ليل
موحش وحشة المقابر ، وبين وجيب القلوب ودقاتها السريعة — حذق
رسول الله في وجه ابن عمه على طويلا ، ثم ضمه إلى صدره يخفف من
حينه ، ثم همس في أذنه بأمر هجرته ، ويستبقيه بمكة حتى يؤدي عنه
ودائعه ، ثم يلحق به مع الفواطم . ثم نضاه عنه واختفى شبجه ، فغاب
النور عن عينيه ، ولم يعرف أين ذهب رسول الله بعد أن فارق صدره ،
خفق قلبه إذ ذاك خفقة صعدت به إلى صدره ، وتفصد منها عرقه
ودار لها رأسه ، فما عرف قبل الآن وجيب الفراق ، ولا ذاق مرارة
الحرمان ، ولا احتمل عبء المسؤولية وحيدا ، ثم راح يبحث عن
الرسول في زوايا المنزل . حتى إذا لم يجده وقد تملكه البهر والاعياء ،
جلس على فراش رسول الله وقد حمل رأسه بين يديه وراح يحدث
نفسه . . أحقا أن رسول الله غادر مكة مسقط رأسه ومدرج صباه ، إلى
مستقبل مجهول لا يعلم مصيره إلا الله ، وإذا كان كذلك ، فكيف
لا أكون بجواره أشاركه هذا المصير ، وأشرب من الكأس التي يشرب
منها ، وكيف تطيب لي الحياة بعد رسول الله ، ويحلولي العيش ؟ ولكن
هذه مشيئته ، وهذا ما يجعلني احتمل آلام فراقه

لعل هذا أو بعضه ما كان يدور بخلد علي بن أبي طالب وهو جالس على فراش الرسول . يغالب الصبر ويصارع الآسى ، وكان كلما ألحت عليه وحشة الموقف . تردد صدى صوت الرسول في مسمعه حين ودعه (وإذا أبرمت ما أمرتك به فكن على أهبة الهجرة لله ورسوله بقدم كتابي عليك)

استشعر علي البرد ، فتدثر ببردة الرسول الحضرمية الخضراء فمشى الدفء في جسده ولعب الكرى بجفنيه ، فاستلقى مجهداً من وطأة التفاعل النفسى ، فكانت مارية (١) خادمة الرسول تسمعه عن بعد وهو يهجس بمقالة الرسول له (وإذا أبرمت ما أمرتك به فكن على أهبة الهجرة لله ورسوله بقدم كتابي عليك)

* * *

(من استودع رسول الله أمانة فليوافقى إلى دار خديجة بنت خويلد لتؤدى إليه أمانته) — كلمات أطلقها على سريعة عند الابطح (٢) فاجتمع لها على سرعتها ملاً من قريش . على هيئة دائرة ، يستعيد بعضهم ما قال . ويهزأ البعض الآخر به في حنق وغيظ ، ولم يسع علياً إلا أن ينحدر من مكانه كسيل جارف حين قال له شيبه بن ربيعة — وأين صاحبك الحريرى على هذه الامانات حتى يؤديها بنفسه

(١) المعروفة بام الرباب (٢) مكان معروف بمكة

أمية بن خلف — هازئاً أما سمعت هتاف الجنى (١) أرسله الساحر
محمد يطوف مكة مغنياً لتضليل قريش عن طريقه
شبية — وكيف أطلقت قريش العنان لهذا الغرير يسير ويتحدث
ويجتمع بالناس . وقد كان بالأمس حبيس المسجد مكلوماً موحجماً لقاء
ما خدع به قريشا (٢)

أمية — دع عنك هذا الغرير ، فقد غلبه صاحبه على عقله
واستبقاه ضحية عنه ، فما خدعنا على ، بل خدعنا صاحبه
لم تصل دعوة على إلى آذان كل ذوى الامانات ، فصمم على البحث
عنهم أداء لحقهم ، فكان السائر في شوارع مكة غداة ذلك . يرى شاباً
فارهاً يحمل على ظهره عباءة حمراء مليئةً بشتى الودائع ، فمرة تراه امام
شيخ تقدمت به السن يسأله عن نسب شخص إلى فخذ من الأفخاذ ،
ومرة يستقرى منزل امرأة عجوز ثاوية ، وثالثة يتابع طفلاً في طريق
ملتو بحتاً خلف رجل قرأ اسمه على قطعة من حجارة ألفاها فوق
عيبة ملابسه ، وهو بين هذا وذاك يسير في خطى سريعة ، كأنما يلاحق
غريماً أو يطارد عدواً ، لا يلتفت إلى همزات قريش ، ولا يأبه إلى
سخرتهم به ، ولا يلتقي بالالهؤلاء الأطفال ينشدون وراه ما أوحى
به إليهم بعض السفهاء من قو لهم .

(١) يقصد ما روى من حديث الجنى الذى كان يهزج بقوله

جزى الله رب الناس خير جزائه رقيقين قالا خيمتى أم معبد

(٢) يقصد بالخدعة مبيته على فراش رسول الله ليلة التأمير على قتله صلى الله عليه وسلم

مجنون يهرف بالدين مفتون بالحور العين
باللات يمينا والعزى قد حولت عقل المجنون

لم تكن أيام علي في محبسه وحرمانه ، بأشد مرارة عليه من أيام يقضها بعيدا عن رسول الله ، وحيدا في الميدان ، لا يحيط به من المسلمين إلا المستضعفون والسجاني والنساء ، ولا يسرى عنه إلا خلوته بربه في الصلاة يبثه آلامه وشكواه ، وزياراته للفواطم من آل محمد وأبي بكر يواسين ويشجعهن ، وتردده على غار حراء يتمثل رسول الله وصاحبه فيه ، ويرسل طرفه إلى الطريق الذي حمّله إلى مهجره ، لعل أنفه يصيب نسمة من عبيره ، أو عينه تقع على رسول من قبله ، يحمل خطابه الموعد إيدانا له في اللحاق به ، حتى إذا لم يظفر بشيء من بغيته عاد إلى منزله حزينا . كما يعود القائد المهزوم ، أو الوالد بعد أن أسلم وحيد للتراب .

وفي أمسية ألحت الوحشة فيها على ابن أبي طالب وأطال نظره فيها للنجوم كأنه يحملها تحنانه ووجيبه إلى الأحياء من سكان يثرب ، ويرسل مع أنسامها زفرات الشوق الملح — إذا به يسمع على بابه دقا رفيقا فدق قلبه وتتابع أنفاسه . وراح يسائل نفسه : ليت شعري ؟ أعدو هذا أم حبيب . ولو أنه كان عدوا فما الذي دعاه إلى الترفق في طرق بابي وما يضره لو حطمه علي ، إلا إذا كان وافدا خيثا ؟ ولكن

علام الخبث والخديعة ، ولى بين أظهر القوم شهور عديدة أجوب
 خلالها . وأطوف أسواقها عياناً . . لم يبق إلا أن يكون وافداً حبيباً
 سرت هذه الخواطر سريعة في رأس علي . والطارق يلح في طلب
 الأذن له بالدخول ، فحمل مصباحه الذابل المترنح ، وراح يستقبل
 الطارق ، فاذا به فجأة أمام عبد الله بن أريقط دليل النبي وزيد بن حارثة
 خادمه . فاحتضنهما معاً . وأغلق عليهما بابه . ثم قدما إليه كتاب رسول
 الله ووضعاه في حجره صرة مال ، ففضه مسرعاً وما وقعت عينه على
 خاتم الرسول حتى راح يقبله باكياً . وما قرأ بعض سطوره حتى
 ضمه إلى صدره راحة وسعادة ، ثم نهض من فوره يجمع متاعه .
 فسقطت الصرة (١) منه دون أن يشعر ، فناولها له عبد الله بن أريقط
 فقال له خذ ما يكفي منها لتجهيز آل الصديق ودع زيدا يجهز معي
 لآل محمد وستلتقي الرواحل عند بطن الوادي وقت السحر
 وما أطلت الشمس من فوق كواهل الجبال حتى كانت خمس رواحل
 يعلو بها الطريق وينخفض وينثنى ويعتدل ، وتهتز هزات منتظمة على

(١) روى أنها كانت تحوى ٥٠٠ درهم من مال أبي بكر لترحيل آل بيت محمد وأبي بكر
 وهن فاطمة بنت رسول الله وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت
 عتبة وفاطمة أم علي وأم أيمن وولدها أسامة وأم كلثوم وسودة زوجته وعبد الله بن أبي بكر
 وعائشة وأسما . وأم رومان زوجة أبي بكر وفي الحديث (من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور
 العين فلينظر إلى أم رومان) أما بنته زيبف فكانت تحت ابن خالتها أبي العاص بن الربيع وكان
 مشركاً إذ ذاك ثم أسلم ، أما رقية فقد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان .

وقع الخفاف تصافح الرمل . وتصفع الصخر ، وأمامها دليل الطريق
 عبد الله بن أريقط يحمل وجهه الفاحم وأنفه الأشم ، وعمامته المسترسلة
 على ظهره ، وعصاه فوق كتفه تهتز على وقع خطواته ، وعلى يشرف
 على الركب ذهابا وجيئة ، يضم المنصرم . ويعدل المائل . ويستحث
 الخطا ويساهم في الخدمة . أنست فرحة الهجرة عليا واجبه في السؤال
 عن حالة الرسول وأصحابه ، فلما خلا الطريق واعتدل الركب . دنا على
 من زيد بن حارثة وسأله :

— كيف حال الرسول وأصحابه ؟

فأطرق زيد مليا وقال :

لا بأس على بعضهم

على — والبعض الآخر

زيد — والبعض الآخر قد أصابه طائف من الحمى تستوطن

هذا البلد .

على — هامسا — والصديق أبو بكر

— فقال زيد على أذن محدثه وقال :

— إنه بين المرضى

فأطرق على طويلا ، وصار يمشى بقدميه دون رأسه ، فكان يجيد

عن الطريق سوى تارة ، ويتعثر تارة أخرى ، ولعله كان مشغول

الذهن بما وصلت إليه حالة المسلمين في مهجرهم ، بعيدين عن الأهل

والوطن ، ومن عساه يقضى نجه منهم غريبا نائيا ، ومن ستكتب
له السلامة ، ومدى تأثير ذلك في نفوس حديثي العهد بالاسلام ،
ومبلغ شماتة المشركين وتخريجاتهم لذلك . ثم أفاق على صوت عبد الله
ابن أريقط يغنى بقول أبي بكر

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
فهب على رأسه وراح يردد (والموت أدنى من شرك نعله)
ثم سأله

وكيف استقبل رسول الله في يثرب ؟

زيد - استقبل كأحسن ما يستقبل ملك

علي - وعلى من نزل الرسول ضيفا

زيد - علي بنى النجار في دار أبي أيوب حيث بركت ناقته ، وقد

بنى فوق مبركها - بعد أن اشتراه - مسجداً وبنى إلى جواره دوراً

للقوام ، وقد وضع النبي الحجر الأول ودعا بأبي بكر فوضع الثاني

ثم دعا بعمر فوضع الثالث ، وقال هؤلاء الخلفاء من بعدى (١) وقد

بلغ طوله سبع أذرع ثلاث منها بالحجارة ، والباقي باللبن (٢) ورفع

عرشه على جذوع النخل ، وسقف نصفه بالجريد ، وفرشت أرضه

بالحصباء (٣) وبيضاء ليلاً بنار السعف . وقد اتخذ بعض الصحابة

(١) وهكذا فعل الرسول عند بنائه مسجد قباء (٢) جمع لبنة وهي الطوب النبي (٣) حتى يمكن

العلاة فيه عند المطر وكان صلى الله عليه وسلم يقول ما أحسن هذا البساط

من المسجد ثكنة لهم ، وجعلوا في القسم المسقوف صفة لحفظ
طعامهم وثيابهم (١)

وكم كان جليلا منظر الصحابة متعاونين في بنائه ، جماعة تنقل
الحجارة واللبن ، وعلى رأسهم رسول الله يشجعهم بأشودته
هذا الجمال (٢) لاجمال خبير هذا أبر - ربنا - وأطهر
وجماعة أخرى تلتزم الطين وعلى رأسها طلق الحنفي وقد كان
شيدهم وهم يعملون

اللهم ان الاجر أجر الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة
وعافهم من حر نار ساعره فانها لكافر وكافره
وجماعة ثالثة كانت تعمل في البناء وهي تهزج
لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل
وكان عثمان بن مظعون يحمل اللبن ويتحرز من التراب فمازحه
زيد بن الخطاب راجزا

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

(١) وم الذين عرفوا فيما بعد بأهل الصفة

(٢) الجمال هنا بمعنى المحمول أى أن المحمول هنا من طين وحجارة ولبن ، أفضل عند الله من

محمول خبير من تمر و زبيب .

في ساعة باكرة من صباح اليوم العاشر من ربيع الأول، رددت
أحياء بني النجار صدى رغاء ابل . يمتزج بأصوات تهان . وترحيب
وتعاون ونداءات . يعلوها جميعا صوت قوى أمرناه . فعرف رسول
الله أنه صوت ابن عمه علي، فسارع الى لقائه ، وما وقع نظره على
الرسول حتى ألقى بنفسه بين أحضانه . ورسول الله يقبل منه كل
ما تصل إليه شفته ، ثم جاء أبو بكر يتحامل على نفسه يرحب بأهله
ولم يمض على حضور علي إلا قليل . حتى أخذ التعب يغالب جسده
والتورم يطفو على ساقيه ، والدم يسيل من قدميه ، بعد أن قطع ما بين
مكة ويثرب ماشيا ، زيادة في الأجر والثواب ، فنظر الرسول إليه
حنانا . وتنفس ألما ، وراح بجفف دمه بقطيفة كانت عند أبي أيوب
ثم راح يجمع بين أشفار جراحاته ، ويضم بعضها الى بعض ، ويمسح
عليها بريقه ، فتجف وتندمل ، ثم عاد الى ساقيه يدلكهما بيديه
الكريمتين وهو يقول

— في سبيل الله ثم في سبيل رسوله

ثم ضمه الرسول كرة أخرى في شوق عميق ، وحنان سابغ
وما كاد رسول الله يعاود التدليك ويدهن جراحه بلعابه الشريف
حتى انتصب واقفا على قدميه ، راغبا في زيارة المرضى من المسلمين ،
ولعل رسول الله أشفق عليه من المشى بعد هذا الاجهاد الطويل
ولكنه أصر على أن يعود إخوانه المرضى ، فأخذ يرفع قدما ويضع

اخرى ، كأنه يسير فوق شوك ، فيتوكأ على الجدران تارة ، ويعتمد على زيد تارة أخرى ، ورسول الله خلفه ينظر إليه في حنو وأسى ، حتى وصلوا الى حيث يتمرض بلال بن أبي رباح واخوانه وما وقع نظر على عليهم ، حتى هوى نحوهم تقبيلاً وضماً ، ثم راح يمسح عرق الحمى من فوق جهة عامر بن فهيرة وبلال بن أبي رباح ثم أقبل عمر وأبو سلمة وسعد بن معاذ وغيرهم يعودون إخوانهم ويهشون علياً ثم سأله زيد — ماذا صنعت قريش بعد هجرة الرسول

على — راحوا يعذبون المسلمين ويستولون على أموال المهاجرين ويرسلون رسالهم إلى كل طريق ، وجعلوا مائتي ناقة لمن يأتي بالصاحبين ، وقد أغرى هذا الجعل سراقه بن مالك ، فطار خلف رسول الله على جواده المشهور ، ولسكنه لم يلبث أن عاد مكفهرًا مرجوفًا . لا يلقى أحد إلا قال له ، لا أثر لمحمد وصاحبه في هذا الطريق ، فطار دوه في طريق آخر ، وفي صباح اليوم التالي رددت طرقات مكة صدى صوت شج يقول

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتى أم معبد
 هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد
 سار هذا الهاتف في شوارع مكة وخلفه جمهرة من الأطفال تردد
 مايقول ، دون أن ترى الناس شبح هذا الهاتف ، ولم يسمع أبو جهل

بذلك حتى راح يبحث عن سراقه ، فلما عثر به عند الصفا أخذ بمخنقه
وهو يقول . لم كذبتنا يا ابن مالك وذدتنا عن طريق محمد وصاحبه ،
وقد سمعت من أخبار الهاتف ما سمعت

فأنشد سراقه

أبا حكم والله لو كنت حاضرا

لامر جوادى إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً

رسول يبرهان فمن ذا يقاومه

فضغط أبو جهل على مخنقه وهو يعلك أسنانه ويقول

والله إني لأراه قد سحرك

فقال له سراقه

أتذكر يا أبا الحكم يوم خرجت على محمد لتقتله بصخرة وهو

ساجد ؟

أتذكر أنك حدثتنا بأن فخلاً هائلاً قد استقبلك ثاراً يبتغى

صرعك ، فوليت منه مذعورا

الحكم — أنى لا ذكر ذلك ولا أنساه

سراقه — فهل كنت كاذبا . أم ان محمداً قد سحرك ؟ ففارقت يد

أبو جهل مخنقه وطأ رأسه وانصرف لا يلوى على شيء .

أصوات — الله أكبر الله أكبر .

ثم دخل على الجميع وهم في هذا الحال ، أصيل الغفاري ، قادمًا من مكة ، فسأله عامر بن فهيرة .

كيف تركت مكة ، يا أصيل ؟

— تركتها وقد ابيضت أباطحها ، واخضل ثمرها . وفاح اذخرها فاغرورقت عينا رسول الله بالدموع . وقال (لا تشوقنا يا أصيل . ودع القلوب تقر) فتقلب في فراشه . واعتمد ساعده . ودنا من حائط الدار واسند ظهره إليها . وأخذ يهز رأسه يمينا وشمالا . ثم زفر طويلا وأنشد

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بوادي الخزامى حيث ربتني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمامي وقطعن عني حين أدركني عقلي
رسول الله — اللهم حبيب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة أو
أشد ، وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل عنا وباءها إلى مهيبة (١)

(١) قرية كان يسكنها اليهود

براعم سياسية

تجمع هذه الصورة ألوانا من
سياسة النبي الداخلية إزاء اليهود
تمهيدا لتنفيذ سياسته الخارجية

إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس
 وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسوة
 غير مظلومين ولا متناصر عليهم. محمد رسول الله

كانا يسيران متجاورين لا تسمع عنهما الا وقع الخفاف على صفحة
 الرمل في جرس متدد منتظم ، ولعلمنا كانا يستعرضان ما وصلت اليه
 الحالة في يثرب ، وما سوف تتمخض عنه في الغد ، ثم وقف أحدهما
 فجأة وشخص إلى صاحبه مقطب الجبين وقال

— ترى ما هي الخطوات التالية ، بعد أن آخى رسول الله بين
 المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، وقضى على دسائس
 المنافقين ، واستقر الأمر للمسلمين ، وسلكوا مسالك الرزق موفقين
 سهل — إني لأرى والله أن الأمر لم يستقر للمسلمين بعد ، وأن يثرب
 ليست لهم وخدم ما دام اليهود يملكون فيها من الثروة حظا موفورا
 وما دام هؤلاء اليهود ينظرون إلى رسول الله نظرة الطير للصائد
 لا الجيش للقائد

صخر — هذا صحيح غير أنه قد انتهى إلى أن رسول الله يستشير
 كبار أصحابه منذ أمد ، لوضع عهد بين المسلمين واليهود يقرهم فيه على
 دينهم . ويؤمن عليهم دماءهم وأموالهم ، حتى تطمئن نفوسهم إلى الدين
 الجديد وأصحابه . ويتوحد بهذا العهد سكان يثرب على اختلاف أديانهم ،
 فتصبح المدينة جهة واحدة ، أمام ما ينتظرها من أحداث ، فلا يسهل

اقتحامها علينا . ولا يستطيع عدو أن ينفذ بين صفوفها

ثم أخذ بمعصم صاحبه وأخذ يشير له بسبابته قائلاً

انظر يا أخاه إلى هذا البخيل يسد على يثرب مشرق الشمس .

ومغربها ، ثم إلى هذه الآبار وفي مقدمتها بئر (رومه) النخيل ، ثم إلى هذه

المنازل تقع يثرب فيها كما يقع المعصم داخل السوار ، كل هذا أو جلّه

ملك لليهود ، فإذا تكون الحال لو تواطأ اليهود والمشركون علينا ؟

اللهم إلا أن يكون بيننا وبينهم مثل هذا العهد الذي يسنه رسول الله الآن

سهل — تالله انه لعمل جليل القدر ، وإني على كثرة ما سمعت من

الاجبار ، وقرأت من أسفار ، لم أقف بعد على اخبار نبي يجمع في يده

قياد الدين وزمام الدنيا ، ولكن هل تظن أن ذلك يرضى جيراننا من

بنى اسرائيل على ما شغفوا به من الدسيسة وولع بالتقلب وحب

التفرقة . وكلف بمخالفة القوة أنى وجدت

صخر — ليت شعري .. وكيف لا يطمثنون إلى العهد الجديد

ودينهم وديننا من نبعة (١) التوحيد ، وصلاتنا إلى قبايتهم ، وصيامهم في

شهر المحرم يصومه رسول الله ، والختان والذبح في الشريعتين من

أرومة واحدة ، فإذا يحفظهم على الاسلام والمسلمين بعد أن نصبح

وأياهم أمة واحدة لهم مالنا وعليهم ما علينا

سهل — انما يحفظهم يا أخاه — فيما أرى سلطانهم الذي كان لهم

على أهل يثرب ، فتداعى أو كاد ، وتجارة الربا وقد علموا أن رسول الله
يحاربها بكل ما ملكت يده ، وطماعتهم في القضاء على النصرانية
بالجزيرة والشام ، ليعودوا سادة في أورشليم ، ولكنهم لم يأنسوا من
رسول الله هوى إلى ذلك

صخر - والله انى لأرى أن الخروج على ما يكتبه رسول الله
اليهم - من عهد - بطر وتمرد ، وأنه سيكون محل الرضاء بين
عقلائهم وبعض أحبارهم ، ومتى تم هذا الرضاء عند جماعة و صلف (١)
عليه آخرون ، فستحل الفرقة بينهم ، فيصبجون أجساداً بلا رؤوس ،
وعندها يسهل التفاهم معهم اختياراً أو اضطراراً ، فيشربون من نفس
الكأس التى سقوا منها أبناء العمومة من الأوس والخزرج ، وتكون
خاتمة النصر للمسلمين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش
ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون
الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتعاقلون بينهم وهم يفتدون
عانهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم

(١) بفتح فكسر أى تكبر وتمرد

(٢) استقامتهم أى على أمرهم الذى كانوا عليه

يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانها بالمعروف . والقسط
 بين المؤمنين ، ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار ، ثم
 قال . وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف
 في فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين
 المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم (٢) أو إثم أو عدوان
 أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ،
 ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر . ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة
 الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون
 الناس . وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة (٣) غير
 مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم
 مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن
 كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبيء (٤) بعضهم
 عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على
 أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا
 ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (٥) مؤمنا قتلا عن يمينه
 فإنه قود به . إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ،

(١) المفرح المثل بالدين والعيال (٢) طبيعة (٣) المساواة في المعاملة (٤) يقال أبأت فلانا
 بفلان إذا قتله به يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فبما نال دماءهم (٥) أى قتله بلا جناية
 كانت منه أو جرم

ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة
وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا (١) ولا يؤويه ، وأنه من
نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه
صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مردء إلى الله
وإلى محمد . . . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان
يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم
وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ (٢) إلا نفسه وأهل بيته وان
ليهود بني النجار و (غيرهم) . مثل ماليهود بني عوف وان موالي ثعلبية
كأنفسهم . وان بطانة يهود كأنفسهم . وانه لا يخرج منهم أحد إلا
بأذن محمد . وأنه لا يتحجر (٣) على ثأر جرح . وأنه من فتك فبنفسه
وأهل بيته إلا من ظلم ، وان الله على أبر هذا . وان على اليهود نفقتهم
وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة
وان بينهم النصح والنصيحة . والبر دون الأثم . وانه لم يأثم امرؤ
بخليفه . وان النصر للمظلوم . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه
الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة
إلا باذن أهلها . وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو
اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وان

(١) جانبا (٢) بهلك ويفسد (٣) لا يلتئم جرح على ثأر .

الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

وانه لا تجار قريش ولا من نصرها . وان بينهم النصر على من دم
يثر ب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فانهم يصلحونه
ويلبسونه ، وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فان لهم على المؤمنين إلا من
حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن
يهود الاوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لاهل هذه الصحيفة مع البر
المحض ، من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم . لا يكسب
كاسب إلا على نفسه . وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره
وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأن من خرج آمن ،
ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وآثم . وان الله جار لمن بر واتقى ...

وضع الحصين ما كان بيده من صحف بعد الانتهاء منها وقال :

هذا ما أرسله إلينا محمد من عهد ، فتشاوروا في أمر قبوله أو رفضه
ثم ساد المجلس صمت طويل ، وعلت وجوه البعض حمرة التفكير ،
وتسائل العرق من وجوه البعض الآخر ، وراح فريق ثالث يعبث
بلحيته في نظرات حادة ، ولعله كان يستعرض ما علق بذهنه من عبارات
هذا العهد

ولم يشق هذا الوجوم إلا صوت في مؤخرة الاجتماع يطلب
تلاوة العهد مرة أخرى

فراح الحصين (١) يجمع صحائفه وينظمها ثم قرأه مرة أخرى
 رفاعه بن قيس — ليس هذا الحلف إذا قبلناه — إلا بمثابة التنازل
 عن آخر سهم في سيادتنا . وإلا فما معنى قوله (وانكم مهما اختلفتم فيه
 من شيء يخاف فساده فان مرده الى الله ورسوله) مع أن لنا شرعة
 سماوية خاصة ، واحبارا اجلاء ، لهم حق الفصل في مثل هذه الشئون !
 بل كيف يتفق هذا مع قوله (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) فان كان
 لنا دين يعترف به محمد وأصحابه فان مردنا فيما نختلف فيه يكون الى
 هذا الدين وحده ، وان لم يكن لنا دين معترف به فلا معنى للنص عليه
 فهذا اما خلط وتناقض ، وأما جادة (٢) في استلاب الحقوق جديدة
 الحصين — أرى أنه لا خلط ولا تناقض ، لأن ما سوف ترجعون
 فيه الى الله ورسوله ، لا يكون إلا فيما تختلفون فيه مما يخشى فساده
 من حدث أو اشتجار . أما ما توأطأتم عليه ورضيتم به ، فلا سلطان
 لأحد عليكم فيه إلا شريعتكم وأحباركم
 نعمان بن أضا — وبأى ثمن نحارب معهم ونزيق دماءنا من
 أجلكم .

ميمون بن يامين — لأنهم سيدلون دماءهم من أجلنا . وفاء بما
 في الصحيفة حيث تقول (وأنه من تبعنا من يهود فان لهم النصر
 والاسوة (٣) غير مظلومين ولا متناصر عليهم) على أن الصحيفة نصبت

(١) وقد أسلم فيما بعد وسمى نفسه عبد الله بن سلام (٢) طريقة (٣) المساواة في المعاملة

أكثر من مرة ، على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ولم
تنص على أن المؤمنين ينفقون مع اليهود ، وهذا كسب كبير ، ثم
لا تنسوا أن الحاف في هذه الناحية من مصلحة الجميع ، لأنه دفاع عن
يثرب التي قال فيها (وان يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة)
ثم قال (وان من خرج فهو آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من
ظلم وأثم)

أبو رافع الأعور - يحرم محمد جوفها ولكن على غيره وغير
أصحابه الذين ابقوا (١) إليها جياعا عراة ، فأضحوا من ملاكها وأصحاب
التجارة والضياع فيها ! ماذا بقي في يثرب مما يخشى عليه بعد ذلك
الحصين - ليت شعري يا أبا رافع ! انرضى بمقام رجل كهذا
أقرنا على شريعتنا واحترام عقيدتنا ، وساوى بين صفوفنا ، وحظر
ارتكاب القبيح والمحرم بيننا ، واستعد للذياد عن مدينتنا أم أن نرضى
عن قريش في وثنيتهما ، والمسيحية في منعتهما ، تدهمنا بخيلها ورجلها وتخرجنا
من ديارنا صاغرين ، كما أخرجتنا من ارض اريش (٢) ارض الميعاد ؟ !
كعب بن الأشرف - ان قريشا في وثنيتهما خير من محمد في
توحيدته ، مع ما يهدد مستقبلنا على يده (٣)

(١) ابقوا بتحريك الباء أى هاجروا (٢) فلسطين (٣) وقد سبق أن أفنى أحبار يهود
وقد قريش ورسول الله لم يزل بمكة - أن دين قريش اهدى من دين محمد ، ونزل في هذا آية (ألم
تر الى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء
أهدى من الذين آمنوا سبيلا)

عبد الله بن سوريا — ما أشبه هذا الكفر بحديث الخبر السمين
 (مالك بن الصيف) بلغ به الحمق ، أن أنكر امام محمد بالأمس نزول
 الوحي على بنى البشر (١) ونسى أن كلهم الله بشر ، وأن الوحي ينزل
 عليه ، فكفر بموسى ومحمد

شاس بن قيس — ان محمدا قال له (بالذى أنزل التوراة على موسى
 هل تجد فيها أن الله يبغض الخبر السمين ؟ فأنت الخبر السمين مما
 تطعمك به اليهود ، فضحك القوم ، فأخرج مالك ، وقال ما قال تحت
 ضغط الحرج ، على أنه رغم عذره فقد جردناه من رأسته الدينية

ميمون بن يامين — وإذا كانت هذه ثمرة العاطفة الجائحة ، فكيف
 نقع فيما عناه على الغير . بتفضيل وثنية قريش على وحدانية محمد .
 ونحن وإياه على وحدانيته ، نكره الشرك وثنية وابوة وبنوة وصحبة

أبو ياسر — وهل رحبنا بمحمد وأصحابه إلا ليفتح امامنا أرض
 الميعاد التي أخرجنا منها . ويجلى المسيحية الجائحة عنها ؟ ولكنه شغل
 بحاجته وحاجة أصحابه عن حاجة الناس .

مخيريق — لا أدري والله ما وراء كل هذا الجدل . ولا أدري
 ما تنتظره من رجل له في يثرب كل هذا الحول والسلطان ، ثم يخطب ودكم

(١) وفي هذا نزلت آية ، ما أنزل الله على بشر من شيء . على لسان هذا الخبر

وينزلكم منه منزلة الخليفة الكريم .. حاربوه إن شئتم ، أو اقتلوه إن استطعتم . أو انفذوا من أقطار السموات والأرض إن قدرتم ١١
 فيحاص — يا ليت شيئاً من ذلك قد تم ، فقد وضع له لييد بن
 الأعصم سحراً في بئر (أروان) فعوفى منه ١١ وليس بين شعب
 إسرائيل من يستطيع منازلته ، بعد أن دانت له سيوف الأوس
 والخزرج ، ولكن ماذا علينا لو رفضنا هذا الحلاف ، ثم غشيننا بحالسه
 نسائله أمهات المسائل العلمية ، والمعضلات التوحيدية ، إثارة للشبهات
 في رؤوس أصحابه وهم قريبو عهد بالوثنية

عبد الله بن سوريا — لا تسمعوا لهذا الكلام ، واعرضوا عنه ،
 فإن صاحبه محفظ الصدر ، من محمد وأصحابه لثرة (١) خاصة ، فقد تحدث
 إليه يوماً أبو بكر يدعوه للإسلام ، فقال له إن الله فقير يستقرضنا
 أموالنا فهو ألبنا فقير ونحن عنه أغنياء ، فصفعه أبو بكر صفقة قوية
 فذهب إلى محمد يشكو إليه ، فلم يأخذ له بكل حقه كما كان ينتظر .. فهل
 الله خالق موسى بن عمران فقير ونحن أغنياء كما يقول ١٩ (٢)

أصوات — حاشاه حاشاه

على أنكم قتم بسؤاله عن حقيقة الروح وعن خالق الجن والانس
 وعن قيام الساعة ، وما أوتى موسى من الآيات التسع (٣) وعن أسماء

(١) ثار (٢) وقد نزلت في ذلك (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)

(٣) وفي هذا نزلت (ولقد أتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم الخ)

الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض ، وعن أعظم الشهادة ،
وعن حقيقة الله ، وعن أول طعام يأكله أهل الجنة ، فأجاب عن كل هذا
طبقا لما جاء في التوراه ، فازداد بذلك حبا وثقة في نفوس أصحابه بدلا
من أن يثير ما كنتم تنتظرونه ، من لفظ أو شبهات أو تشكك

• ميمون بن يامين — وعندي أنه لم يقصد بهذا الحلف في الواقع ،
إلا مناهضة عباد هذه الغرائق (١) من يثريين ومكيين ، فان الكتاب
في مجموعه ليس إلا نداء لجمع شتات المسلمين واليهود في معسكر
واحد ، لمواجهة خطر المستقبل ، بعد أن ربط بينهم برباط الاخاء .
والمساواة في الحقوق والواجبات . ولا أعتقد أن هناك خطرا إلا عليهم
وهذا ما يؤيد عهده بقوله (وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها) ومن
ينصر قريشا إلا من كان على دينها من أهل يثرب .

الحصين — اغلب الظن أنه لم يبق للشك إلى نفوسكم طريق بعد كل
هذا النقاش ، وأرى قبول هذا الحلف ، لنظف بصدقة هذا الرجل الذي
يتضاعف نفوذه وسلطانه يوما بعد يوم . عسى أن نستطيع حمله يوما
على أن يغزو لنا المسيحية في أرض أورشليم ليأوى إليها المضطهدون
في بني اسرائيل ووطنا كريما ومنزلا مباركا
وهنا اختلطت أصوات الاحبار بين الرفض والقبول . وسادت

(دارالمدارس) (١) الجلبة والضوضاء . وقام زهاها رؤساء بني قريظة
 وبني قنيقاع . غاضبين رافضين التوقيع (٢) مقسمين بموسى الكليم ،
 ليكيدون لمحمد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

ثم مال كعب بن الأشرف ، على إذن رافع بن حارثة يسر إليه
 ببعض الحديث ، فاحمر وجه رافع غضبا . واتسعت عيناه دهشة ، ثم
 أطرق برأسه إلى الأرض لا يقول شيئا ، ثم رفع رأسه وتوجه إلى
 الحصين وقال :

أتكون أذهانتنا قد خانتنا حين نفهم أن نقاش حبرنا الك
 ومن لف لفه ، يحمل روح الدفع عن هذا الرجل ، وأن لهذا سرا خاصا
 الحصين - هذه نهاية سدة (٣) الحق دائما ، لا يرضون الناس ..
 ولكن حسبهم ارضاء الله وارضاء اقتدتهم

حي ابن اخطب - وما معنى هذا الكلام المغلق

الحصين - سيتولى المستقبل القريب تبيان ما غمض منه عنكم
 عاد المجلس إلى صمت عميق ، كان الحصين واصحابه أثناءه نهبا للعيون
 وطعاما للغنيط والاحقاد ، ولولا صبابة من الاحترام القديم وأثر من
 التشكك فيما تطرق إلى الاذهان لاصبحوا أثرا بعد عين

(١) مجتمع اليهود (٢) ولم يلبثوا بعد حين أن رجعوا مع النبي حلفا كهذا الذي رقه غيرهم

(٣) خدام

ثم نهض كعب بن الأشرف واقفا وراح ينفذ عن ذيله التراب
في غيظ وحنق ثم قال

تعسا للدسائس تلعب بيننا وقبحا للدساسين يعاونون الدخلاء
مخيريق - أين مكان الدسيسة يا كعب ، وأين مواضع الدساسين ؟
هل الرجل الذي عاش دهره معلما فيكم ، وطال عوده في دوحة محبتكم
ورضاكم ، ووقف بينكم يذلل الصعب . ويرسل على المدلهيات نور
أفكاره تعرضون بعقيدته على هذا النحو المرذول

كعب - ماذا عسى أن يفهم بعد كل هذا الذي سمعناه منه ، إنه
لا يرحم محمداً إلا إذا سكت هنيهة وحرك لسانه فيها بما لا نسمع
وأغلب الظن أنه يصلي عليه كما يفعل أصحاب محمد ، ولا يتحدث إلا إذا
أحاطه بعبارات التجلة والاحترام ولا يحاول أن يناقش عهده الذي
أرساه إلا انبرى له واصحابه يسفه رأيه ويفند حجته

مخيريق - لقد أخطأتم الفهم في كل ما قيل ، ولكنها لغة العلم نحو
العلماء على أنكم لا تنسوا أن محمداً في مكان القوة منكم ، وأنه رغم ذلك
قد أخذ نفسه بما أرسل إليكم اطمئنانا لكم . فإن قبلتم مصالحته كان
خييراً لكم وان رفضتم يده ، وفي بما عاهد من جانبه حتى تناوتوه
موقفه وعندها يكون له العذر فيما يصنع ، والجزاء المنتظر لكم
أصوات - ما هذا التهديد .

مخيريق - لا تهديد ولا وعيد . . أن أحبارنا يعرفون صفة الرجل

في الكتاب الذي نزل على كليم الله ، ولكنهم غيروها ومسحوها
ارضاء لمشاعر العامة واحتفاظا بحق القوت عليهم ، مؤثرين البقاء على
أرزاقهم (١) دون البقاء على ما جاء به التوراة
أصوات - قوموا بنا فقد طفح الكيل

* * *

لم تمض أيام حتى تناقلت الالسنه وشاع في كل مكان نبا اسلام
عبد الله بن سوريا وميمون بن يامين والحصين وسمى نفسه عبد الله
ابن سلام وذاع اسلام مخيريق اليهودي المعروف بثرانه وتجارته
الواسعة ما بين مكة ويثرب ، وما بين يثرب والشام . ونصب الاولون
من أنفسهم معلمين لأولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وتحفيظ
ما يستظرونه من القرآن ، وراح الأخير ينفق في سبيل الله ويهب

* * *

وقف شاس بن قيس يعبت بلحيته ويحرق بعينه الضيقتين دون
نادى الانصار وكلمما رأى مظاهر اخائهم وتعاونهم اعترته نوبة من
القلق فشبك يديه خلف ظهره المقوس ، وظل في غدو ورواح
مطرقا مهموما ، ولعله كان يفكر في طريقة لمحاولة إشعال الفتنة بين
هذه الأسرة الاسلامية ، ثم رفع حاجبيه الكثرين وراح يستعرض المارة

(١) وفي هذا نزلت (الذين يبخلون وبأمرؤ الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من
فضله وأعدنا للكافرين عذابا مهينا)

حتى وقع نظره على أشيع بن مشكم المغنى اليهودى المعروف . فاستدعاه
ونحاه جانبا . وهمس فى أذنه بكلمات . ثم انصرف وخلف أشيع يحوم
حول نادى الانصار . حتى رأى ثلة من المسلمين تقصد النادى فسار
خلفهم ودخل معهم . وظل بصره ينتقل فى وجوه المتحدثين واحدا
بعد الآخر . حتى إذا فرغ السمار من أحاديثهم وساد السكون المجلس
أسند ظهره الى الحائط . وأرسل فى هذا السكون نغما خفيتها حنونا ، ثم
أخذ صوته يعلو ويبدأ بقول أبى قيس بن الاسلت الأوسى (١)
على أن قد فجعت بنى حفاظ فعاودنى لها حزن رصين
فأما تقتلوه فان عمرا أعض برأسه غضب (٢) سنين (٣)
فاهتز بنو الأوس طربا وتفاخرا ، واحمرت وجوه بنى الخزرج
حنقا وغیظا واستعیدت الآیات من الأول . بينما عارض الآخرون ،
فاحتد بعضهم على بعض . وتسابوا وتشادوا وتنادوا للحرب ولجئوا
إلى السلاح

* * *

(الله . . الله !! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم
للاسلام . وأكرمكم به . وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من
الكفر ، وألف بين قلوبكم)

(١) من قصيدة قالها الشاعر فى واقعة بعاث قتل فيها أكثر زعماء الفريقين ،

(٢) الغضب السيف (٣) السنين الحاد

كلمات أطلقها الرسول غاضبة مدوية ، نطقت بها قسامته فصيحة
 لكسانه . وتحدثت بها جوارحه قوية ككيانه ، واهتز لها عوده
 فارها مستعرضا على غير طبيعته . فكنت تراه وقد أقبل على القوم
 مسرعا يجر عباءته ، كأنه جبريل أرسل على الأرض جناحيه ، فاخفى
 أصحابه فيما أثار من تراب ، ثم أرسل ذراعه في الفضاء كالشراع
 تحركه اتجاهات الحديث ، وموجات الانفعال حتى انتصرت شخصيته
 على نزعات التفرقة وحمية الجاهلية ، وركت قلوب المتخاصمين
 حتى تدانت الأجسام . واستعبرت العيون وتلاقت الصدور وتعانق
 المشادون . فهدأت نائرة الرسول ولمعت أساريره بالفرح فتشجع
 أوس بن قيطي وقال :

— والله يارسول الله ما ندرى ونحن نسمر إلا ومزمارة خبيثة

تنطلق بقول أبي قيس بن الأسلت

على أن قد فجعت بذي حفاظ فعاودني لها حزن رصين الخ ،
 فهزت الأوس رؤوسها طربا . واحمرت وجوهها زهوا وفرا ، بينما
 غضبت الخزرج وعرقت جباههم حياء وخجلا ، ثم صاحوا بالشادي
 أن اسكت وإلا . فانتصرت له الأوس وطلبوا إليه المضي في الغناء
 فشد القوم وتنازعوا ثم صاح جبار بن صخر وقال . إن شتم
 رددناها الآن جذعة (١) فرددت عليه وإن موعدم الظاهرة (٢)

(١) غوبة كما كانت (٢) الظاهرة مكان خارج يثرب

فتنادى الفريقان ، . السلاح السلاح ، وكان ما رأيت .

عمر بن الخطاب - إنها والله لمزماره الشيطان غاظته إخوتكم في دين الله ، واحفظه توادكم في سبيله وتراحمكم في محبته ومحبة رسوله أبو بكر - إني لعلى يقين بأنها أصعب يهودية حاولت تخزيك هذه الفتنة

أصوات - هذا ما لا ريب فيه (١)

* * *

وقطع عليهم حديثهم في بيت المدارس (٢) أشيع بن مشكم قائلاً - ألم أقل لك يا ابن قيس أنه لن يحدث ما توقع ، لقد أدركها محمد صاحبهم قبل أن تشتعل ، فأطفأها بكلمات تافية ، وعاد القوم إلى سابق صفاتهم ومودتهم

شاس بن قيس - لم يكن ما حدث غير متوقع ، فقد وقفت على الكثير من دهاء هذا الرجل ومكره ، أفلا تذكر يوم جاء من قباء إلى يثرب وهزت الجميع أريحية الكرم : وراحوا يتنازعون زمام الناقة ، راغبين في ضيافته ، فيقول لهم (دعودها (٣) فانها ملهمة) تخلصا من

(١) وقد نزل في هذا الحادث قول الله ، يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ،

(٢) ناد لليهود (٣) أى الناقة

الجنوح إلى أحدهم فيغضب الباقون ، حتى بركت ناقته في أرض
أخواله ١ وإلا فمتى كانت النوق في عداد الملهمات ١؟

ثم ألا تذكر يا أخاه أن قدمه ما كادت تطأ أرض يثرب . حتى
أغرى الجميع ببناء المنازل ، وأرسل في طلب أبنائه ثم استدعى المهاجرين
والأنصار ، فأخى بين فقرائهم مؤاخاة خولت لكل منهما حقا في تركة
أخيه بعد وفاته (١) فمنهم من رضى عيش الإخاء واقسم مع أخيه
ثروته ورزقه ، ومنهم من أبت عليه نفسه إلا أن يزارع ويتاجر ، ومنهم
من أعد لهم صفة المسجد (٢) وأجرى عليهم الأرزاق من مال
أغنيائهم . . ولعله لا يغيب عنكم ما وصلت إليه ثروة عبد الرحمن
ابن عوف . وقد أضحت قوافله تملأ الصحراء ما بين يثرب والشام
بعد أن كان فقيرا لا يجد قوت يومه ، وهذا محمد بن أبي بكر وزيد
ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، أضحوا جميعا من كبار الزراع وقد
كانوا بالأمس كلا على سواهم . فمن أين ثروتهم إلا أن تكون من
أرض يثرب وهي ملك لأهلها

(١) ظل هذا الحق معمولا به حتى النى ذلك كتاب الله في غزوة بدر بقوله (وأولو الأرحام
بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) (٢) المكان المسقوف منه . وهم المعروفون بأهل الصفة .

سُنُّ أَفْرَاحِ النَّبِوةِ

يُصَوِّرُ هَذَا الْبَابُ كَيْفَ بَنَى رَسُولُ اللَّهِ
بِعَائِشَةَ وَكَيْفَ بَنَى عَلِيٌّ بِفَاطِمَةَ ، مِمَّا
أَسْبَغَتْ أَعْيَادَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَرِحًا وَسَعَادَةً.

— ١ —

أخذوا نصف دينكم عن هذه
الخبراء ، محمد الرسول

ولامل خولة بنت حكيم (١) قد أدركت من اطراقته الطويلة في
هذا الجو الصامت ، انه يستعيد ذكريات خديجة التي كانت تملأ عليه
المنزل نورا وعطفا . فأرادت أن تقطع عليه حبل تفكيره وأحزانه
لتزف إليه شيئا من السرور ، ففاجأته قائلة

— أي رسول الله . . . ألا تزوج ؟

فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم وذرعها (٢) بنظرة خاطفة ثم عاد
إلى إطراقته ، وكأنه قد عز عليه أن يستمع لحديث الزواج ، بعد
خديجة التي آمنت به حيث كفر الناس ، ووهبته قلبها ومالها حيث
تنكر له الأهل ، لولا حياة الكفاح المضيئة . وعيشة الوحدة
القاسية . وحاجة الوالد لمن يعنى بأولاده الصغار . . فرد على
استفسارها قائلا .

— ومن تكون ؟

خوله — إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً
رسول الله — فمن البكر ؟

(١) زوجة عثمان بن مظعون (٢) شملها نظرتة من أسفل إلى أعلى

خوله — إبنة أحب خلق الله إليك ، عائشة بنت أبي بكر
رسول الله — ومن الثيب ؟
خوله — سودة بنت زمعة بن قيس قد آمنت بك . واتبعتك على
ما أنت عليه
رسول الله — إذ هي فاذكريني عندهما

* * *

ودخل أبو بكر مهلل الوجه ، تطل من عينيه الضيقتين أشعة
السرور ، سريع الخطى مهوور الأنفاس ، فاستلقى على أول وسادة
صادفته في حجرته الفسيحة التي اتخذها لكبار زائريه . فسارعت إليه
زوجته ولاحقتها خولة بنت حكيم . تحمل إليه جواب رسول الله فيما
سأل عنه وابتدرته قائلة :

يقول لك رسول الله محمد (إنما أنت أختي في الإسلام وأنا
أخوك وابتنتك تصلح لي)

أبو بكر — حمداً لله على ذلك

أم رومان — (١) وكيف تتحلل مما ارتبطنا به مع المطعم بن عدى
الذي خطبها لولده من قبل

أبو بكر — لقد أراد الله أن تتحلل من ذلك

(١) زوجة أبي بكر

أم رومان — وكيف ذلك

أبو بكر — ذهبت اليوم إلى منزل المطعم. وفي نفسى مرارة بما وعدته به بعد علمي برغبة رسول الله في شأن عائشة، فابتدرتني زوجته وقالت

يا ابن أبي قحافة . . لعننا إن زوجنا ابنا ابنتك أن تصبئه (١)
وتدخله في دينك الذي أنت عليه

فربطت على قلبي أن يطير من الفرح، حين أدركت أن العجوز تهيء أسباب الخلاص من خطبة عائشة لولدها. ولكنني تظاهرت بالامتعاض والحزم. وتوجهت إلى المطعم أسأله في ذلك متمنيا في نفسى أن يسير في ركاب زوجته. حين يرى ما انتابني من ألم ويعفيني من قيود هذه الخطبة، فقلت له ما الذي تقول هذه المرأة يا ابن عدي؟؟ فقال هو هذا الذي تقوله حق . . فحمدت الله على ذلك، ولم أستطع البقاء من شدة الفرح، فجئت إلى هنا سراعا لا ألوى على شيء.

أم رومان — ولكن أنى لعائشة أن تتزوج في التاسعة من عمرها خوله — ان رسول الله لا يطلب يدها الا تكريما لأبي بكر الذي أخاه في الإسلام، ووهب له حياته وماله. وسوف لا يبني بها إلا بعد أن ينمو عودها ويخضل زهرها. ويبسق رمانها ويستدير .

(١) أن ترجمه عن دينه

فتمازح الحاضرون وتضحكوا . وأطرقت أسماء برأسها إلى الأرض استحياء ، بينما عائشة تتواثب أمامهم طروبة ، تدور حولهم مرحة تعبت بالدمى (١) وتتقاذف الكرة بمؤخر السعف (٢) دون أن تعلم من أمر هذا المؤتمر شيئا . والسكل ينظر إليها نظرة غبطة وسرور .
أم رومان — غير أنى علمت أن رسول الله قد خطب على نفسه
سودة بنت زمعة بن قيس

خوله — ومن أوفى من رسول الله عهدا . وأعز صنيعا ، هذه أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس . هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارا بدينها . فعانت من أجله ما عانت . فلما تنصر زوجها لم تكن كالظل الذي يتبع الشاخص ، بل عادت إلى مكة صيانة لدينها . كما هجرتها لذلك ، فصانعها رسول الله بزواجها وفاء لقوة إيمانها . وثبات يقينها . فهي ليست بذات مال تنفقه في سبيل الإسلام . ولا ذات جمال تغبط عليه

أبو بكر — إدعى لي رسول الله

خوله — فرحة — يا العظيم ما أدخل رب الكعبة على بيت أبي بكر
من الخير والبركة !!

* * *

(١) جمع دبة وهي لعبة الأطفال (٢) نهاية الجريدة من الناحية الغليظة

وفي أمسية الخميس الثاني من شوال كانت دار أبي بكر تزخر
بالمسلمين . وفي مقدمتهم حمزة وعمر وعثمان وعلي . وتفيض بأنوار
المصابيح الزيتية الهادئة . وتحمل الرياح عن أغصان الاذخر (١) شذاه
العطر ، فينعش النفوس ويملاً الجو بالأريج الفياح ، وجاء رسول الله
محمد وخلفه مولاه زيد بن حارثة ، يحمل معه حقيبة ما كان أحد يعرف
ما بداخلها لولا رنين الفضة ، أصدقهما رسول الله أبا بكر في ابنته ثم
جاء موالى أبي بكر وخدمه ، يحملون الخوانات (٢) محملة بالثريد واللحم
والفالودج (٣) فأكل الجميع هنيئاً وشربوا مريئاً ، وعيون قريش
تكاد تلتهم الوافدين والمنصرفين غيظاً وكراهية .

* * *

وأطل ابو بكر من نافذة منزله في ضاحية السنح ، بالقرب من
يثرب ونادى خادمته (عاتكة) فوافته في خفة الظبي واعتدال الريح
ووقفت دون سيدها . فأشار لها فدنت باذنها إلى شفته فأسر لها بما أسر
ثم عادت مسرعة إلى حيث أمرها سيدها فوقفت دون سيدتها الرشيقة
في أرجوحها الجميلة ، لا تهبط إلا لتصعد ، ولا تصعد إلا لتهبط ، بين
يدى حاملين من جذوع النخل . وقد أخذت أنامل النسيم تعبت بجداول
شعرها الاثيث الفاحم . . ثم راحت تفلح حيلها لحمل سيدتها على ترك

(١) نبات ذو رائحة جميلة (٢) جمع خوان وهو مادة الطعام (٣) حلوى تشبه البالوطة المعروفة

أرجوحتها تنفيذاً لما أمر به سيدها إليها . . فراحت تحدثها حديثاً عادياً
 عليها توقف من هبوطها وصعودها . لتواصل الرد عليها ولكنها واصلته
 بغير امهال ولا توقف ، فرأت الخادمة أن تخطر لها بحديث أشد من هذا
 جدية ، فأخطرتها بأن إحدى دماها غير موجود في حرزها ، فهتت
 لذلك عائشة . وتركت أرجوحتها تأخذ موقفها الطبيعي . استعداداً
 لمغادرتها والبحث عن دميته الغائبة في لهفة وغضب .

وما ان نزلت حتى أخذتها في شيء من الخزم . وغسلت لها وجهها
 الوضيء ، ليزداد وضاءة ويفيض إشراقاً . ووقفت أمها مع بعض الموالى
 خلف مشتجر من النخيل يتضحكن في كتمان . ويتمازحن في اسرار
 وينظرن إلى ما تفعله (عاتكة) بسيدتها ، بعين السرور والاعجاب .

ثم جففت وجهها من الماء بقטיפه عدنية . ثم قادتها بسرعة إلى
 الحجرة التي جلس فيها سيدها في انتظار العروس الصغيرة قبل التمكن
 من أن تتوجه إليها بسؤال أو رجاء ، ثم وقفت بها هنيهة حتى تهدأ
 أنفاسها قليلاً : ثم دخلت بها على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ومعه
 أبو بكر . فأجلستها في حجره وقالت

هذه أهلك بارك الله لك فيهن . وبارك لهن فيك

وما أن سمع الحاضرون ذلك حتى بادروا إلى مغادرة المكان
 الذي جهزه أبو بكر بما قيمته اثنتا عشرة أقة من الفضة

اللهم بارك فيما . وبارك عليهما . وبارك
لها في نسلها ، اللهم إني أعيدها بك وذريتها
من الشيطان الرجيم . محمد رسول الله .

أميمة مولاة علي بن أبي طالب ، تضع أمامه سفرة الطعام وهو
مطرق مهموم . لا تدري أتفكير في مستقبل الدعوة وهب لها نفسه
منذ صباه ، أم شعور بالوحدة تلف قلبه بوحشة لا عهد له بها . قبل أن
يبلغ الحلم ، أم مغالبة للغيظ والحنق عليها بعد أن قضت ردها من الليل
خارج داره . اعتمادا على تسامحه الذي تعودته

لاحظت أميمة على سيدها ذلك ، فراحت تقدم له ما عندها من
خبز وبلع وشيرج . وهي صائمة عن الكلام حتى بادأها الحديث
— أين كنت يا أميمة ؟

— كنا نرف سلمي بنت عوف ، إلى سليم بن عبد الدار . في
معرس (١) اجتمع له سكان يثرب فمدت الأسمطة (٢) تحمل الشواء
والصليق والحيس (٣) والفالوذج (٤) ورقصت الأحباش رقصاتهم
الحريية المرحية ، وغننا (سيريين) ألحانها الشجية ، ومنها اللحن الذي
سمعه رسول الله توقعه علي مزهرها الساحر

(١) المعرس براد به حفل كبير (٢) موائد الطعام (٣) تمر مخلوط بالزبد (٤) قح مقشر طهي
في الماء والسكر والآن

هل على ويحكم إن لهوت من حرج
 على - محتدا - صه يا لعينة أتخلفين عن خدمتي ، ثم تكذابين ،
 وهل يصغى رسول الله إلى مزمارة الشيطان (١)
 أميمة - قد والله سمعها وتبسم لها وقال . . لا حرج إن شاء الله
 على - بيتسم - ثم ماذا يا خبيثة ؟
 فدنت أميمة من سيدها وقالت هامة
 ولقد سمعت سيدى - همسا - أن أبا بكر قد خطب إلى رسول الله
 ابنته فاطمه ، فأبى عليه ذلك ثم خطبها إليه عمر بن الخطاب ، فأبى عليه
 ذلك . فما يمنعك - سيدى - أن تأتى رسول الله فتخطبها لنفسك إليه
 فزفر على لحديها زفرة طويلة ، تحمل موجات من الأسى لفقره
 والحنين إلى مصاهرة حبيبه وابن عمه ، ثم قال لمولاته بعد صمت
 - ليس عندى ما أصدقها به ، ولا أملك إلا درعى الذى وهبني
 إياه رسول الله
 أميمة - إنك إلى رسول الله حبيب إلى نفسه ، قريب إلى قلبه ،
 سليل أبى طالب عمه . نصير له منذ مبعثه ، فداؤه حين مهجره ، وجنديه
 المجلى فى ملاحمه ، وأخوه فى الدنيا والآخرة ، وأهل لفاطمة الكاعب
 اليانعة ، فاذهب إليه . واعرض الأمر ، عليه فانك إن جثته زوجك
 على - أخشى أميمة أن . . .

(١) كان ذلك قبل علمه بالحكم الشرعى فى إباحة السباع

أميمة - تقاطعه - لا تخش شيئا - سيدى - انه أدري منك بحالك ، وانه أهل لحل معضلة الصداق .

أميمة - تطرق باب فاطمة بنت رسول الله ثم دخلت عليها مسرعة فرحة وبادرتها الحديث - بشراك سيدتى

فاطمه - يشرك الله بخير . ماذا ؟ أنصر للمسلمين جديد ؟

أميمة - انه نصر بلاشك ، غير أنه من نوع جديد ، انه نصر لقلب كبير برحت به الوحشة ، وأضناه الحنين الى شريكة كريمة وفية ، ومن أكرم وأوفى من بنت المبعوث رحمة للعالمين

فاطمه - ماذا ورايك - أميمة - تحدثى بغير إطالة ولاديباجة

أميمة - لله درك سيدتى .. أما علمت شيئا عنها بعد ؟

فاطمه - لا ورب الكعبة

أميمة - لقد قبل رسول الله خطبتك منذ قليل

فاطمه - مبتسمة - ويحك لمن ياترى

أميمة - لآخيه وفدائه على بن أبى طالب

فاطمه - شاهقة - على ؟ وكيف تم ذلك

أميمة - ذهب اليوم الى رسول الله يحمل من أمره ما يحمل ،

ولكن ما كادت تطالعه مهابة الرسول فى مجلسه حتى جف لعابه

وتعطل لسانه ، وكلما دفعته الرغبة الى الكلام عاقته مهابة الرسول

فيحمر وجهه خجلا، ويطأطأ رأسه استحياء، فأخس رسول الله بما
يعتلج في نفسه، فقال له ماجاء بك يا علي؟ ألك حاجة.. فلم يستطع علي
الرد، فقال له الرسول وهو يبتسم جئت تخطب فاطمة، فمسح علي عرقه
ثم قال نعم، فقال الرسول وهل عندك شيء تستحلها به، فقال له علي
لا والله يا رسول الله، فقال له الرسول ما فعلت بالدرع الذي
سلحتكها، فقال علي عندي، والذي نفس علي بيده، انها لحطمية (١)
وتقوم بأربعمائة درهم، فقال له: قد زوجتك فابعث بها، فقال
عمر: أنت لها يا علي وقال أبو بكر علي بركة الله وسنة رسوله. وقال
عثمان:

فاطمة — مقاطعة — حسي حديثا يا أميمة

ثم حملت فاطمة رأسها بين يديها، واستغرقت في عالم من التفكير
والهموم، ثم لم تلبث أن أجهشت بالبكاء، فأظلمت الدنيا في وجه
أميمة، وتحطم أملها فيما كانت تنتظره من سيدتها، وحارت بهديتها التي
تحملها ماذا تصنع بها، وراحت تفكر هل من الحسن مغادرة الدار
علي ما فيها من أحزان، أم تحاول معالجة الموقف وفتح باب التفاهم فيما
أدى إلى هذه النتيجة الغير منتظرة. وأخيرا تذرعت بالأناة والصبر
وانتهزت فرصة هدأ فيها نشيجها وحادثتها

(١) يضم الحاء وفتح الطاء نسبة الى حطمة بطن من عبد قيس عرفت بصناعة الدروع.

— إني لأسفة — سيدتي — إذا كنت قد أخطأت الهدف
 وأسأت فيما أردت به لإزجاء السرور ، غير أنني لا أرى في ابن أبي
 طالب ما يدعو إلى كل هذا الأذى ، إنه شاب فاره العود مشرق الطلعة
 وسيم الوجه . سمح الخلق . كريم النفس . شجاع القلب . جندي مطواع ،
 فالح زراع ، ولعله أكفأ من طلبوا يدك إلى رسول الله ، وأنى لأبي
 بكر في شيخوخته ، وعمر في جهامته ، من علي في شبابه ودمائه ، على أن
 عمر وعلي في الحياة سواء ، كلاهما يعيش من كد أسرته في المزارعة
 والمساقاة ، ليتفرغ لأمر الدعوة ، وإذا كان أبو بكر من أصحاب الجاه
 والثراء ، فإن الله قادر على أن يجعل من فقر علي غنى ، ومن حاجته فضلا
 وسعة ، وهو على كل شيء قدير

سكنت أميمة بعد ذلك ترقب وقع حديثها في نفس سيدتها ، فلم
 تر إلا الدموع تتابع ، والنشيع يقطع الأنفاس ، فيئست أميمة من النجاح
 وعراها من أجل سيدها حزن عميق ، فهمت بالخروج . لولا أن دخل
 عليهما رسول الله مهلل الوجه باسم السن ، فرأى أحب بناته إليه علي
 هذا الحال ، فقال لها بعد أن عرف من أميمة سر بكائها

مالك تبكين يافاطمة ، فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما ، وأفضلهم
 حلما . وأولهم سلما

فكف بكاؤها وافترسها عن بسمه مسعدة ، أشبهه ماتكون

ببسمه العين الثرة في الواحة المجدبة ، فخلت بسمتها في نفس رسول الله كما
تحل جرعة الماء على الكبد الصادية ، في الساعة الهاجرة ، ثم ربت على
ظهرها وهو يقول (اللهم بارك فيهما وبارك عليهما)

وكان السائر ليلة الزفاف في أفنية يثرب . يراها ولقد لبست ثوبا
قشيبا من الأنوار الزينة ، تنبعث من المصاييح الزيتية متراقصة متدلية
من اعناق النخيل والأغصان . كالقلائد في نحور الحسان . وسلاسل
البخور المصري تنبعث من مجامرها فيفيض بأريجها الفضاء ، ثم تتلاقى
وتنسج من خيوطها فوق يثرب . سحابة شفاقة تظهر من خلالها النجوم
والكواكب . كما يظهر وجه الحسناء وسط وصيفاتها من خلال الخمر (١)
البيضاء . ثم لا يلبث بعد ذلك أن يرى قطارا من الابل يقوده كبار
الصحابة في ثيابهم البيض . وسيوفهم العضاء . وفي وسط هذا القطار
جمل ضخم كأنه قبة عالية ، في مسجده مستطيل فسيح ، صنع هو دجه من
الفراء وزينت فواحيه بسعف النخيل وأغصان الزيتون . تتعاقب افنانها
وتتلاقى أوراقها على خطا الابل وهزاتها . كأنها تشارك المسلمين أفراحهم
وتشاطرهم ميدانهم وطربهم . وبالقرب من هذا الهودج أبو القاسم صلى
الله عليه وسلم . يرف بعطفه على أحب بناته اليه فاطمة الزهراء
وفوق أكمة بالقرب من دار علي بن أبي طالب وقف الخبر دانيال

(١) بضم الخاء والميم جمع خمار وهو الثقاب

يرقب كل هذا بعين الاسى والحسرة، على ما وصل اليه الاسلام من شأن في نحو عامين، ثم أخذ يقول لصاحبه وهو يحاوره.

هذا زفاف علي بن أبي طالب الذي جاء من مكة الى يثرب ماشيا لانه لم يجد ثمن الراحلة، بالامس يصدق ابنة عمه فاطمة ٤٠٠ درهم وهذا أبوها بدوره، يزفها اليه في موكب من مواكب أكاسرة الفرس ويقدم لها - علي ما علمت - سريرا مشروطا وفروا كبيرا، ووسادة من الجلد الثمين. وسوارين من الفضة، وكأسا للشراب وهو نأ من نحاس. وانا من كبيرين للماء. وخمارا ثمينا

يوشع - ظننت محمدا يزف نفسه الى عروس ثالثة بعد سبعة أشهر من زواجه بينت أبي بكر! وعلى أي حال فمن أين لهؤلاء الآبقين (١) بكل هذا

دانيال - انه ما واطت أقدامهم أرض يثرب حتى اشتغلوا بالمهن وكان من حظ ابن أبي طالب وأخيه وبعض أقاربه، أن يشتغلوا بالزراعة في أرض بعض أهل يثرب، اللذين يدعونهم بالانصار وهم ليسوا إلا طائفة من البلهاء. يقدمون أموالهم وتراث اجدادهم لهؤلاء المشعوذين باسم التعاون والاريجية والاخاء
يوشع - وكم عمر الفتي والفتاة؟

دانيال — أما عمره فاثنتان وعشرون سنة ، شاب فاره الطول
مفتول العضل شديد المراس

وأما عمرها ، فخمسة عشرة سنة وهي كما علمت من (يوحناز (١))
جميلة القسمات ، مشرقة الوجه ، دجواء العين . هيفاء العود . وطفاء
الاهداب

يوشع — وددت والله لو انى ذلك الفتى

دانيال — مذعورا — صه ياهذا فان ذرات الرمل تتسمع لهؤلاء
المسلمين . وتتجسس لهم

* * *

فى ضوء مصباح خافت الانفاس بخيل الاشعاع ، وفى صمت رهيب
تكاد تسمع فيه دقات القلوب مازجها الفرح بالحنجل — جلس على بن
أبى طالب فى زاوية من داره ، مطرقا حياء تكاد مسام جسمه الضخم
تسمع وترى كل مايجرى حولها ، وان كان صوت الرسول لما يزل يرن
فى اذنه بنصيحته له منذ ساعات (لاتحدثن شيئا حتى تلقانى)

وفى الزواية الاخرى ، جلست اسماء بنت عميس وأم أيمن بركة
الحبشية قبالة فاطمة ، تحدثانها حديث المنى والامان ، تسلية لها عسى أن
تهدئا من روعها . وتنشلاها من استحيائها ، ثم دخل الرسول على
الجميع وهو يقول

— أها هنا أخي؟

أم ايمن — مازحة — أخوك وقد زوجته ابنتك ١٩
الرسول — نعم .. هو كأخي في المنزلة والمواخاة ، فلا يمتنع على
تزوجي إياه بنتي ...

ثم أدرك الرسول ما عليه فاطمة من خجل ، فاراد أن يطرح عنها
بعض ذلك ، فأمرها دون الجالسات أن تحضر له ماء ، فقامت تتعثر في
ثياب العرس واحضرت قعبا (١) فيه ماء ، فتوضأ ثم قال لها أقبلي ونضح
من الماء على رأسها وبين ثديها ، ثم قال لها ادبري ونضح منه على ظهرها
وهو يقول (اللهم إني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ثم
نادى عليا وفعل به مثل ما فعل بفاطمة وهو يقول (اللهم بارك فيهما
وبارك عليهما . وبارك لهما في نسلهما ... ادخل بأهلك باسم الله والبركة)
ثم خرج عليه السلام يدعو الصحابة الى وليمة العرس . فأكلوا ثريدا ولحما
وحيسا (٢) ثم انصرفوا بعد قليل من تناول الطعام وهم يتهانون ، الا
نعيم الصحابي المزاحمة المعروف ، فانه وقف يلحق أصابعه ناظرا إلى
رسول الله من زاوية عينه وهو يقول ، أكثر الله أفراحكم . ليكثر
حولنا ثريدكم وضأنكم

عتاب — قل وحيسكم وفالوزجكم ، فتضاحك الصحابة وهم
منصرفون

(١) القعب انا. كبير كالقصة (٢) تمر معجون بالزبد

مِنْ نَبَأِ الْأَنْبِيَاءِ

ولد في مهد العز ، ثم عزف عن عبادة النار
وأحس انظماً شديدا الى روحانية من عالم سام ،
فدفع في سبيل ذلك شبابه وراحته وحرите ،
حتى أسلم ، فاسترد كل ذلك وأرضى نفسه
وعاش سعيدا بدينه مجاهدا له حتى مات . .
ذلك هو سلمان الفارسي الصحابي المعروف

سلطان منا أهل البيت . . . لو كان
الإيمان بالثريا لثاله رجال من فارس
وأشار رسول الله الى سلطان الفارسي

— ١ —

استيقظ بوذخشان (١) . في الصباح الباكر وراح ينادي العمال
ويستدعي البنائين . ويهيب بالصناع الى العمل في محله الجديدة التي
سيجعل منها منزلاً فخماً . وداراً فسيحة أنيقة . تليق بدهقان (٢) القرية
وجاكمها المطلق . وبينما هو يشرف على عملية الحفر . ويتعهد تقدم البناء
ويراقب أشغال النقش والزخرفة للأبواب والنوافذ، إذ توقف فجأة عن
الحركة، وعض شفته السفلى بأسنانه، وتذكر انه لم يخرج الى ضيعته (٣)
بعد، وأن هناك من المهام ما يحتاج الى عناية، ومن المصالح ما يفتقر
الى رأيه وخبرته . فنادى بعض حراس القرية وقال لهم .

على بما به (٤)

فجاءه ولده (مابه بن بوذخشان) محروسا ببعض الخدم، وانحنى

أمام والده تعظيماً وقال

— لبيك يا أبت

بوذخشان — الى ضيعتنا فطف برحائبها . وتفقد سوائمها وزراعها

وشق رياضها وغياضها . وأرجو يا بني أن تكون قد عدت الى صوابك

(١) اسم والد سلطان الفارسي الصحابي المعروف (٢) حاكمها (٣) أراضيها الزراعية

(٤) ولده الذي سمى فيما بعد سلطان الفارسي .

ورجعت عن غوايتك . وثبت الى ماعليه آباؤك وأجدادك . وسأدعك
اليوم بغير رقابة . وسأطلقك بغير حراس ، ثم أدناه إلى فؤاده وربت
على كتفه وقال :

ولعلك يا بنى ترحم عطفي عليك ومحبتى لك . وتحقق رجائي في أن
تكون على الحق الذى عليه الجميع ولا تحتبس عنى ، فانك عيني التى أنظر
بها ، ويدي التى أبطش بها ، وقلبي الذى أعيش به
— سأمضى يا أبت ، وسأكون فى ركاب الحق دائماً .

نحا (مابه) صوب ضيعة أبيه . فاسترعى آذانه وهو فى طريقه اليها .
ترانيم المزامير . وألحان الأناشيد ، تذبعت بها أصوات المصلين داخل
الكنيسة ، ملفوفة فى سحب البخور المعطرة ، وشذى العنبر والمسك .
فوقف منصتاً اليها تتنازعه عاطفتان . عاطفة الرغبة فى إرضاء أبيه
وعاطفة الحنو إلى هذه الأناشيد الروحية ، تملك ألتائها عليه قلبه
ومشاعره ، وكما هم بالدخول تمثل له أبوه يناشده العطف . ويتوسل اليه
بالمحبة ، أو هم بالانصراف . جاذبته هذه الأهازيج رحية شادية . فطغى
صوتها على صوت أبيه ، وحنانها على عطفه وحنانه . وقادته فى النهاية
بأجبالها . وأدنته بألتائها ، حتى ألتى نفسه أمام المذبح يستمع خاشعاً .
ويصبح هامماً ويترنم مذهولاً .

وبعد انتهاء الصلاة أخذ قسطه من النقاش والبحث . فى مواضع

كان قد تحدث فيها من قبل، يلم بأطرافها . ويستقصي حواشيها . والرهبان به معتبطون . وبدخوله في دينهم فرحون مسرورون . حتى آذنت شمس النهار بالغروب . وزحفت سحائب الليل تدرج الكون في ثوب من السواد . بينما والده يتلظى قلقا . ويضطرم انزعاجا . ويتابع إرسال خدمه وإيفاد حراسه الى الضيعة ، فما وقفوا له على ظل . ولا عثروا له على أثر . فزداد قلق الرجل على ولده . وكثرت وساوسه على مستقبله . وثار تآثرته على هؤلاء النصارى . الذين امعنوا في أساليب اغرائه . حتى نسي توصل أبيه وضراعة أمه . وبطش الالهة المعبوده (١) ذات القوة والسلطان .

ثم جاء (مابه) أو سلمان الفارسي . كما دعى بعد ذلك . ووالده يذرع الأرض امام منزله ذهابا وجيئة . وقد انعقدت على وجهه سحابة من الغضب والحزن . والناس هنا وهناك تنهه من غضبه ، وتخفف من سخطه من حيث لا يعلمون سر هذا الغضب . فابتدره قائلا .

أين كنت يا بنى الى هذا الوقت ؟

مابه — كنت حيث أمرتني

بوذخشان — ولكنك لم تذهب الى ضيعة أبيك كما أمرتك .

مابه — ليس هذا كل ما أمرتني به . وإنما أمرتني بأشياء أخرى

وهو أن أكون حيث يوجد الحق . فكنت كذلك — مقاطعا —

كفى لا تكمل قصتك فقد عرفتها وهيا الى مخدعك
 دخل (مابه) وخلفه أبوه الى منزله وأغلقه في شدة وغضب، وخلف
 وراه جيشا من الفضول والتساؤل، عن معنى هذا الكلام المقتضب
 وسر غضب حاكمهم إلى هذا الحد، وسبب مقاطعته لولده وهو قطين (١)
 النار وأمامهم، بهذه الشدة رغم ما عرف عنه من حنوه عليه ومحبه له
 ولكن واحدا منهم لم يظفر بجواب

وقف بوذخشان بين حاجبي ولده . يرسل من نظراته أشعة الغضب
 منه والخوف عليه . ويرميه بزفرات الغيظ تحمل في طياتها لبب المحبة
 والاشفاق، ثم ترجم لسانه المستعصى ما يجيش بنفسه قائلا

— أى بنى ريبتك صغيرا وروضتك كبيرا . حتى فره عودك .
 وسمعت قامتك . واستعرض منكبك . وأصبحت ارجى فيك المرذبان (٢)
 المنتظر لجيوش كسرى . فتعنوك الجباه . وينعقد لسيفك النصر
 وتضفر على رأسى ورأسك أكاليل الفخار، ولكنك عزفت عن
 الجندية وعفت الجيش . وكرهت حياة النضال : فخطمت فى صدرى
 هذا الأمل، وعدلت عن إحدى الحسينين . وعكفت على التفقه فى دين
 آبائك والتمعن فى علومه، والتقرب الى مقام ذات الجلالة . حتى
 غدوت لها قطينا . فقلت لئن فقد مكانه المرذبان فقد أدرك مقام
 الموبدان (٣) وسرنا وراءك وتعبدنا خلفك . وتوالت علينا الهدايا وتتابع

(١) خادمها الخاص وهى وظيفته بمثابة الامام المقرب (٢) قائد الجيش

(٣) الخادم الخاص للنار وهو مركز دينى يمتاز عند الجوس

القرابين . فسجدنا للالهة شكرا ، ودعوناها أن تتم نعمتها على الجميع .
ولكنك لم تلبث أن أصخت لصلصلة الجرس . وتمتمة الرهبان . وغمغمة
القساوسة وصوت هؤلاء الشياطين . فحاولت أن أقطع حبل اتصالهم
بك ، واتصالك بهم . فأودعتك عيون الحراس . وسلمتك لعناية الرقباء
والخدم . فرحت اليوم تقضى سخابته عندهم . وتوثق الصلوات بينك
وبينهم . وكيف يكون المصير حينما يعلم الناس ذلك عن امامهم ويشهدون
ذلك من موبدانهم

ثم أخذ (بوذخشان) بمعصم ولده مابه . . ومشى به إلى بيت النار
على قدمين مرتعشتين ، ويدين مرتجفتين ، ثم وقف ينظر إليها بعين دامعة
وفؤاد ذليل . ثم جثا على ركبتيه عندها وسجد وأطال السجود . وقد
ظن أن ولده بجواره يقتدى به أو يجاريه رحمة به . ولكنها كانت
صدمة هائلة ، حينما رفع رأسه فألقى ولده قطين النار بالأمس جامدا في
مكانه لا يحركه احترام ، ولا يهزه اعظام ، نخشى أن يصيبه منها غضب
أو إيذاء ، فازدادت رجفته ، وجبانحوه حتى كان . عند قدمه ، وقال
في صوت مذبوح ضارع .

أى بنى . سلها العفو والمغفرة ، تب عند بابها وأنب . واسجد لها .
عساها أن تستجيب .

فلم تتحرك في جسم ذلك العملاق عضلة واحدة

فأطرق الرجل، وبكى إشفاقا على ولده، واستقبالا للقضاء المنتظر
ثم عاد إلى شجاعته. وقد خيل إليه أن الهته واسعة المغفرة، وأنها
ستمهل ولده العاصي العنيد رحمة به، وإشفاقا عليه، ثم قال :
أي بني ألا يرضيك بعد كل تفقهك وعلمك، أن تكون عبدا لهذه
النار. ألا تنظر إليها شعاعة حارة، وللحرارة أثرها في الاصطلاء (١)
وفي الزراعة والنبات، فتأكل بالظلام. شعاعة بالنور. وللنور آثاره
العظيمة بين المخلوقات، كماوية لمن يدنو منها، لاذعة لمن يمسه بأذى.
شاوية منضجة للطعام. فتحيل النوى الدفر، طعاما لذينا شهيا، أنظر إلى
دخانها يسمو إلى السماء بغير مرسل له ولا باعث. وتراقص ألسنتها
دليل الحياة والقوة. فماذا داخلك من شك في عظمتها بعد هذا كله !
فتحركت شفة الفتى الهاديء في عنف واتزان وقال :

ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟ !
— وكيف هي لا تسمع يا بني، وهاهي ذى تتأود من حديثي فرحا.
وتتقد من نقاشك غضبا. وكيف لا تبصر. وهاهي ذى أنوارها تملأ
فناء المنزل نورا. وبهجة وسرورا، وكيف لا تغني شيئا وفيها كل
ما قد ذكرت لك !!

مأبه — ياأبت : أأست الذي جمعت لها الأحطاب، وقدحت

شررها بحك الثقاب ، وأذكيت نارها يدي . وألهبت جذوتها بزفرتي .
فأنا الموجد لها . والعامل على خلقها . وكيف يصير المخلوق خالقا
والموجود واجدا ، ومن الذي خلقني قبل أن توجد هذه النار ؟ لا بد
إذن من أن يكون هناك خالق سواها ، وموجد غيرها أوجدني كما
أوجدها . وخلقني كما خلقها .

— ولكنك يابني لست الموجد لها . بل هي موجودة هنا وفي
كل بيت . لم تخمد في ليل أو نهار ، منذ مئات السنين ، فهي موجودة قبل
وجودك ، ومشتعلة قبل خلقك . . .

مابه — هبها موجودة قبل آلاف السنين . فهل وجدت بنفسها
أم أوجدها موجد ؟ وعلى فرض أنها وجدت بنفسها فانه يكفي أن
تدعوها دون وقود . حتى تنطفئ وتذوب ، وتصبح رمادا تذروه الرياح
بوذخشان — يرتعد لشدة وقع الكلام في نفسه ، وخوفا على ولده
من النار ، أن تحمل به نقيمتها . أو تصيبه بسوء ، ثم انتصب واقفا ور كع ثم
جعل النار قبلته ، وأخذ يتراجع إلى الوراء . وولده خلف ظهره يسير
بدفعه ، وكلما صدر عن النار أصوات الشرر ، وثب من مكانه فزعا وظنه
صوت النعمة . ينبعث على ولده ، وظل في انحنائه وتراجعته حتى خرج
من بيت النار . ثم سقط على الأرض في شبه إغماء . وجلس ولده مابه ،
بجواره يمرضه ويدلكه ، فنظر أبوه إليه بعد ان استفاق قليلا وقال :

أى بنى . هانحن أولاء قد بعدنا عن بيت النار وسلطان الالهه ،
فحدثنى بدخيلة نفسك ، وحقيقة أمرک ، فقد خفت عليك سلطانها
داخل دارها . والآن تستطيع أن تحدثنى بما أهمك .

ما به — لقد أهمنى والله يآبت أن أعيش فى نطاق من الحرس
واقضى أن لا أجاب على ما أسأل . حا كيتك طفلا . واقتديت
بك ناشئا . وأسلمت قيادى يافعا ، فلما تفتحت عينى على ما حولى سألت
نفسى ما هذه الأجراس الداوية ، ولمن تدق ومن تنادى فلم أجب .
ثم سألتك عن ذلك . فغمغمت مرة ، وتمتت أخرى ، وتصامت ثالثة ،
ثم قلت لى بعد ذلك . هذه أصوات الشياطين تعذبهم النار ، فعدت
إلى نفسى كرة أخرى متسائلا ، ولم تنبعث هذه الأصوات فى انتظام ؟
ولم كانت دقاتها موزونة محدودة ، ثم عولت على الخروج لمعرفة كل
ذلك . فان أحب شىء إلى الانسان ما منع

فكنت ارتدى ثياب الخدم أحيانا ، وثوب الأكارين (١) أخرى
وأهرع إلى حيث تنبعث هذه الأصوات . فألفيت عبادا ناسكين
وأطفالا ضارعين . ونساء باقيات . وشيوخا راكعين . يقولون
مالا يقول الموبذان . ويعرفون مالا يعرفه كسرى أنوشروان ، فامتزج
قلبى بحبهم ، وخالط دى معتقداتهم ، وعرفت أخطاء المجوس وأوهامهم

وأصل النار وحققتها، وقوامها ونهايتها . فأدركت مجافاتها . وبغضى
لها وقطانها

بوذخشان — فزعا — لا تجهر بهذا يا بني لئلا تسمعنا . . .
مابه — يواصل كلامه — ثم حاولت مضاعفة الارصاد وتكثير
الحراس ، فنجحت في حرمان جسمي من الخروج والاتصال بهؤلاء
الملائكة الأبرار ، ولكن روعي كانت تطوف بهم . وتهتف بتعاليمهم .
وتهم بذكرهم

بوذخشان — جازعا . . . وبعد

مابه — وبعد فلن أعود الى الجهالة ، وإن أعفر جبهتي في تراب
الخطب . وإنما سأسجد لرب الفرس وخالق العرب

نهض (بوذخشان) مهموما . وبات ليلته محزونا . وولى وجهه في
الصبح شطر النار . فوقف عندها خاشعا ، ورفع يده ضارعا . وطلب منها
هداية ولده . وتوفيقه الى طريق الموبدان كما كان ، ثم خرج الى ردهة
منزله ، وجمع خدامه وحراسه ، وأمرهم أن يشددوا على ولده الرقابة .
وأن يضيقوا عليه مساربه ، وأن يضعوا الحديد في رجله عند الاقتضاء .
وقد كان الذي أمر به . فلم يعد ما به يرى في الكنيسة عابدا أو مصليا .
ولا دارسا أو مستمعا . ولا مستفسرا أو مناقشا . حتى أهم أمره جماعة
الرهبان . وطال تفكيرهم فيه فقال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره
أرأيت أننا خسرنا بغياب مابه قتي قويا وشابا ذكيا

بطرس - خسرتنا فرداً ككل فرد من هؤلاء الذين بذلنا لهم من
أنفسنا لسعادتهم، ثم راحوا بلا أوبة ولا رجوع

بولس - انه وحققك ليس واحداً من هؤلاء المجوس الذين
يتظاهرون بالاعتناع، وهم بينهم وبين أنفسهم يقولون انا على آثار آباءنا
لمقتدون. ولاتنس أنه ابن حاكم القرية. وأنه كان قطينا للنار، وأن
دخوله في دين اليسوع فتح مبین

إذن ما السبيل اليه. وقد علمت ان أباه قد حبسه لا يخرج من داره
ولا يتصل بنا. فلماذا لا تتصل به

بطرس - وكيف . . .

بولس - على بتياب الخدم. أو أردية الا كارين حتى استطيع
أن أخالس الحراس. وأتصل به. وعندها يفعل الرب ما يشاء ويختار

* * *

وفي منزل الحاكم (بوذخشان) التقت عين التلميذ مابه بعين الراهب
بولس، في غفلة الخدم، فكاد يطير من السرور، لولا أنه تجلد واتأد
وتقدم أمام أستاذه مثقلاً بقيوده إلى حجرته الخاصة. وهناك التقى التلميذ
الطاهر نفسه بين أحضان أستاذه يعانقه، ويقبل منه كل ما اتصل اليه
شفته، ثم ابتدره قائلاً

أرأيت كيف جرت على عقيدة اليسوع، من تضيق وسجن واغلال

وكيف فقدت مكاتي . وسلطاني وهيتي . ولكن ذلك لا يساوي شيئا
مذكورا في سبيل راحة ضميري ، فان راحة الضمير هي الهناءة وهي
السعادة وهي نعيم الدنيا وجنة الآخرة

بولس — يضم راحتيه ويرفعهما الى السماء ويقول

سيرعاك الرب في السماء . وسيمدك بالروح القدس الذي نزل على
يسوع المسيح ، ثم ضمها الى جبهته وأطرق ، فقطع مابه صمته وقال

— أين أصل هذا الدين يا أبتاه

— بولس — في الشام ياقتي

مابه — استحلقتك بمن تحب وتقدس ، اذا قدمكم من الشام ركب
أن تؤذوني به ، فاني أريد السفر فرارا من عبدة النار ، وحبنا في العقيدة
التي وهبت لها قلبي ونفسي

بولس — سيوافينا بعد يومين ركب من الشام، فمضى قضا حواججهم
وأرادوا الرجعة إلى بلادهم آذنتك بذلك ، ثم استأذن وخرج من حيث
أتى ، وبعد سبعة أيام وافاه مرة أخرى ، فالفاه حائرا قلعا ، فهمس في أذنه
قائلا . بارك لك الرب في السماء ، وأذن في الافراج عنك غدا في قافلة
من نصارى الشام ، فاستعد للسفر في مطلع الفجر

وظلعت شمس النهار على هذه القافلة وهي في طريقها الى بيت المقدس
وبين أفرادها مابه طليقا من القيود حرا من العبودية والرق .

وكان اليوم أحدا، وقد أخذت الناس تلي نداء النواقيس في أشكال غير منتظمة، هذا شيخ قوست ظهره السنون يدب على عصاه، وخلفه زوجته قد انثنت بدورها تسير على أقدام السلحفاة. وأولادهما حولهما يظلاهما بروح العطف والاشفاق، ويستبطنهما على مضض يمازجه الصبر والتجلد. وذاك شاب في مطالع العمر مشرق المحيا لامع الجبين يتبادل هو وزوجته أحاديث الهوى. ويهامسها صدى الأمانى العذاب.. وتلك أرملة تسير مطرقة كأنها تبحث عن فقيد، أو تسبح في ظلام دامس. وكلها أمعن في السير مدت يدها عن يمين وشمال. كأنها تبحث عن صخرة النجاة. حتى اذا لم تصب شيئا نظرت وراءها وأهابت بولديها الصغيرين. ليكونا تحت جناحها تدرا بمرحهما عاديات الوجوم، وتبدد باشرهما سحائب الحزن الحليك.

وهؤلاء صبية جمعتهم روابط الجوار، وأقضتهم وحشة المنازل يمازحون ويتبادلون. ويتفاخرون فيتدافعون ثم يتصافون

وهناك عند المذبح وقف الاسقف الاكبر بيردته الحريرية البيضاء المترامية الذبول، تحت تاج من القزموشى بالذهب، والصليب مشرع في يده، حتى وقف بين عينيه. وسحائب البخور تنعقد وتنفرد هائمة في سماء الكنيسة. والشموع في صفين منتظمين. كأنها فرقة الشرف وعلى جانبيه عقدان. من الصبية كأنهم لؤلؤ منشور. أضفت عليهم

أردية الشام الناصعة نورا فوق نور . وأسبغت عليهم أو شحة السدانة (١)
 الغالية جمالا فوق جمال . والمصلون في اختلاف أزيائهم وأسنانهم
 وأجناسهم وعواطفهم ، قد نسوا كل شيء ، وشغلوا بشيء واحد ذلك هو
 الصلاة . فكنت تراهم في وقفهم واطراقهم كأنهم التماثيل ، لولا تساقط
 الدموع وتتابع الزفرات ، أو مذنبون يتلى عليهم حكم الاعداء بين شرود
 وذهول . لولا عبيق المسك . وتراقص الاضواء . وتاج الاسقف
 واختفاء وجه الجلال . ثم تسمعهم بعد ذلك يرددون الأناشيد العذبة .
 والألحان الشادية . في لحن منظم . ومقطع متناسب . ومقياس محدود
 وجرس موزون . فينسون وجودهم ليسبحوا في عالم الأرواح . ويتركون
 أشباحهم ليتعلقوا بأسباب الفلاح . حتى اذا وصلوا الى نهاية المزمور
 وهبطوا إلى عالم الحقيقة ، وعادوا إلى أماكنهم . أخذ الاسقف الأكبر
 يقرب أوراقا في يده ، فتهبط عينه بين شقيها ، ثم تعود فترتفع ثم تهبط
 ثم تعود باحثا فيها عن فصل معين ، فلها أدركه أخذ يقول .

يا سعدكم يا فقراء لان لكم ملكوت الرب .. يا سعدكم يا جعانيين
 لانكم ستشبعون .. يا ويلكم يا أغنياء لانكم نلتم عزكم .. يا ويلكم يا شبعانيين
 لانكم ستجوعون ، فاللي عنده تويين يدي اللي معندوش . لان دخول
 الجمل في خرم الابرة أسهل من دخول الغني في ملكوت الرب (٢) ،
 قال الاسقف هذا وأخذ بعضهم ينظر إلى أزياء بعض . والفرحة

تجول في أعين الفقراء . لقرههم من ملكوت السماء . فأنقذ الأغنياء
أنفسهم من النظرات الشامتة ، وراحوا يقربونها من أسباب الجنة
بالتزاحم حول صندوق الصدقة يقذفونه بالدرهم والدنانير

ولم يكن الإنجيل على ما فيه من تاريخ ودراسة ، وعظات ومكارم
يحمل في نظر الاسقف ، إلا آيات الاحسان والصدقة والتخلي عن فضة
الدنيا وذهبها ، يرددها في أيام الآحاد . وفي المناسبات الدينية والأعياد
حتى سئم بعض الأغنياء الصلاة في كنيسة القيامة (١) خاف هذا
الاسقف . وأخذ الفقراء ينظر بعضهم إلى بعض ، وكل منهم يظن أن
الاسقف يخص غيره بالبر والصدقة . دون أن يتحدث في ذلك إلا إلى
نفسه ، ثقة منهم بمقام الاسقف الأكبر ، ورضاء بالفقر ، ورغبة وحبا
في ملكوت السماء الذي وعد به يسوع المسيح

واستيقظ أهل أورشليم (٢) يوما على صوت أجراس حزينة .
ثم علموا أن أسقفهم قد انتقل إلى الدار الآخرة فزحفوا مثني وجماعات
إلى كنيسة القيامة ليودعوه إلى المقر الأخير

وما أن اشتعلت الشموع ، وارتفعت سحب البخور . وتعالق
الاصوات بألحان المزامير ، حتى وقف فيهم ذلك الفتى المديد القامة
العريض المنكب . المتناسب التقاسيم . والذي كانوا يشهدونه دائما في

(١) قد تكون هذه الكنيسة أقدم الكنائس . وقد بنيت في المكان الذي يزعمون أن المسيح

قد صلب فيه . (٢) القدس اليوم

ركاب الفقيده . فظنوه تلميذا أسيفا يودع أستاذه بكلمة ، أو صديقا
عزيفا سيرثي صديقه بعبارة . أو تابعا أمينا فاض به الحزن وبرح به
الأسى ، فانتصب يلقي على خطبه دمعة سخينه ، أو زفرة حارة ، ولكن
ما أشد دهشتهم حين سمعوه يسمه بالخيانة ، ويصفه بالجشع . وينعته
بالانانية وحب الذات ، فكادت تمزقه نظراتهم . ويحرقه غيظه ،
فصاح به أحد الشبان حانقا :

من أنت حتى تصف والد الجميع ، ومربي الكل . وأستاذ المسيحية
بمثل هذا القول الذي تقول ،

أنا يا سيدى مابه المجوسى . خاصمت قومى فى الله ، وحرمت نفسى
عطف الأمومة وحنان الأبوة من أجله . وزهدت فى وطنى ، ورغبت
عن ثروتى الطائلة فى سيده . . كنت مجوسيا أعبد النار . وتقدمت
فيها حتى وصلت إلى درجة القطين . ثم أدركت أن عبادة النار سفه
فى العقل وتزوير عليه . فاتصلت بقساوسة النصارى (بجى) (١)
فشفونى من مرض القلق ، وأبرأونى من علة الخيرة . وأمدونى بما
ارتاحت له نفسى ، وسكن له روعى . وهامت فى سمائه روحى ، فعلم
والدى بذلك . وحاول هدايتى ففشل . فأحاطنى بالرقباء . وحرمنى
مغادرة المنزل وأغلنى بمقامع (٢) الحديد . فتمررت مع إحدى القوافل .
إنقاذا لنفسى ومناشدة لحرىتى . وراحة لبالى . وغذاء لروحى ، ثم سألت
الغادين والرائحين . عن أفضل أهل هذا الدين علما فقبل أسقف هذه

(١) قرية مابه من إقليم أصفهان (٢) الأغلال .

الكنيسة المسيحية بينكم الآن . فدخلت في خدمته لا تعلم منه ، وأصلي معه . فما سمعت إلا آيات الاحسان والصدقة . ولا رأيت إلا اكتناز الأموال لنفسه ، بينما ضجر الأغنياء ، وما انتفع الفقراء .

الأغنياء يتغامزون ! . . . والفقراء ينظر بعضهم إلى بعض ويتساءلون . . .

فأين علمه من عمله . وأين مقامه من حقيقته . وأين المسيحية من مسيحيته . وأين الأمانة من أمانته ، وأين هو مما يأمر الناس به ، وإلا فكيف أترك عبادة النار إلى عبادة المال وكيف . . .

الشباب يقاطعه قائلا .

لعلك حانق لبخله عليك وحدك

مابه — ها هو ذا جناز ضم أغلبية أورشليم ، والفقراء بينهم كثير . فليعرض من ناله من مال الاحسان شيء ، وليكذبني من أصابه منها سهم ، ولا تنس اني لو كنت من طلاب المال ، لكان لي من ثروة أبي ماهو خير وأكثر من أموال الصدقات ، وليكني ضحيتها قربانا لعقيدتي

أصوات — أطلعنا إذن على مكان كنوزه وإلا كنت كاذبا

الفقراء — أطلعنا وحدنا فهي أموالنا وحقوقنا الموهوبة .

الأغنياء — وكيف ذلك وهي فلذات ثرواتنا . وتراث أبنائنا

— ضوضاء وجلبة

طار الخبر إلى المدينة وطاف بها ، فجاءت بقيتها في ذرارها
 وخدمها لتتأكد من الخبر المفاجيء .

واشتدت الضوضاء والجلبة ، وكادت المشادة بين الفقراء والاغنياء
 تؤدي إلى مذبحه هائلة ، لولا أن وقف مابه مرة أخرى وقال

نحن في بيت الرب فيجب أن نحترم قدسيته . وأن نجل بيته ، ويجب
 أن نعرف أن هذه الأموال بذلت من أجل الله ومن أجل عياله
 الفقراء . فهم ذووها وأصحابها ، ولا يد لغنى ولا سلطان له عليها ، فلنعرفها
 مكانا وعددا . ولنقف دون اقتراب أحد منها ، حتى إذا استخلفنا أسقفا
 آخر قام يوزعها بين الفقراء بما يرى حتى تنفذ
 الشاب — هذا لو صح ماتدعيه

مابه — دونكم والكنز ، على أن تلتخبوا أفراداً يكونون من
 أقراكم عوداً . وأعظمكم نفسا . وأكثركم أمانة ، حتى يقوموا على
 حراسته ويسلموه إلى خليفة الفقيد ، ليقوم بتوزيعه على مستحقيه

وفي بيت فسيح خرب . وعلى باب حجرة مظلمة رطبة ، تنبعث منها
 رائحة كريهة ، انتثر في أرجائها بعض أوراق صفراء جافة . لا يستر
 أرضها إلا ضئيل السعف ، ولا يزين جوانبها شيء من جمال أو نقش
 وقف مابه ينادى بحراس الكنز ليوزعهم حوله ، وليقفوا دون مطامع
 الناس وهجومهم عليه . وبعد أن أحكم دركهم ولمس منهم عزة النفس

وقوة الجسم . حفر في مكانه قليلا ، ثم دفع أغطية من خرق بالية
وسعف متفرق . وأغصان برتقال جافة ، ثم سمخ لمن أراد رؤية الكنز
في قلاله السبع جماعات جماعات ، وهم بين مأخوذ بيريقي الذهب والفضة
وبين حائق على عمل هذا الرجل

فثارت ثأرتهم على جثته ، فأوثقوها بحبل طويل ليتمكن الجميع
من الاشتراك في مهاتته وسحبوها على الأرض تفرى جلده وتمزق
أهابه ، ثم حملوها على صليب ليجهزوا على ما بقي منها ، ثم أخذوا
يرجمونها بالحجارة حتى تطايرت أشلاء ومزقا في كل مكان . طعاما
للحداة وأفلاذا لجوارح الطير وحيوانات الجبال

ثم استخلفوا عليهم أسقفا آخر يقال له بطرس ، وملكوه أموال
الكنز يوزعها على مستحقها ، وتلذذ عليه مابه وأخذ عنه مدة
غير طويلة :

وبينما مابه يمشى في أفنية أرشليم وإذا بالشاب الذي كان يناضله
يوم موت الأسقف يستوقفه قائلا

نعم بالك

مابه — وسعدت أيامك

يوحنا — كيف حالك يامابه

مابه — حمدا للرب في السماء

يوحنا - ألا من كنز جديد ؟

ما به - لا واليسوع الحى ، انه خير رجل يصلى لله ، زاهدا فى
نعيم الحياة ، يقوم الليل ويدارس بالنهار ، ويؤدى حق اليتيم والمسكين
طاهر اليد ، عف الجيب نظيف النفس .

يوحنا - لعل فيما أخذ به سلفه عظة له

ما به - فى الحق انه عابد بطبعه متقشف بفطرته

يوحنا - اعلمك لهذا تحبه

ما به - بل أعبده

يوحنا - كأنك تركت عبادة النار إلى عبادة الأجسام ؟

ما به - باسمأ - يالك من ذكور العبادة لله ، ولسكنى فى الواقع
أحبه حبا جما لورعه وتقواه .

ثم أطرق ما به طويلا ، فقطع يوشع عليه اطرافه قائلا

ما يحزنك يا ما به ؟؟ أيحزنك أنك غريب ؟ وهل نال واحد من أبناء
البلاد من الحظوة والمكانة بين الناس - بعد الأسقف - ما نلته أنت ؟

ما به - لا يحزنى شىء من ذلك فأنا الذى آثرت الغربة والبعث
عن الأهل ، على عبادة النار وإنما يحزنى أن الرجل يشكو داء دفيننا
وأخشى على حياته . بل أخشى أن نفقده فنفقده التقي والورع . .

يوحنا - لا كان الذى تقول

مابه - هذا ما هو كائن

ثم تصالحا وانصرف كل الى وجهته التي قصد

دخل مابه على الأسقف الأكبر بطرس وهو يتلمس صوته .
ويتسمع أنفاسه ، ثم وقف عند قدمه لكثرة العواد . وعينه تذرعه .
طولا وعرضا . وقلبه مودع بين جناحي الخوف من العاقبة المحتومة .
والرجاء في الشفاء القريب أو البعيد ، ثم جلس حيث هو واقف وضم
راحتيه إلى بعضهما ، ثم ادناهما من جبينه وراح يصلى لأستاذه ومربيه
ويدعو الرب أن يخفف عنه ما نزل به ، وأن يدنى منه يوم شفائه ؛
ولكن المنية المحتومة كانت تجثم عند الأبواب في انتظار انصراف
الزائرين ..

وما عاد الزائرون إلى منازلهم . وكانهم أمل وضراعة في الشفاء .
حتى دنا مابه القوي من رأس أستاذه ، وانحنى عليه يخاطبه بشفة
مرتعشة . وينظر اليه بعين غريقة في الدمع والاسى ، ويحنو عليه بقلب
واجف يفيض بالحب والحنان . وما أغلى دموع الجبابرة الأقوياء .
وأحر زفرائهم عند الخطوب ، وأشد هم جلدأ على احتمال الكوارث . لولا
أن الفتى العملاق كانت تسكنه روح عملاقة . ونفس حساسة .
وعاطفة جياشه مرهفة . لم تؤثر فيها قسوة المجوس . ولم يدهنها طابع
الفرس . فأشفق المريض على عاطفة تلميذه تحترق . وأنفاسه يشم منها

رايحة الشواء . فامسك بيده وقال

أتكره ريحاني وراحتي . وهناتي وسعادتي . أتجزع من لقاء الرب
في علياء السماء ، غدا سنجتمع . وقريبا سنلتقي .. فلم يجبه مابه بغير الدموع
تأرجح في عينه كالزئبق . وبغير شفة تتمرغ فوق راحته . فتستوعبها
لثما وتقبيلها . ثم غالب أعصابه وحزمها ثم قال

لقد احببتك حيا لم أحبه لاحد قبلك ، فالي من تكلني وقد حضرك
ماترى من أمر الله ، وإلى من توصى بي وبم تأمرني . فقال له
أى بنى والله لا أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه . فقد هلك
الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل يدعى
ابراهيم . وهو على ما كنت عليه ، فالحق به . إذا قضى الله على بقضائه

* * *

هذا مابه سليل المجد . وريبب النعمة . يقود بقراته ونعاجه إلى
الحقل كأي راع أو زارع . وهو بهذا هانيء سعيد . يسبح الله في
طلعة الشمس باسمه للكون . ناشرة ذراتها الذهبية عليه ، زافرة
بالدفء والحرارة ، تطهر الأرض وتبعث الحياة والنماء . ويعبد الله
ويقدسه كلما أدار نظره في ذلك المحيط السندسي الفاتن تشقه جداول
الماء ناصعة كصفائح الفضة . متعرجة كالافعوان . تقوم على حراستها
صفوف الأشجار تتأود في يد النسيم . ومواكب النخيل ، تميد في ملتقى
الرياح . قد شدت إليها زمر الأبقار ، وطوائف الابل ، تطوف بها وفود

الغنم وادعة هادئة . وتغرد فوقها أسراب الطيور صادحة شادية
كل هذا حوله ، جعل من الحقل معبداً ، ومن أيام الاسبوع جميعا
يوم (أحد) شأن القلب العامر بالايان . والنفس الجياشة بحب الله
وعبادته وتقديسه

احتبي مابه يوماً تحت نخيلات كان يساقى عليها (١) وخلفه بقراته
وشويهاته ، يستدكر مسقط رأسه ، ومطارح صباه ، وحنوأيته ، ووجد
أمه وفراره بدينه وحرته . . . وتطوف حوله ذكريات الاساقفه
الصالحين وقضاء نحبهم جميعا بين يديه ، فقطع صاحبه لوقا حبل
تفكيره عليه وقال له

نعم باللك يامابه

مابه — نعمت وسعدت

لوقا — مالك منفردا مهموما

مابه — لاشيء . . غير أنى أندب حظى وأنعى سعادتى .

لوقا — ألسنت هائنا فى حياتك ، سعيدا بمزروعاتك وبقراتك

مابه — ليست هذه هى السعادة عندى . ولكنها قد تكون

طريقا للسعادة . وإنما السعادة فى أن أسكن إلى رجل يغذى نفسى

ويربى روحى .

لوقا — ومن فى القرية أكثر سعادة منك بهذا ؟ وما رأينا

(١) يعمل لخدمتها ببعض ثمارها

(الأب) الصالح أكثر حفاوة بأحد من حفاوته بك وحبه لك . حتى

كنت في مكان الحسد من بعض المقرين إليه .

ما به — وهذا مكان الألم . وموقع الخطب ..

لوقا — لست أفهم ماتقول يا ما به

ما به — ليس هذا الرجل الصالح والأب العالم . بأول من رأيت

فقد كنت بأورشليم تلميذا للأسقف بطرس ، فلما حضرته الوفاة أوصى

ني إلى الرجل الصالح (ميشان) بالموصل ، فألفيته خير خلف لخير

سلف . ولكنه والحزن يمزق قلبي لم تطل حياته معي ، وفارق الدنيا

مأسوفا عليه من جميع عارفي فضله وتقواه ، وكان قد أوصاني قبل وفاته

باللحاق بالأب الصالح « عيضا ، في بلدة نصيين . فكان في مكان

صاحبه علما وتقوى . ولكنني لم أمتع به إلا قليلا . حتى وافته منيته .

فقرحت كبدي وفاته . وهدمت خطبه . وكان قد أوصاني أن الحق

ببلدتنا هذه وأكون في خدمة هذا الرجل الثبت الزاهد . ويظهر أن

النحس الذي يطاردني في كل مكان . والرزة الذي آلى على نفسه أن

يصاحبني ليعكر على صفو سعادتي في كل بلدة — سينشب أظفاره

بحياة هذا الرجل أيضا ، فهذا الفضاء الواسع أضيق في عيني من سم

الخياط . وهذه الطبيعة الضاحكة . أقبح في نظري من جهة القرد .

وهذه السعادة التي تعاودني حيناً بعد حين . قد ذبلت ورددتها وخفتت

أنفاسها . وبهت شعاعها ولا أدري ماذا أصنع .

لوقا — وماذا يهمك من هذا كله مادامت لك هذه البقرات السمان
والنعاج البضة . تتناسل وتلد ، ومادام ظل ثرائك يمتد . وفي نعمتك
يتقدم

مابه — ما أكثر شغف سكان هذه البلاد بالمال والعتاد والثروة
لوقا — وماذا في الدنيا أجمل مما ذكرت

مابه — باسمها — فيها راحة الضمير لما يعتقد الانسان ، وسعادة
الروح وهدوؤها بما يؤمن ، واطمئناتها إلى الجزاء العادل في الآخرة
لوقا — إنك رجل طيب . ومن يدري الصالح من الطالح .
والمقبول عند الرب والمطرود من رضوانه وجنته

مابه — المقبول بلا شك هو الذي يحاسب نفسه كل يوم عما
فعل . ويتوخى بعمله رضا الله وراحة الضمير ، والمطرود هو ذلك
الذي يلبي نداء شيطانه . أو يضع حبله على غارب الهوى والمصادفات

* * *

خيم المساء بجناحي غراب أسحم . وراح مابه يقود بقراته ونعاجه
إلى حظيرته . غارقا في بحر من الحزن . هائما في سحابة من الألم المبرح .
لا يكاد يرى ما حوله . أو يحس ما يجري بين الناس كأنه صورة لفلاح
يقود سوائمه في معرض القرى البائسة

وما كاد يودعها حظائرها . حتى ولى مسرعا إلى دار الأب الصالح
 « أشعيا » ، فالقى تلاميذه ينشدون فيه الرجاء ، وأقربائه ، بين راج
 وجازع . وآمل وهالع . فأمرهم المريض جميعا بالخروج ، واستبقى لديه
 الشاب المهاجر ، الطريد المؤمن ، مابه ، وابتدره مازحا

كيف حال بقراتك ونخيلاتك وكيف تعيش بين هؤلاء الذين
 يعبدون الذهب والفضة .

مابه — فدتك نفسى وما تملك يا أبتاه . . كيف صحتك أنت
 وحياتك الغالية

أشعيا — بخير والحمد لله . . أدن منى قليلا فدنا منه مابه . . فهمس
 فى أذنه وقال له وهو يتسم

الرب ينادىنى وسألنى الليلة نداه

فصعق مابه من وقع الخبر، ودار به المكان الذى هو فيه . ولكن
 ما وقع نظره عليه ، حتى البى وجهه شارقا بالشحوب ، طافحا بالبشر ،
 فخالجه مزيج من الشك واليقين فى صحة هذا الذى يقول . . ولكنه لم
 يتعود من أستاذه الكذب . بل لعله مازح . ولم لا يكون هذا الشحوب
 دنو الموت وهذا البشر هو بشر القرب من لقاء الله ؟ ولم أضيع الوقت
 فى تفسير الظواهر ، وشرح المعلومات ، وتتبع القرآن !! فالأسأله قبل
 موته ان صح . . إلى من يكلمنى ومن يوصى بى

كل هذه الخواج كانت تدور في رأس مابه ، وهو شاخص في وجه
 أستاذه ، مضطرب على صحته وحياته ، حتى قطعها عاطفة الحرص على دينه
 ومستقبله ، والرغبة في مواصلة الدراسة ، ومجالسة الصالحين . فحدث
 أستاذه قائلا ، وإذا كان قد حضر ك من أمر الله ماترى فبمن توصى بي
 والى من تكلمنى

فهمس أشعيا في أذنه بما همس ، فسر مابه لوصيته ، وآنس الصحة
 في حديثه ورجا أن لا يموت قريبا

استيقظ مابه في الصباح مذعورا ، واستفاق متفلتا من رؤيا مزعجة
 فمسح على عينيه وتمطى ، ثم تثاب ثم اعتمد رأسه بيده وراح يحاق
 بذاكرته فوق حجرة أستاذه ، ويتمثله منهكا من المرض ، ولكنه باش ،
 به شحوب من الآلام ، ولكنه فرح لآمر مجهول قد يكون لقاء الله ، ثم
 عاد بها إلى تصوير هذه البلاد التي تحدث عنها بالأمس ، وفيها بعث نبى
 كريم . وإذا كان هذا مبلغ الحب لهؤلاء جميعا لاخلاقهم وزهادتهم
 وعلهم وليسوا برسل ولا أنبياء ، فكيف يكون ما عليه هذا الرسول
 المبعوث ، وبينما هو يسترسل ويجرى ويتردد بين الآمة الماضية وأمانيه
 العذبة المستقبلية - قطعت عليه أصوات النواقيس الحزينة جبل
 تفكيره ، فادرك أن القس قد فارق هذه الدار ، فخلقت عليه سحابة من
 الآسى وشاعت في جسمه موجات الحزن ، فقام وصلى على روح الفقيد
 ماشاء أن يصلى .

- ٣ -

يردد الفضاء أصوات التكبيرة عاصفة، ويحمل الاثير ألحان الترحيب
شادية . ويفد الناس على اختلاف أعمارهم من كل صوب في سرعة
خاطفة . كأنها أجسام من المعادن جاذبها تيار المغنطيس . أو سهام
تتراسل جميعها صوب هدف واحد . وأمام هذا كله وقف مشكم
اليهودى على ربوة عالية يشرف على هذا التزاحم هازنا بأحلام أهل
المدينة . ساخرا من حركة غدوهم ورواحهم في خفة الطروب . ولسعة
المشبوب ، ثم راح يقلب كفا على كف ويحدث نفسه وهو في طريقه
إلى حقله قائلا

ما لهؤلاء الاجلاف قد جن جنونهم . وطارت عقولهم . فنى
الشيخ وقاره . والطفل ملعبه وداره . والشاب دثاره . والكهل أبله
وأبقاره . والعروس خدرها . والعذراء عزارها حتى اختلط الحابل
بالتابل والحاسر بالدارع . ولا أدري لهذا من سبب . فسمعه ابن عمه
عن بعد فقال له

ما خطبك يا ابن العم

مشكم - لعن الله بنى قبيلة (١) والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على
رجل قدم عليهم من مكة ، يزعمون أنه نبي

(١) أم الاوس والخزرج

سلام - نبي بعد نبي الله موسى الكليم !؟ وإذا كان هذا صحيحا
فمبهات أن يكون مثله

مشكم - هذا ما زعم هؤلاء المفاليك (١)

سلام - لقد أصابهم والله ما أصاب النصارى

مشكم - وأين هذا مما يقول أنصار عيسى فيه . . إنهم يقولون
عنه أنه كان يشفي المرضى ويبرىء الأكمه والأرص ، أما هذا فكثير
من حوله من ذوى العاهات . وما سمعنا أنهم يطمعون فى شيء من
هذا عنده

سلام - وهل تظن أنه هو الذى حدثنا عنه الخبر دانيال ؟

مشكم - لا بد أن يكون هو وهذا أوانه ومكانه

وبيناهما كذلك فى نقاش وحوار . وإذا بمن يسقط عندهما من
فوق نخلة . ففرعا لسقوطه المفاجيء . ثم تقدم اليهما فى هزة المحموم .
ورعدة المسوس لامن شدة الخوف . ولكن من وقع ما سمع
وقال لمشكم :

- ما صفة هذا الرجل بربك ؟

فغضب سلام منه وحنق عليه لتركه عمله . وتوجه اليه بكلمة قاسية
وقال له :

- مالك وهذا ؟ أقبل على عملك الذى منه تأكل ومن أجله ابتعتك !

(١) اجمع مفلوك وهو المخنون

مابه — مطئظاً رأسه ، ما أردت إلا أن أتثبت بما يقول ابن عمك
سلام — إذهب إلى عمك في النخيل أيها الأحمق . فهذا ما يصح
أن تثبت منه ، إذهب . إذهب قبل فوات الوقت . بل قبل أن أنزل
بك نازلة تسكنك المقابر أو تجعلك طعاما للوحوش

مابه — بين الجزع والفرح — سأفعل . . سأفعل يا سيدي
ثم صعد مابه إلى نخلته التي فيها يعمل . بعد أن ترك أذنه عند
المتحدثين ، ووعيه وانتباهه في مجلسهما ، فكان كلما تحدثا صمت صوت
القدم في يده ، وتظاهر بالانتقال إلى جهة أخرى ، فاسترعى ذلك انتباه
اليهوديان فصاحا به مرات إلى العمل . إلى العمل . ومابه لا يستطيع
حمل أعصابه على أكثر من المحاولات التي يقوم بها ، متظاهرا بالعمل
وهو في ذلك يستذكر العلامات التي حدثه عنها أسقف (عمورية)
ليتحقق وجودها في هذا الذي تحدث عنه مشكم لابن عمه سلام ، ثم
أخذ يتحدث نفسه قائلاً سأغدو إليه الليلة مستخفياً ، وسأعرض عليه شيئاً
أزعم أنه من الصدقة حتى أرى هل يأكل منه أو يمسك عنه ؛ فان امتنع
عن الأكل منها وتحققت العلامة الأولى . جربت الثانية وهكذا حتى
إذا كان هو النبي المبعوث بدين إبراهيم ، والذي حدثني عنه الأسقف
كان عليه أن يفك عقالي ويطلق أمرى .

خيئت ظلمة المساء على الكون . ولفته بلفائف الصمت والحدوء .

وراح مابه يتسلل في جوفه تسلل الأفعى بين الحشائش والمروج .
ويتلمس الطرق الخالية الى (قباء) حتى لا تقع عين أحد عليه . فيشى
به إلى سيده وقد أودع حجره أرتالا من البلح ، يستودعها سره الذي
قصد به معرفة النبي ، وجعل منها مسبر النبوة كما يحمل الطبيب معه
سماعته لمعرفة قوة القلب وعدد دقاته ، وكلما انتهى من درب ودخل إلى
آخر حمد الله على السلامة فيما مضى ، والستر فيما بقى ، ولم يكن يعرف
نزل النبي وأصحابه الذي نزلوا فيه ، فتقيد بحبل الذاهبين اليه وسيل
المتامفين عليه ، وما أن أطل (مابه) برأسه على رجل يحيط به أصحابه
إحاطة الأنجم بالقمر ، والسديم (١) بالشمس ، يظرفون إذا تكلم .
ويتسابقون إلى أداء طلبته إذا طلب ، ويتنافسون في إرضائه ومحبته ،
ويتبركون بوضوئه ، ويسالونه في اغضائه وحياء ، . . . كل هذا
(ومابه) يجاهد نفسه أن يهوى على يده فيقبلها ، ويكافح نفسه أن تقع
على قدمه فيلثمها ، حتى وصل إلى حالة من الفرح والسرور لم يستطع
معها إلا أن يخرج عن صمته فابتدر الرسول قائلا :

السلام عليك يا رسول الله

محمد — وعليك سلام الله يا عبد الله

مابه — إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء
ذو حاجة ، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ..

(١) هو التنور الأبيض الذي يحيط بالشمس صباحا .

ثم قر به اليه ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :
 — كلوا ما من الله عليكم

قدم ما به مامعه ووقف يرتقب ثمرة تجاربه ، كذلك الصياد الذي
 يلقى بشصه في الماء ثم ينظر ما يعلق به ، فلما رأى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قد أمسك عن الأكل منها . طار قلبه في صدره وشاعت
 في جسمه موجات الفرح والسرور ، ثم عاد إلى دار سيده . وكأنه ملك
 ثلث الدنيا ، وأمسى يصلي ويدعو الله أن يحقق بقية الآمال

وفي مثل هذه الساعة التي ذهب فيها إلى رسول الله ، كان في طريقه
 اليه للمرة الثانية ما كنا كالشبح ، هائما كالطيف . وقد خلق من ردائه
 مخللة لكمية من التمر الجاف ، وجعل منها مخبرا للعلامة الثانية لنبوة محمد .
 وما ان أدرك محله وأصحابه ، حتى ألقاهم يصلون في مثل رهبة الليل
 وحفيف الملائكة . . .

فزاد ذلك من وقع الاسلام في نفسه ، ومحبه له ، فجلس خلفهم
 يضم ركبتيه إلى صدره ، كأنما يربط على فؤاده أن يفرض شدة الجزل .
 حتى اذا أتموا صلاتهم ، بسط رداه بين يدي رسول الله وقال :

— انى قد رأيتك يا رسول الله لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية قد
 أكرمتك بها فهل لك في قبولها

فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل منها ، وأمر أصحابه
 بالأكل معه

ثم عاد مابه إلى بيت سيده يعدو من الفرح . ويثب من السرور .
 ثم آوى إلى فراشه تطوف برأسه أجمل الصور وأحلى الأمانى .
 ثم انقطع عن رسول الله أياما ، فكان كل يوم يمر به دون أن يرى
 رسول الله ، كأنما ينتزع فلذة من كبده . أو وجبة من دمه . حتى إذا
 غاب سيده في شأن له . ذهب ليطالع وجه محمد عليه السلام . فألفاه في
 جنازة أحد أصحابه فابتدره قائلا :

— السلام عليك يا رسول الله

— وعليك سلام الله يا عبد الله

ثم جلس مابه قليلا وأطرق صامتا ، ثم قام فظنه الناس منصرفا .
 ولكنه استدبر رسول الله ، حتى إذا اشتغل بالحديث مع أحد
 الصحابة . أخذ يمد أنامله صوب رسول الله في حذر ، ثم أخذ يطل بين
 كتفيه في رهبة . فأحس رسول برغبته ، وأدرك سر حبه وبغيته ، فأرخى
 لردائه فأنحسر عن ظهره ، فبدى خاتم النبوة بين كتفيه فطار صواب
 مابه من الفرح ، وراكب عليه يقطعه لثما ويستوعبه تقييلا . ويمرغ
 وجهه عليه ، ويمسح صفحته بخديه ، ويغسله بعبراته ، ويقذفه بزفراته ،
 ورسول الله ضاحك السن ، باسم المحيا مما يفعل ، ثم قال له

تحول مابه

فقام مابه وأدار وجهه ليمسح دمه ، ثم جلس بين يدي الرسول

وقال :

— بأبي أنت وأمي يا رسول الله .

رسول الله — ما بك يا مابه ؟

ثم التفت الى أصحابه وقال اسمعوا أخاكم

مابه — كنت تليذا لأسقف (عمورية) وكان منى في مكان

الثقة وموضع المحبة . وحينما حضره من أمر الله ما حضر

استوصيته فأوصاني بالهجرة الى بلاد العرب . وقال لى انه قد أطل

زماننا نبي مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب

ويهاجر الى أرض بين حرتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل

الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة فان استطعت أن تلحق

به فافعل ، ثم مات وغيب ، ثم مكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث ، ثم

مر بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احملوني معكم ولكم بقراتى وغنيماتى

فقالوا لك منا ذلك ، أفأعطيتهم إياها وحملوني معهم . حتى إذا بلغوا

بى وادى القرى . تهامسوا ثم تضاحكوا ثم قدموني سلعة الى رجل

يهودى . فابتاعنى له عبدا . فكنت عنده ثم أخذت أقلب وجوه النخل

وأبحث عن الأرض السوداء تكثف بلدتنا ، ورجوت أن يكون البلد

الذى وصف لى صاحبي ، ولكنه لم يقر فى روعى شىء تطمئن له

نفسى . حتى جاء لسيدى ابن عم له ، فابتاعنى منه وحملنى الى المدينة

فوالله مارأيتها حتى عرفتها بصفة صاحبي الذى وصف ، فأقمت بها . حتى

سمعت البشير بمقدمك . فرحت أغشى مجلسك . حتى عرفت أنك

البشير النذير المبعوث بدين ابراهيم ، عرفتك وقد امسكت عن الصدقة .
وأكلت الهدية . وشخص بين كنتفك خاتم النبوة يشهد أنك
الرسول الأمين .

* * *

استقر رسول الله في المدينة ورسخت فيها أقدام الدعوة
الإسلامية . وتأصلت جذورها في الأرض وطالت أغصانها في السماء
وجهد رسول الله لغزوة (بدر) ثم تبحش (لأحد) وعاد منها (ومابيه)
مشغول بمهنة سيده مكدود بأعمال الرق ، مرهق بمطامع اليهود
واقصادياتهم ، حتى جاء يوما الى مجلس الرسول وأصحابه مكدودا متعبا
مضمحلا مرهقا . فقال له رسول الله :

— كاتب (١) يا سلمان

سلمان — سأفعل يا رسول الله

ثم غاب سلمان وعاد ، وأخبر النبي قائلا :

— لقد كتبت يا رسول الله على ثلثمائة نخلة أحيها بالفقير (٢)

وأربعين أوقية من ذهب

رسول الله — أعيئوا أخاكم فيما كاتب عليه صاحبه حتى تعتقوا

(١) المكتوبة هي العتق بعمل أو جعل من العبد لسيد

(٢) اتبع فقر بضعتين وهي الحفرة يزرع فيها سلالة النمل الصغير

رقبته من الأسر .. وأنت يا سلمان اذهب فققر (١) لها جميعا حتى إذا فرغت فأتني أكن أنا واضعها يدي .

فذهب سلمان الى حقل اليهودى يقوم بحفر الآبار لزراعة الفسائل (٢) وتفرق الصحابة الى مزارعهم مثنى وفردى ، ليحملوا الى أخيهم سهامهم فيما كاتب عليه ، ولم يلبث سلمان فى حقله طويلا حتى استقبل هذا يحمل ثلاثين . فسيله ، ووافاه ذلك بعشرين .. وأقبل عليه ثالث بعشر ، ورابع بأكثر أو أقل ، حتى تكاملت عدتها ثلاثمائة وان لم تكن سوى السطر الأول من صك حرите ، فذهب الى رسول الله يستقدمه للغراس . فوافاه صلى الله عليه وسلم ، وأخذ سلمان يناوله واحدة بعد واحدة وهو يغرس بيده ويقول ، باسم الله وعلى بركته . حتى انتهى منها جميعا . وبات سلمان ليلته يدعو الله بالتمو والبركة . واستيقظ مبكرا ليقرأ على نضرتها تباشير النجاح ، أو يشهد على صفرتها أمارات الحية .

ثم وقف دونها ينظر إليها بعين الرجاء تارة ، كما ينظر الوالد الى أطفاله الصغار يدرجون فى حجر منزله . وبعين الخوف تارة أخرى كلما ذكر أن كل واحدة منها تمثل شهرا فى حياة حرите وتكون لبنة فى بناء سعادته . ثم تعاوده الطمأنينة كلما أحس أن ذبول الامس

(١) احفر (٢) جمع فسيلة وهى السلالة المعروفة (بالشتل)

أخذت تنسحب . وأن حياة جديدة تدب في جسم الجميع ، وتسرى
حاملة على التهافت ، مطاردة للاعياء والموات .

كرت الليالي ومرت الأيام . وسلمان يتفقد فسائله . ويزداد
بمرور الأيام ثقة في حياتها ونموها . حتى استغلظت يوما على سوقها .
وتحدثت نضارتها بين عروقها ، فأدرك أنه وصل الى نصف الطريق .
وكتب له نصف الحياة الهائلة .

ثم ترك سلمان مزرعته في حراسة بعض الأصدقاء من جيرانه ، وذهب
الى رسول الله يبشره بنجاح فسائله

فابتدر رسول الله قائلا

— السلام عليك يا رسول الله

محمد — وعليك السلام يا عبد الله

سلمان — لقد هزنى الشوق إليك ، وبرح بي البعد عنك . ودفعت

بي أبناء الفسائل نحوك .

محمد — وملخطبها الآن ؟

سلمان — والذي نفس محمد بيده ما ماتت منها واحدة . ولم يبق

بعد ذلك إلا الذهب ندفعه ، فأخرج رسول الله من ثنايا ثيابه مثل

البيضة من الذهب وقال

خذ هذه فأدها بما عليك

سلمان — وأين تقع هذه يا رسول الله بما على

محمد — خذها فان الله سيؤدى عنك .

أخذها سلمان وراح بنظر إليها معتبطا و يقلبها في يده جذلان فرحا .
فقطع عليه تأملاته اعرابي كان يرى فيه صديقا له ، فقال : ماذا معك ؟
سلمان — معى قدوم العبودية . ومفتاح الحرية . وتعويذة الحياة
الرفيعة ، وباب السعادة المنشودة

الأعرابي — وإلى أين ذاهب يا هذا ؟

سلمان — الى اليهودى أدفع بها اليه ، بقية ما كانت عليه

الأعرابي — يا لكم معشر المسلمين من قلوب سليمة ! كيف تصنع
لليهودى بالأمس كل هذه الثروة الطائلة تتألف من ثلثمائة نخلة أو
تزيد ، زاهية نضرة قوية ، ثم تأتى اليوم لتعطيه هذا الذهب ؟ لو
كنتم فى الناس قلة ، أو كنتم بين الناس ضعفاء ، لما كان هناك مندوحة
الى ذلك . ولكنكم الآن فى منعة وقوة . فكيف تنزل على ارادة هذا
اليهودى الجشع !

سلمان — لقد أخذنا عن رسول الله أن يكون لأهل الكتاب

مالنا ، وعليهم ما علينا ، ماداموا يؤدون ما عليهم من الجزية

الأعرابي — هؤلاء اليهود قد حلوا ببلادنا ضيوفا فقراء معدمين ،
فأضحوا اليوم خزنة ثروتها . وأصحاب القروض فيها . حتى ضاقت
الحياة بالعرب . وشربوا كأس الفقر المريرة . فأتم تضيفون بمثل
عملكم ثروة الى ثروتهم . وجاها الى جاههم جديدا

سلمان - هؤلاء قد اكتسبوا ما اكتسبوا بكدهم . واختزنوا ما اختزنوا بجهدهم ، فكيف يغضبون مثل هذا الحق ، سيما وقد أصبحوا أهل ذمة والرسول يقول من آذى ذميا فقد آذاني .. والاسلام لا يعرف الغدر أو الخيانة ...

ثم ذهب سلمان الى اليهودى . وأخذ يزن له من الذهب أوقية بعد أخرى ، حتى وفى الأربعين . فاعتقه اليهودى . وعاد سلمان بشباب جديد هو شباب الايمان ، وثوب جديد هو ثوب الحرية . ثم شهد بعد ذلك مع النبي جميع غزواته بطلا مقداما . وعلما خفاقا . وسيفا من سيوف الله لم ينثن ولم يقل ولم يغمد . حتى أغمدته التراب .

الله أكبر

اتتمر الرسول وأصحابه لابتكار وسيلة للدعوة
الى الصلاة ، فاقترح رفع راية أو اشعال نار أو
نداء مناد أو نفخا في بوق أو دق ناقوس ، حتى
هداهم الله الى الاذان ثم الى القبلة التي رضىها
الرسول وفي هذا الفصل ما بصور كل ذلك

ومن أحسن قولاً بمن دعا إلى الله وعمل صالحاً
وقال اني من المسلمين (١) قرآن كريم .

بلال بن رباح فوق أعلى منزل بالمدينة يقرب وجهه - سجراً -
في السماء ، كأنه يعد نجومها ، أو يستعرض معالمها ، أو يقبين الخيط
الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . تلمع أسنانه ناصعة في
الظلام ، وتشع عيناه قوية في ضوء الكواكب . ولم يلبث في تأملاته
إلا قليلاً حتى استطال عنقه في الفضاء . وامتلات أوداجه بالهواء ،
ثم أطلقها قوية اقشعرت لجرسها الأبدان . واهتزت لوقعها القلوب ،
وعنت لرهبتها الجباه ، ثم سرت لدعوها نشوة في الدماء ، وشاع لندائها
اشعاع في الروح . ثم جاذبت الأبدان فحذبتها . وغالبتها فغلبتها ، ثم
سارت بها إلى حيث تلي نداء الكريم في بيت الكرم ، حول مائدة
رحمته ورضوانه سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد
إلا بقدر ما يقدم من العمل الصالح . والعمل الصالح يرفعه

بل هي صاعقة هوت في حى اليهود ، فزلزت بنيانهم وأطارت لبهم ،
وبركان نار على غير انتظار نخلع قلوبهم ، وأذاب اصطبارهم . فراحوا
يصغون إلى بقية عبارته في يأس وقنوط

تلك هي . الله أكبر . الله أكبر

أول نداء لله يشق طريقه إلى سمع الزمن ، ويأخذ مكانه في وعي

الخلود ، شعارا لعقيدة الاسلام ، ونشيدا للمسلمين على عمر الايام .

* * *

! كتمل عقد القوم في بيت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، وكان يشغلهم جميعا تفكير عميق ، وان اختلفت مظاهر هذا التفكير بين أطرافه إلى الارض ، أو عيبت بمؤخر اللحي أو تخطيط بعود ، أو مناقشة حادة خافته ، أو نظرة في الفضاء سابحة ، حتى قطع عليهم كل هذا دخول أبي ياسر بن أخطب وبادأهم بقوله :

— علام اتفقتم ؟

أصوات — لم تتفق على شيء بعد ، حتى تشار كنا الرأي أبو ياسر — تعلمون أن بيننا وبين محمد عهدا ، وقد قبلناه طواعية أو كرها ، وأدخل على نفوسنا بعض الطمأنينة صلواته نحو المقدس . وكنا ننتظر أن يتم علينا طمأنينتنا فيتخذ من الشبور (١) أداة للدعوة إلى صلواته ولكنه فاجتنا — سحرا — بنداء تقشعر له الأبدان ، ويدعو إلى الرهبة ، وقد والله حرمني وقعه في نفسى حلاوة النوم أياما طوالا بل انى لأعتقد أن صوت بلال أضحى أمضى الأسلحة في دعوة محمد .

سلسلة بن برهام — لقد كنت أعلم انه ياتر مع قومه منذ أيام ، على اختيار أداة للدعوة الى صلواته ، بدل مرور العبد الأسود (٢) بين الأحياء

(١) بفتح الشين وتشديد الباء ويسمى القبع بضم القاف واسكان الباء ، وهو يوق يدهى به

للصلاة عند اليهود (٢) يقصد بلالا

يضرب الأرض بعصاه ويقول ، الصلاة جامعة ، فعرض عليه أن ترفع
في مواقيت الصلاة راية ، حتى إذا رآها الناس آذن بعضهم بعضا ، فلم
يرض ذلك ، ثم عرض عليه ان يشعل نارا حتى اذا رآها الناس آذنوا
فقال هذه للمجوس ، فعرض عليهم أمر الشبور حتى إذا سمع الناس
صوته آذنوا ، فقال هو من أمر يهود

سلسلة . — يواصل حديثه — ثم عرض عليه الناقوس (١)
فسكت ، فوقع في نفس أصحابه أن في سكوته رضاء . فراحوا يبحثون عن
خشبة كبيرة ، وتسامع الناس ذلك ، ولم يلبثوا طويلا حتى فوجئوا بما
سمعنا من هذا العبد بلال ، حقيقة إن أذانه على جذم حائط قد أراح
الأطفال من رؤيته وجهه ، يتجول في الأحياء يدعو للصلاة ، وأين كان
جمال صوته أضحى خطرا على مشاعر الكبار ، ولقد علمت إن هذا
النداء صورة رؤيا رآها حدث من أحداث الانصار يدعى عبد الله
ابن زيد

أصوات — أضغاث أحلام

أصوات أخرى — رؤيا كاذبة

سلسلة — من يستطيع القول بذلك ، بعد أن ادعى عمر أنه رأى
مثلهما ولف لفه عبد الله بن أبي بكر ، وحكاها أربعة عشر من الانصار
كلهم يزعمون ذلك ، لا تدري أهذا صحيح أم هوس الاسلام قد
لاث عقولهم

(١) وكان اذ ذلك لا بعد وخشبة كبيرة يضرب عليها بخشبة صغيرة

سلام بن مشكم - قل من يستطيع ان يقول هذا لمحمد وأصحابه
بعد ما بلغوا من قوة الشأن ، ثم ساد المجلس صمت طويل . لم يقطعه
عليهم إلا دخول كعب بن الأشرف محتقن الوجه ، مبهور الأنفاس
ثم بادروهم قائلاً

هل علمتم ما حدث ؟

أصوات - علمنا نداء بلال بن رباح بن حمامة

كعب - ليس هذا فحسب ، ولكن محمداً نوى اليوم بأصحابه لصلاة
الظهر (١) جهة بيت المقدس ، فصلى بهم ركعتين ، ثم استدار جهة الكعبة
وصلى الركعتين الأخيرتين ، فخرت أن صلى النساء في مكان الرجال
والرجال في مكان النساء ، ثم أخبر أصحابه بعد الصلاة أنه بهذا قد
أمر (٢) ففرح بعض أصحابه بذلك لأن قريشاً كانت تعيرهم باستدبار
الكعبة وهي قبلة إبراهيم ، فأتروا في ذلك ، بعد أن جانب قبلتنا
وكان في ذلك نخر كبير لنا

مالك بن الصيف - ليست نخراً لنا وحدنا ، بل نخر للنصارى معنا
كعب - حسن فلنؤلبهم عليه بدورهم ، ليشاركونا عبء الموقف
ويساهموا معنا في مناهضته

أبو ياسر - وأين هم نصارى يثرب وما حولها ، ولا يوجد بين
ظهرانينا منهم إلا قليل

(١) كان ذلك في المسجد المعروف الى الآن بمسجد القبلتين بالمدينة (٢) وفي هذا نزلت آية
و قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ،

كعب — فانرسل برسلنا الى نصارى نجران والشام وغيرهم لنشعل
الفتنة حوله من كل ناحية

سلام — وماقوام هذه الفتنة ولا نملك مثل مايملك من قوة الملك
وعزة السلطان

كعب — ان الكثيرين من أصحابه ما يزالون على الفترة الأولى لم
تستسخ عقولهم تعاليمه بعد ، وان اثاره الشبهه في وجوههم ووجهه
يترك أثره الكبير في نفوسهم وعقائدهم

حي بن أخطب — لقد قمنا بهذا الدور ففسرنا في المعركة أفضل
أخبارنا كالحصين الذي سمي نفسه الآن عبد الله بن سلام ثم عبد الله
ابن صوريا وميمون بن يامين ومخيريق الثرى المعروف

أبو ياسر — سوف لانيأس ، وما أدراانا لعل محمدا قد خسر بعض
أصحابه بما أثناه من شبهات ، وعلى أى حال فسنجرب كل أسلحتنا التي
نملك ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

رسول الله في المسجد حي مهيب وأصحابه حوله لا يحدثونه مغضين
إلا اذا تحدث ، ولا يسألونه متأدبين إلا اذا استسأل ، وأمامهم زعماء
اليهود وأخبارهم ، بين جامع لاطراف ثيابه ، وماسح لمؤخر لحيته ،
يرمقونه بنظرات الحقد تعشيها ابتسامات مصنوعة ، وتطلف في العبارة

خادع ، ثم انطلق فجأة صوت أبي ياسر بن حيي يقول :

يا محمد : ما ولاك عن قبلك التي كنت عليها (١) وأنت تزعم انك على
ملة ابراهيم ودينه (٢) فارجع الى قبلك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك
عبد الله بن زيد — قد كنتم بالأمس القريب تقولون (يخالفنا
محمد ويقبض قبلتنا واننا على هدى وإلا لما صلى الى قبلتنا) فكيف يتفق
ما قلتموه بالأمس وما تقولونه اليوم ، على ان قبلة ابراهيم في الكعبة
التي بناها ودعا الناس الى حجها ، وقد صلى رسول الله أخيرا اليها بأمر
من ربه حملة اليه جبريل

سلام — آه من جبريل (٣) لما يزل يتابعنا ويطاردنا ، كأنه موكل
بضايقتنا دون العالمين

أبو ياسر — دعونا من ابراهيم وقبلته ، أليس بيت المقدس هو
قبلة موسى ويعقوب ، بل ما من نبي بعث منذ هبط آدم ، إلا جعل قبلته
صخرة بيت المقدس

بلال — وقد صلى رسول الله الى بيت المقدس ستة عشر شهراً
ليشارك هؤلاء الانبياء قبلتهم ثم ولي وجهه شطر الكعبة قبلة ابراهيم

(١) هذا بناء على مغالطتهم في ان بيت المقدس هو قبلة ابراهيم عليه السلام

(٢) وفي هذا نزلة آية سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل انه
المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . .

(٣) يعتقد اليهود ان جبريل هو عدوهم الاول ومهم نزلت آية (من كان عدواً لله
وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين

واسماعيل ليكون قد صلى الى قبلي الانبياء جميعا ، وهذا مصداق ما في
التوراة من وصفه بصاحب القبلتين . . أليس هذا في كتابكم
يهدىكم الله

سلام - يتمم بكلمات غير مسموعة ، أغلب الظن انها تحمل
السخرية بيلال لسواده

أبو ياسر بن أخطب - يا محمد . أخبرنا عن أربع نسائك عنهن
فان فعلت اتبعناك وصدقناك وآمنا بك

رسول الله - عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أخبرتمكم بذلك
لتصدقنني

اصوات - نعم

رسول الله - اسألوا عما بدالكم

أبو ياسر بن أخطب - كيف يشبه الولد أمه

رسول الله - أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل ان

نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما غلبت

صاحبتها فان لها الشبه

اصوات - اللهم نعم

نابه بن صوريا - اخبرنا كيف نومك

رسول الله - أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون

أنا معاشر الانبياء تنام اعيننا ولا تنام قلوبنا

سلام - أخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه

رسول الله - انشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون
ان كان أحب الطعام والشراب اليه البان الأبل ولحومها، وانه اشتكى
شكوى فعافاه الله، فحرم على نفسه لحوم الابل والبانها

اصوات - نعم

حي بن اخطب - أخبرنا عن الروح

رسول الله - انشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون
جبريل الذي يأتيني

اصوات - نعم

حي - ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك يأتي بالشدة ويسفك
الدماء، ولو لا ذلك لاتبعناك، فسكت صلى الله عليه وسلم ثم أغمض بصره
وتفصد عرقه، واغلب الظن أنه مشتغل بالوحي، ثم عاد كحاله وقال
« من كان عدوا لجبريل فإنه نزل على قلبك بأذن الله مصدقا لما بين
يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسوله
وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ، ثم قال أنى انشدكم بالله
وانشدكم بما أنزل عليكم، وانشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم
المن والسلوى، وانشدكم بالذى ايبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من
فرعون وعمله، إلا أخبرتموني، هل تجدون فيما أنزل الله عليكم ان تؤمنوا
بمحمد . فان كنتم لاتجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين

الرشد من الغي ، فأدعوكم الى الله والى نبيه
 أخطب — حتى تجيب على هذا أيضا يا محمد ، . . اذا كان الله قد
 خلق هذا الخلق فمن الذى خلق الله
 فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظهرت علامات الغضب
 فى وجهه . ثم غابت عيناه تحت محاجرهم وتصبب عرقه ، ثم زفر
 واستفاق من غشيته وقال

قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد
 حي — صف لنا يا محمد كيف خلقه وكيف ذراعه وكيف عضده
 وهنا غضب رسول الله غضبة امتقع لها لونه حتى خشى اليهود عاقبة
 ذلك ، فنظر بعضهم الى بعض نظرة الاستعانة بحيلة للخروج من هذا
 الضيق . ولم يكن لهم من مخرج إلا حلم رسول الله الذى أخذته غيبوبته
 المعتادة ثم عاد اليهم وقال

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ،
 والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

* * *

وسمع المصلون خلف رسول الله فى المسجد وقع حوافر خيل
 تصك وجه الأرض ، وتعلك خطامها فى ازين ، وترسل صهيلها يدوى فى
 الفضاء رخيا متواصلا ، والصيدان خلفهم فى زحام كثيف وحشد سميك
 يستطلعون أمر هؤلاء الغرباء عن يثرب ما خطبهم ، وقد دخلوا لابلوون

على شيء ميممين مسجد النبي ، وقد لفحت الشمس وجوههم وكستهم
 سنابك الخيل بماثيره أثناء الطريق سربالا من التراب
 وما إن أتم رسول الله صلاة العصر، حتى تقدم إليه أبو عبيدة وقال
 بالباب وفد من نصارى نجران يستأذن في اللقاء
 رسول الله - مامعناه - دعوهم يدخلون
 وجلس القوم قبالة الرسول . وراح رهبانهم وعلماؤهم يسرحون
 النظر في وجهه صلى الله عليه وسلم ويمعنون . ويقابلون ما يعلنون من
 أوصافه عليه ، ثم ابتدره أبو حارثة بن علقمة قائلا
 ماذا يقول دينكم في عيسى يا محمد
 رسول الله - رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه
 دون ان يكون له والد من البشر
 أبو حارثة - بل هو الله الذي أبرا الأكمه والأبرص وأحيا الموتي
 العاقب - بل هو ولده الذي نفخ فيه من روحه
 ارطاه - أو قل هو ثالث ثلاثة الآب والابن والروح القدس
 والكل إله واحد ، فسكت صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم أخذ يتلو عليهم
 من أول سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية فكانت تنزيها لله عما
 قالوه ، واثباتا لتوحيده وبقائه وقيوميته ، وأنه رب كل هؤلاء الرسل
 ومنزل كل هذه الكتب التي جاءوا بها من التوراة والانجيل والقرآن
 ثم ذكر قصة أم مريم ، وما كان يأتيها من رزق في المحراب وما حباها

الله به من الفضل والقبول الحسن ، ثم اصطفاه الله لها وتطهيره اياها ،
ثم تبشير الله لها بعيسى ووصفه بأنه (وجهها في الدنيا والآخرة ويكلم
الناس في المهدي وكهلا ومن الصالحين) وأنه قال اني اخلق لكم من
الطين كهية الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بأذني ، وأبرى. الاكمه
والارض واحيي الموتى بأذني ، وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في
بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) الى ان تلا على مدعى
بنوته قوله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم
قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) الى ان قال
(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا
وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله
على الكاذبين) ثم تلا (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا
وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا
أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

وما سمع النصارى ذلك القصص العجيب والتهديد بالمباهلة ، حتى
قال الآيهم دعنا يا رسول الله ننظر أمرنا ثم نأتيك

ثم ضم شملهم مجلس واحد ساده صمت ملجم لم يشق عليهم سكونه
إلا صوت العاقب يقول

أى عبد المسيح . . ماذا ترى

عبد المسيح - والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمدا مرسل
ولقد جاءكم بالقول الفصل في خبر صاحبكم، ولقد علمتم من كتب
الاقدمين أنه مالا عن قوم نبياً قط، وبقي كبيرهم أو نبت صغيرهم، فان
كنتم قد ابديتهم الالفه لدينكم، والاقامة على ما أنتم عليه من القول في
صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم

خويلد - ما الذي تقول؟ لقد كنت معنا بخير، فما الذي جد

اوس - لقد سحره محمد كما سحر من آمنوا به وصدقوه

عبد المسيح - إذن فلا عنوه ان كنتم تأنفون كلامي

وتأبون نصحي

الايهم - لا ملاءنة ولا مباهلة فسنادعه حتى تغادره

الحرث - يا خيبة المسعى اظننا اننا سنستطيع ان نضرب اليهودية

به ونجلى أصحابها عن يثرب حتى لا يهدأ لهم عيش في مقام. فاذا به يريد

ان يحرفنا مع اليهود في مجرى واحد

اوس - وماذا فعل اليهود بدسائسهم ومكرهم معه

الحرث - أغلب الظن أنهم لا ينجحون مع مثل هذا الرجل

الذي كاد يسحرنا جميعا، لولا بقية من إيماننا بعهيدتنا

أبو حارثة بن علقمة - خففوا من غلوائكم على هذا الرجل،

فوالله انه ليس بساحر ولا كذاب، وأنه ما قال إلا حقا

ألا ترون ان دينه يؤمن برسالة موسى، كما يؤمن ببعثة عيسى كما

يدعو إلى الاسلام ، والرسالة التي تدعو الى كل ذلك وتؤمن به رسالة
 أوسع دائرة وأعم نفعا . ألم تقرأوا في الكتاب المقدس بشاره
 اليسوع في ظهور (البارقليطس (١) من بعده . . ؟
 الايهم — محتدا — ولماذا لا تؤمن به أنت فطاطاً أبو حارثة رأسه
 طويلًا ثم قال :

انه لا ينعنى من الايمان به إلا هؤلاء القوم (٢) الذين شرفونا
 ومولونا وأكرمونا فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى

* * *

وعلى بعد فراسخ من يثرب في طريق الشام وفي ظل شجيرات
 أحنت افنانها على الطريق موثلا ورحمة ، جلس ركب النصارى ومعهم
 أبو عبيدة بن الجراح الذي اختاره رسول الله حكما بينهم . يستروحون
 في الظل ويستجمعون من وعشاء السفر ، فهبت على الجميع نسيمات شذية
 اهتزت لها الأغصان ومادت . وصفقت لها الأوراق وتاهت . وسقت
 أضيافها راحا وراحة . وسرت بين أعطافهم نعيما وهناءة . وتمشت بين
 رتبهم تلتطف الظمأ وتشفي الضنا . وتغرى بالانغفاء . لولا صوت شاد
 قد انبعث فجأة من خلال البستان يردد قول الشاعر :

سبحوا الله شروق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

(١) كلمة عبرية معناها احمد .

(٢) يقصد قيصر الروم وحكومته .

عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال ربنا بضلال
 وله هودت يهود ودانت كل دين اذا ذكرت عضال
 وله شمس النصارى وقاموا كل عيد لربهم واحتفال
 وله الراهب الحبيس تراه رهن بؤس وكان ناعم بال
 فبتسم أبو عبيدة وقال اتدرون لمن هذا الشعر

أبو حارثة بن علقمة - لا وأبيك

أبو عبيدة - هذا لقيس بن أبي أنس الراهب المعروف
 كوز بن علقمة - معتدلا مبهوتا - وهل أسلم ذلك الرجل الذي
 رددت الآفاق انباء ورعه وتقواه ؟

أبو عبيده - وحسن اسلامه وهذا شعره ينبيك عنه

فأطرق كوز بن علقمة طويلا وراح يعبث بعود كان في يده ..
 فقال العاقب على عبدالمسيح واسر في اذنه كلاما أغلب الظن أنه تصوير
 لما فهم من شعور كوز بن علقمة نحو الاسلام

وماطلعت شمس اليوم التالي لهذا الحديث ، حتى كان العاقب على
 باب حارثة بن علقمة يخنبره باختفاء أخيه كوز بن علقمة ويقدم له
 قحفة كتب عليها قبل رحيله (آمنت بمحمد و كفرت بنصرانية
 الروم) .

طراز الحرف

كما أخرجت قريش رسول الله وأصحابه من
ديارهم وأموالهم ، أراد أن يستدرجها إليه ،
فأرسل من يتحسس أخبار قوافلهم ذاهبة من
الطائف إلى الشام ليستولى عليها ، فتفارق قريش مكة
لتخليصها فيقتص منها بما صنعت ولكن الله أراد
بما سبق به قضاؤه وكان ما بصوره هذا الفصل .

• إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد
 بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم محمد رسول الله •
 وجلس صلى الله عليه وسلم قبالة المحراب بعد صلاة العشاء يتلو
 جصة من القرآن في صوت خفيت عميق . ثم أسند ذقنه الى راحته .
 ولعله كان يستعرض ما وصل إليه الحال بعد عام أو أكثر في يثرب
 من بناء المسجد والمنازل وحضور الفواطم ، وسلوك الأصحاب مسالك
 الرزق المختلفة ، واصدار التشريع تنظيما للعلاقات وتأمينا للعقائد
 والحريات . وتحصينا ليثرب مما عساه يحدث من الغارات . ثم اطفأ
 نار الفتن يشعلها اليهود في مختلف المناسبات . وترويع قريش في تجارتها
 تلاحقها سرايا في ذهابها إلى الشام وعودتها منها . . ولكن السهم
 الذي قصد به إلى افساح قريش طريق الدعوة إلى الاسلام بمكة دون
 حرب أو قتال — لم يصب هدفه بعد ، صلفا من قريش واستهانة بالقوة
 التي رأوها تلاحق غيرهم ، ظنا منهم أن ذلك كل ما يملكه الاسلام من
 عدة وعدد

نعم قد استطاعت هذه السرايا ان تخضد شوكة اليهود وكانوا قد
 بدأوا يتنمرون للمسلمين ويتربصون بهم الدوائر ، واستطاع المسلمون
 كذلك أن يحالفوا بني مدج فسيطروا بذلك على قسم كبير من طريق
 مكة — الشام لا تجد فيه قريش من يأويها أو يحميها

ولكن ذلك ليس شيئا مذكورا بجوار ما يصبوا اليه المسلمون من إنقاذ
 أهلهم وأقاربهم واصهارهم وعشيرتهم من حماة الوثنية التي تردوا فيها عنتا

وكبرياء . وتطهير بيت الله من الأوثان تعبد من دونه . وترتكب حولها الموبقات والحماقات باسم العبادة والقربى إلى الألهة ، ورجوعهم إلى مكة حجر الكعبة العزيزة ومشوى الآباء والجدود ، ومدرج الصبا واليقاع ، ومطاف الذكريات الكريمة . . .

أجل . . لعل هذا أو بعضه ما كان يدور بخلد رسول الله إذ ذاك أو ما كان يحدث به نفسه . . ولعله لم يقطع عليه جبل تفكيره إلا وقوف زيد بن حارثة خلفه ينتظر السماح له بالحديث ، فأوما له النبي ، فقال على أذنه الشريفة وأسر له بكلمات استدعى رسول الله على إثرها عثمان بن عفان فوفا مسرعا ، ثم تنحى به إلى زاوية في المسجد . . وعلى ضوء أحد المصاييح المتهافئة المدلاة من جيد أحد الاعمدة ، أخرج عثمان قطعة من قماش الصوف ، ثم كتب عليها ما أملاه الرسول عليه ، ثم استدعى بعد ذلك عبد الله بن جحش ودس في يده هذا الخطاب ثم أسر له بكلمات وشد على يده كمن يشد على يد مسافر

* * *

وأمام عين ثرة من الماء تتلوى بسلاسله أخاديد (١) الرمال الصفراء ، وتوشحت حافتها بالنباتات الخضراء ، وانبعثت من جريانها وسوسة كوسوسة الحلي في يد الحسناء .

(١) جمع اخدود وهو الشق في الارض

وفي ظل نخيلات تشابكت أصولها ، وتنافرت غصونها ، وتناعست
عراجينها . وتمنطقت بمسدها (١) وعلى مسيرة يومين من يثرب
نادى عبد الله بن جحش قائد السرية في الركب : أيها القوم لقد انتهى
إلى رسول الله ان عيرا لقريش ستمر في طريقها إلى مكة فأشخصنا
إليها . وأنه قد حملني خطابا وأمرني أن لا أنظر فيه إلا بعد مسيرة يومين .
فأستطيع الآن أن أقرأه عليكم بعد ان بلغنا ما أوصاني به ، وقد يكون
فيه ما لا يرضى بكم ، فاذا كان كذلك فليصرف عنا من يريد ،
وليتابعنا من يريد ، فقد أمرني أن لا أستكره أحدا على اتباعي

ثم بسط الكتاب وتلا كلام الرسول

(إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة (٢) فترصد بها
قريشا وتعلم (٣) لنا من أخبارهم) فتعالت الأصوات .. الله أكبر ..
الله أكبر

واقف بن عبد الله — فلنستحث المطايا حتى تطوى الأرض إلى نخلة
عبد الله — صبرا يارفيق حتى نأخذ حاجتنا من الراحة ، ووجبتنا
من الماء ، ثم ساروا يستحثون الخطا يحدوهم الأمل في النصر ، ويسرى
عنهم شادي الركب يغنى بصوته الندى وهو يقول :

إلى الله وجهي والرسول ومن يقيم إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم تركنا من حميم مناصح وناصحة تبكي بدمع وتندب

(١) ليفها (٢) مكان بين مكة والطائف (٣) تعرف أخبارها

دعوت نبى غم لحقن دماهم وللحق لما لاح للناس لاحب
 أجاوبوا بحمد الله لما دعاهم الى الحق داع للنجاح فأوعبوا
 وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
 كفوجين أما منهما فموفق على الحق مهدي وفوج معذب
 طغوا وتمنوا كذبة وأذلهم عن الحق أبلّيس نخابوا وخيوا
 هرعنا الى قول النبي محمد فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
 وبينما هم فى سكرة الشعر وخمرة اللحن إذ صاح فيهم صائح

— هذه (نخلة) قد وافقكم يارفاق فلتتحسس أخبار القوم قبل

الذنو منها

وخلف أكمة (١) هناك عسكر القوم حتى لا يقع نظر احد عليهم
 وراح بعضهم يتسلق رؤس الجبال لمراقبة الطريق واكتشاف العير (٢)
 عن بعد

ثم جاء المساء ونشر الليل أجنحته الفاحمة على الفضاء . وآب الرقباء
 الى تخيمهم قبل أن تقع عيونهم على شيء ، ثم تفقد بعض القوم بعضا
 فصاح أحدهم واَعْجَبِي! كأننا فقدنا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان
 أم ماذا بنى ؟ .

أصوات — أحقا ذلك ؟

حذيفة — نعم وأبيكم

(١) صخرة كبيرة (٢) الجمال

عبد الله بن جحش — لعلمها عاد إلى يثرب ساعة أن عرفا أن
 ألا تريب على أحد ولا استكراه في البقاء أو الانصراف. وأعوذ
 بالله من كل ظن أنيم

عكاشة — ولنصطبر إلى الغد لعلمها ذهبا في بعض حاجاتها
 فضلا الطريق

ثم أشرق نور الصباح. وراحت الشمس تنشر ذوائبها على السكون
 خيوطا من الذهب. ونسيجا من الزفرات المحترقة. والآهات الممتاجة،
 وأنست جدية الموقف أمر الصاحبين المختفين
 ثم ابتدر القوم أبو حذيفة قائلا :

— نرجوا أن نلتقي القوم اليوم لقاء حارا، وأن لانعود بما عاد به
 حمزة بن عبد المطلب

عكاشة بن محسن — وماذا كان يستطيع حمزة أن يصنع، وهو في
 ثلاثين راكبا، وأبوجهل في نحو ثلاثمائة؟ على أنه كان على أهبة النزال
 معه رغم ذلك. لولا أن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهني فانصرف
 بعض القوم عن بعض

واقد بن عبد الله — وما عذر عبيدة بن الحارث في انصرافه عن
 أبي سفيان ومن معه (١) وقد كان في ستين راكبا
 أبو حذيفة — لعله قد غاب عنك أن أبا سفيان كان على رأس
 مائتين. وإن كان سعد بن أبي وقاص قد رمى بسهم ولعله أول سهم

(١) وهذه من السرايا التي أرسلها النبي أيضا قبل بدر

في الاسلام . وأغلب الظن أن رسول الله لا يريد قتال قريش إلا بعد أن يستنفذ كل الوسائل . في سبيل اقناعهم بصواب فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية في مكة بغير حرب . لقاء سلامة تجارتهم . فأخذ يفاوضهم بهذه السرايا ويهدد قوافلهم بها . والا لجيش لهم جيشا عظيما يتكافأ مع عدد المحاربين المصاحبين للقوافل ، ولكن قريشا فوتت عليه كل أهدافه واتخذت لقوافلها طرقا أخرى غير معبدة ولا معروفة ، تخلفها من هذا التهديد . ولهذا خرج رسول الله في غزوة (الابواء) حتى بلغ (ودان) يريد قريشا ، فلم يجدها ، ثم خرج إلى (بواط) يريد القافلة التي كان يقودها أبي بن خلف في نحو الفين وخمسمائة بعير فلم يجدها وخرج إلى (العشيرة) ينتظر قافلة أبي سفيان فلم يجدها عكاشة - كأنه لا بد من معركة حامية إذا التقينا بالقوم في يومنا
أبو غد .

أصوات - بلا ويب

عتبة - ولكن هبوا أكثر منا عددا وعدة ، فإذا يكون الموقف
ثم لا تنسوا أن كتاب النبي غير صريح في حربهم
عكاشة - كم من فئة قليلة غابت فئة كثيرة باذن الله
حذافة - بل كيف نحاربهم في الشهر الحرام (١)

عبد الله بن جعش - كما حاربونا وحدانا وجماعات ، وأخرجونا
من ديارنا وأبنائنا ، ونكلوا بالعبيد والمستضعفين فينا ، واستولوا على
مضائنا (٢) ومناجنا وأموالنا ، انسيتم ما فعلوه ببلال بن رباح وطامر
ابن فهيرة وأم عنيس وزهيرة ، أم نسيتم عمار بن ياسر وامه صفية
(١) روى أن ذلك كان في رجب وهو من الأشهر الحرم (٢) منازلنا

التي قتلها أبو جهل بضربة حربة في موضع العفة منها ، وما سمع القوم ذلك حتى نارت نائرتهم .

وبيناهم في هذه الحالة اذا بأحد الرقباء ينحدرها بطاكا تنحدر الصخرة من قمة الجبل ونادى

الى السلاح .. فقد دنا مصرع القوم

فاختبأ واخلف الصخور ، وأرسلوا عيونهم ضيقة صوب الفرائس تلتقى اهدابها بجواجيبها — وأيديهم قابضة على الاوتار مشرعة وسط القسي . يتربصون بالقوم الدوائر . حتى كانت القافلة على مرمى النبال فالقوهم كثرة لا قبل لقلتهم بها . فنظر بعضهم إلى بعض نظرات الحيرة والتردد ما يصنعون في مثل هذه الحال ، فقال حذيفة مغيظا من حيرتهم

والله لئن تركتم للقوم هذه الفرصة ، ليدخلن الحرم ، فيمتنعن منكم به ، ولئن قاتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام

عكاشة — لواقد بن عبد الله — هنا كبيرهم عمرو بن الحضرمي هناك ذو العمامة المطرقة . نخذ منه هدفك ، ورشه بسهمك لعله يهوى قتيلنا فصوب واقد سهمه اليه فأرداه لساعته

وما إن سقط عمرو من فوق بعيرة حتى تصايح القوم ثم تلفتوا يمينا وشمالا ، ثم راشوهم بنبل آخر أصاب البضائع فوق الاباهر ، ففروا مذعورين لهذه المفاجأة الكريهة ، عدا بعيرين وقائديهما لم يستطيعا اللحاق بركب قريش فاستولت عليهما مرية المسلمين

هبت يثرب من قبيلونها على أصوات تهزج عن بعد ، متناسقة متعده تردد قول حمزة بن عبد المطلب

إلا بالقوى للتحلم والجهد -
وللراكبينا للمظالم لم تطأ
كأننا نبطنهم ولا نبل عندنا
وأمر بأسلام فلا يقبلونه
فما برحوا حتى انتدبنا لعاوة
بأمر رسول الله أول خافق
لواء لديه النصر من ذى كرامة

وللنقد من رأى الرجال والعقل
لهم حرمان من مساوم ولا أهل
لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل
ويزل منهم مثل منزلة الهزل
لهم حيث حلوا نبتغي غاية الفضل
عليهم لواء لم يكن لاح من قبل
اله عزيز فعله أفضل الفعل

وما ان دنا الركب من أبواب يثرب ، حتى كان في استقباله الاطلاق
والشبان والشيوخ ، تحلق فوق الجميع سحابة كثيفة من التراب والنساء
فوق المنازل يزغردن على وقع الاهازيج وينشدن النشود تنهين المعروف المألوفة .
طلع البدر علينا . من ثغيات الوداع الخ .

ثم اخذ الصحابة يعانق بعضهم بعضاً ويهنئ بعضهم بعضاً ، ثم تفقد
على بن أبي طالب السرية ثم أعاد تفقدها ، ثم تراجع وامعن ، ثم قال
ابن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان .

عبدالله بن جحش — ألم يصلأ يثرب بعد .

على — بعد ؟ لا ورب الكعبة .

عبد الله — حقا ان بعض الظن اثم . . لقد ظننت انهما جاءا إلى يثرب
بعد ان علما ان لا ثريب في البقاء معنا أو الانصراف دوننا ، وعلى أى
حال فآين ذهبيا ؟ لا بد أن يكونا قد ذهبيا لبعض حاجتهما فوقما اميرين
في يد قرينش .

حذيفة — ليكون ذلك . . فان لدينا منهم أسيرين هما عثمان بن عبدالله
ابن المغيرة ، والحكم بن كيسان وبعيرين ، وكثيرا من المتاع والبضائع

ثم علم رسول الله بقتال الصحابة لقريش في الشهر الحرام فامتنع عن
تسليم الغنيمة حتى نزلت الآية : « يستلوفك عن الشهر الحرام قتال فيه
قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام
واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون
يقايلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

تسلم رسول الله عند ذلك الغنيمة وتبادل الاسرى مع قريش ، فأسلم
الحكم بن كيسان احد الاسرى على يد النبي ، وأقام بالمدينة ، وأما عثمان
بن عبد الله الاسير الثاني فقد سافر الى مكة ومات بها كافرا .

تقرير المصير

كانت بقعة مجهولة إلا لجفافة
الاعراب ، منسية إلا لقادة القوافل
أجهدهم العطش وأعوزهم الماء ، فحولتها
جبرتها حماة الرسالة ، إلى المع بقعة في
وطن الاسلام ، وصيرتها أخصب مكان
للدراة ومساجلة الازهان ، ونقطة
التحول في تاريخ الدعوة ، والحد
الفاصل بين ضعف المسلمين وقوتهم .
تلك هي (بدر) التي نسبت اليها
الغزوة المعروفة بها والتي نسميها على هذه
الصورة (تقرير المصير)

- ١ -

« إذن للذين يقاثلون بأنهم ظالموا وإن الله »
« على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من »
« ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »
قرآنه كريم

أجواء مكة تتجارب بصوت استغاثة . والناس تتدافع في طرقاتها
بالسوق والناكب صوب هذا الصوت ، غير عابئين بسلامة من يلتقونهم
في الطريق من صبية ونساء وشيوخ ، كأنهم سيل دافق يحترف ما أمامه ،
وقد ظلوا كذلك حتى الفوا أنفسهم أمام عملاق فاحم ، قد وقف على بعير
داعي الاشنار متحول الرجل ، قد قيصره من أمام وخلف ، ثم راح
يستغيث في بهر وعصبية ، ويلوح بساعديه في الفضاء وهو يقول الغوث
الغوث . . اللطيمة اللطيمة .

أصوات — ماذا دهالك؟ تحدث تحدث .

المستغيث — أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه . .
لا أرى انكم مدر كوها . . الغوث الغوث .

صوت شهيق — مدر كوها؟ الويل لابن أبي كبشة (١)
انطلقت هذه الكلمة راعدة قوية ، وانطلقت خلف أصواتها سيقان

(١) كنية كانت تطلقها قريش على رسول الله سخرية به

المئات الي منازلهم ، وتركوا ضمضم بن عمرو الغفاري ، لفضول العجائز ،
يستزيدونه من أخبار العير ، زمانا ومكانا ، وتجارة وحراسا ، وسط
مناحة من البكاء والتجيب ، على أموالهم المهتدة في الطريق
ولم يقطع عليهم عويلهم ، إلا سقوط جسم على الارض ، فالتفتوا اليه
فجأة ، فاذا بهم أمام اعرابي ملوح غليظ الشفة ، أفطس الأنف ، دقيق
الساقين ، يفتح عينيه في بطة على مشاكسة الاطفال ، يرفهون عنه ،
ازاره تارة ، وينازعون زمام ناقته تارة أخرى ، فيصعب ويصخب ، حتى
إذا لم يسمع الصخب بصق عليهم عن بعد في حدة وغضب ، ثم يتجامل
على نفسه ويحاول الوقوف ، ولكنه لا يكاد يقف حتى يأخذ في الترنح
يمينا وشمالا ، ثم لا يلبث أن يخرج من بين ثيابه شيئا يرفعه إلى فمه
أغلب الظن أنه عجوة ، فتارة يدرك ذلك ، وأخرى تلتقفها الاطفال من
يده ، فيحاول أن يجري خلفهم ، فلا تسعفه قدماه ، ولا تطاوعه ناقته ،
فيكتفى بالبهق عليهم مرة أخرى ، ثم يستوقفهم بعد ذلك ليحذرهم
في وطافة الخمر ، من أكل ما سلبوه منه ، لأنها ليست عجوة فقط ، بل
هي ذراع الهه ، كأن الهه قد أحل له أكل ذراعه دون سواه !
ثم ضاق النظارة به ذرما ، فراحوا ينهرونه ويتردون فولى عنهم
وهو يغنى

تبكرت عيرا قد أثار محمد ورجاله في غلظة فاستاقها
واحب من هذا البكاء مدامة أهوي بما ملكت بداي عناقها
خلوا البكاء على النجائب واشربوا خمرا تنسي همه من ذاقها
وكان السائر في أفنية مكة لا يقع نظره إلا على رجل يسرج جواده
حسرا . وآخر يدخل في درعه لها . وثالث يلتمس خوذة رأسه هجلا .

ورابع ينظف سيفه حذرا ، أو يختصر (١) حربته متلفتا ، وخامس
يودع أهله وولده مأخرذا . وسادس يستحث أمامه ابلا قد وهبها
للظهور (٢) أو الذبح راضيا ، وجاهر مترجمة أمام شاحذني الاسياف
يعملون نهارا وليلا في ضوء الاحطاب ، وشرائط الدخان تنبعث من
المنازل ، ثم تنعقد في سماء مكة سحابة سوداء ، تحمل رائحة الخبز زادا
للمقاتلين ممزوجة بنفثات الخوف والقلق على فلذات الاكباد ، ووفود
تتلاقى متناكرة في دروع الحديد والزررد ، بساحة المسجد تقدم القرابين
عند اقدام الالهة او تستقسم الازلام لدى الكهان ، أو تطوف مودعة
ضارعة حول البيت الحرام ، داعية لقريش بالتوفيق والنصر على محمد
وأصحابه ، وخلف هذا كله ترى الحكم بن هشام (٣) وعقبة بن أبي معيط
ينتقلان في سرعة العاصفة ، من حى الى حى ومن منزل الى منزل ،
يستحثان الزعماء ويستنهضان الشبان الى القتال ، وهما يقولان النفار . .
النفار . . النفار قبل حلول العار ، وقد ظلا كذلك حتى وقفا على رأس
أبي لهب عند الكعبة ونادياه ، الى الحرب سيد القوم
أبو لهب - سأرسل عنى العاص بن هشام بأربعة آلاف درهم قد
أفلس لى فيها

الحكم - وانت يابن خلف

أمية - انى والله كما ترى رجل مسن بدين ، لم تعد لى خفة المحاربين
ولا أقوى على لأواء السفر

الحكم - مقاطعا - ماذا تقول وأنت سيد قومك ، يتفرون

(١) يضعها فى خاصرته (٧) للركوب أو طعام المحاربين (٣) المعروف

باب جهل

بذمارك ويقبعون بمقائك ، فاذا أصرت على موقنتك . فالأولى بك أن
تستجمر كما يستجمر النساء (١)
عقبة - بل فاكتحل ...
فاحتقن وجه أمية وأشاح بيده يضرب الحـكم على وجهه : لولا ان
تراجع الحكم ... ثم قال :

فبحكم الله ... هيا فابتاعا لي أعظم بهير في هذا الوادي ، اتعلمون غدا
من الذي يستجمر ويكتحل ، ثم رجع أمية إلى الوراة قليلا ، ثم مال بصدرة
إلى الامام ، ثم اعتمد على جدار الكعبة بيده وبالأخرى على يد الحكم ،
ثم جمع كل قوته ونهض واقفا كأنه الدب يمشى على مؤخرته ثم قال :
و كيف ترحلون جميعا وتخلفون مكة متاعا سهلا لبنى بكر ، وبيننا
وبينهم من الترات (٢) ماتعلمون
سراقة بن مالك - خل عنك كنانة ، فأنا زعيم بشاراتها كفيل بمنع
غاراتها . وإني جاركم منها ، قمين بالأيحدث منها ما تكرهون

و كان الواقف بين الشعب في دريق المدينة ، ضحوة اليوم الثالث ،
يرى سحابة كثيفة من التراب تتقدم طليعة الفرسان ، تلعب تحتها صفائح
الخوذات والدروع ، ومقابض السيوف وأسنة الرماح ، لمعان الأنجم
في رقعة الليل البهيم ؛ وخلف هؤلاء الفرسان قطر الابل تتوالب

(١) يضع البخور داخل ثيابه وهي طادة نسوية عند العرب

(٢) جمع تره وهي النار

ممتابعة تحمل الرجال والازواد ، وزقاق (١) الحمر ، تتوسطها هوداج
تختدر فيها القيان (٢) وما معهم من الدفوف والزاهر ، وكأنها غابة
كثيفة تكشف عن سوقها هوج الرياح نارة ، وتختبيء في سواد التراب
نارة أخرى ، وخلف هذا كله ، جيش من العجائز تحملهم عصيهم . يحاولون
متابعة الجيش في لهفة واعياء ، وجحافل الاطفال قد تمتطقوا بالليف
واختصروا قضباناً من الجريد والحديد تشبها بالمحاربين - حتى وصلوا
كداء (٣) وعندها صاح الحكم بن هشام

هذا مكان الفراق ألا نعودوا أيها الشيوخ... وأوبوا أيها الغلمان،
فعلت اصوات بالبكاء والنحيب، وراح الحكم يتجول بقرسه ليفصل
بين المودعين والمحاربين، فكانت ساعة جازعة رهيبة، امتزجت فيها دموع
الشوق بمسارات الفراق. وآهات الحب بزفرات الأمانى. ثم وقف
الحكم يتفقد الجيش في زهو ويستعرضه في خيلاء، وما أوعن في السير
حتى تعالت الأصوات أكثر مما كانت، مزيجاً من الكلام. قام على شرحه
قلوب الأيدي وتدافع الزفرات. ثم أخذت أشباح الجيش تختفي رويداً
رويداً بين أعين غريقة في سيال من العبرات، حتى إذا لم يبق في ذيل
الافق إلا رجع خفيت لصهيل الخيل وترجيعها. عاد المودعون إلى مكة
مشدوهين كالمصرفين من جنازة عزيز، بعد أن واوه التراب، لا يكاد
يخس الواحد منهم بجوار صاحبه، لولا وقع الخفاف على وجه الارض
ولم يقطع عليهم صمتهم إلا صوت أبي لهب يحدث المطلب بن أبي
وداعة قائلاً:

(١) جمع زق وهو القرية الصغيرة (٢) يستتر فيها المغنيات (٣) مكان
على مشارف مكة.

— بالتصارييف الافدار ايصبح لابن ابي كبشة كل هذا الشأن حتى تخرج اليه قريش بكل هذا الجيش العرمرم.

— المطلب قد يكون الاهتمام بموقعه من طريق النوافل ، أكثر من الاهتمام بما وصل اليه من قوة الشأن ، على أنى أرى وحتك انه قد أمر أمره حتى لاخشي أن يتحقق الشطر الثاني من رؤيا عائكة بنت عبد المطلب (١)

أبو هب — لا تدع عقلك في يد هؤلاء الذين أصيبوا بحمى التنبؤ من بنى هائم ، لم يكفهم أن يتنبأ رجالهم حتى تنبأ نساءؤهم ، وإذا كان قد وقع شطر مما أشيع عن رؤيا عائكة . فهذا بلا شك من طريق المصافات .

المطلب — خير انى لأراها ملحة تدعو إلى الاعجاب والعجب من رجل بلغ من قوة تأثيره فى أصحابه ، أن يحارب أفراد الأسرة بعضهم بعضا ، فعتيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث . سيقاقلان ابن عمهما على ابن أبى طالب ، وعبد الكعبة (٢) يتقاتل أباه أبى بكر ، وأبو العاص بن الربيع يقاتل صهره محمد بن عبد الله ، والعباس بن عبد المطلب ينازل أخاه حمزة بن عبد المطلب ، والوليد وعزير ابنا عتبه يحاربان أخويهما أبو حنيفة ومصعب ، وشيبة بن وبيد يقاتل أخاه معمر بن الحرث (١) رأت عائكة عمه رسول الله رؤيا حضور رجل يدعو قريشا لتخليص غيرها التى تعرض لها محمد وأصحابه وان هذا سيكون سببا فى معركة كبرى بين قريش ومحمد تكون الدائرة فيها على قريش (٢) اسم عبد الرحمن بن أبى بكر قبل اسلامه وكان راميا ماهرا جاهلية واسلاما .

(٣) زوج زينب بنت رسول الله وقد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه

والجراح اليربني - كما علمت - يحارب ولده أبا عبيدة بن الجراح (١) والأود بن عبد الأسد يقاتل أخاه عبد الله ، وطامر الحضرمي يقاتل أخاه العلاء (٢) وهكذا لم يبق عندي بعد هذا من أمل في القضاء على هذا الرجل (٣)

أبو لمب - خل عنك يا هذا وهون الأمر على نفسك، فستأتي قريش فدا لأطجيب، وما مع محمد سوى حفنة من الرجال
المطلب - اني أري ما لا تري، وان سواد قريش قد لا تكون كقبيلة بهزية هذه الحفنة، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة

الظلام حالك ، واليكون ملتفع بالصمت ، والعيون غافية إلا عين علي بن أبي طالب وصاحبيه ، خرجوا تحت ستار الليل إلى ماء « بدر » للبحث عن قريش ، وهناك اختبأوا خلف أكمة ينتظرون فريستهم في اناة واصطبار، كأنهم التماثيل طوحت بها أيدي العفاء ، مشرفين من عل على البئر تنتثر على صفحاتها حبات النجوم سائلة رجراجة وثييدة ، حتى سمعوا وقع أقدام تلك الارض عن بعد، وحدثنا حائرا بين اثنين ينقاط فيه اسم أبي سفيان بالعير، وتمتزوج فيه أخبار مكة باسم الحكم بن هشام ومحمد بن عبد الله، فربت على علي كتف صاحبيه ، يتأكد يقظتهما اثلا

(١) وفيه نزلت آية - لا تجمد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو تشيرتهم، أو نكك كتب في ألوههم الايمان وأيدهم بروح منه (٢) العلاء الحضرمي من فضلاء الصحابة وقد روى في خلافة صمران الماء حال بينه وبين أعدائه فدا الله بدعاء فجمد الماء وسار فوقه كأرض صلبة (٣) يقصد محمد

يكون نسيم الليل قد دأب جنونها، ويهرب بهما إلى الامتداد لا تستغبال
القنينة، وما أن أتى أحدهما بدلوه، ووقف الثاني يرقب الطريق بعينين
حارتين في إهاب أسود، حتى انحذروا صوبهما كأنه حد الصخر من
تقمم، واستطاع أحدهما أن يفر هاربا، ووقع الثاني أسيرا فقاده إلى
المسكر المسلمين، فالفوا رسول الله يصلى، فراحوا يتوجهون إليه
بالأسئلة الآتية:

علي - ما اسمك يا غلام

الغلام - يسار مولى لعقبة بن أبي معيط

علي - ومن كان معك

يسار - أسلم غلام بنى الحجاج

الزبير - أين يوجد أبو سفيان الآن

يسار - أبو سفيان؟ لعلك تقصد قريشا

الزبير - بل أبو سفيان بالكعبة

يسار - مع غيره بالشام

سعد بن أبي وقاص - يالك من غلام خيث .. دعنا من أبي سفيان

ومكانه، وخبرنا عن عدد من معه من الأباغ والمخاربي

فتلفت يسار يمينا وشمالا في دهشة وعجب لما يلقى عليه من أمثلة لم

يفهم سرها بعد

فظن القوم أن هذا منه إمعان في المكر، فوكزه علي في خاصرته

وكزة ثنى لها في ضجر وتأوه، ثم قال له:

- انك تكتمنا أخبار أبي سفيان ومن معه، وتضلنا بحديث مخلوق

عن قريش

يسار - لست وحقك إلا راوية من روايا قريش ؟ جاءت بخيلها
ورجالها وأحباشها وقيانها ، وانها مرت بـ (مرالظهران) وذبح لها هناك
الحكم بن هشام ، وكان فيما ذبح جزور فيه حياة ، في المعسكر فما
بقي خباء من أخبثته إلا أصابه من دمه ، فتشام بتوعدى من هذا فقاموا
راجمين ، ثم وصلوا بعد ذلك الى (عسفان) وكان ان ..
فخلق سعد في وجهه منكر عليه موقفه ، ووكره وكزة أخرى
ألصقته بالأرض ، فراح يبكي ، ورأى أن يعدل موقفه ولو بالكذب
فأخذ يقول :

ان ركب أبي سفيان على مقربة من (بدر) وان معه الكثير من
الغير والتجارة .. وان معه .. ولم يكديتمها حتى كان رسول الله قد أتم
صلاته ، فأشار بيده اشارة الكف عن ايذائه ، والكف عن مواصلة
الحديث معه ثم قال لأصحابه :

- اذا صدقكم ضربتموه ، وإذا كذبكم تركتموه ، انه يحدثنا ان
قريشا جاءت وانه قد صدق ، فقد خرجت قريش تجير وكبها ثم دعا
الغلام وسأله :

- كم عدة القوم

يسار - لا أدري والله انهم كثير عديدهم ، شديد بأسهم

رسول الله - كم ينحرون كل يوم من الابل

يسار - يوما تسعا ويوما عشرا

فالتفت الرسول الى أصحابه وقال

القوم بين التسميعة والالف . ثم وجه حديثه الى يسار وقال له :
ومن فيهم من أشرف قريش
يسار - عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البختري بن هشام ، وامية
ابن خلف ، والحكم بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو
وعمر بن عبدود ، وغيرهم كثير ..

سكت الرسول قليلا ثم نهض واقفا ونادى في قومه
أيها الناس هذه مكة ، قد أقت اليكم افلاذ أكبادها . فأشيروا على ..
فقام أبو بكر وعمر ، وتحدثا برأيهما ثم وقف المقداد بن عمرو وقال
يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك
كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون
ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، ثم جلس وساد المجلس
صمت عميق ، الا صوت رسول الله يقول أشيروا على أيها الناس
فقام سعد بن معاذ حامل راية الانصار وقال
لـسـكـانـكـ تـريـدـنـا يـا رـسـول الله
رسول الله - أجل

سعد - لقد آمننا بك ، وصدقناك . وشهدنا ان ما جئت به هو
الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .
فامض لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا
هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد وما نكره
ان تلقى بنا عدونا غدا ، إنا صبر على الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله
يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله

تهل وجه النبي صلى الله عليه وسلم بالبشر، ومرت في أعضائه روح
جديدة من النشاط . ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى
الطائفتين . والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم . ثم شخص إلى السماء
ضارعا ودعا لأصحابه قائلا

اللهم انهم حفاة فاحملهم . وعراة فاكسهم . وجياع فأشبعهم ، وطالة
فأعنهم من فضلك

ثم ارتحل الجيش صوب بدر وراجزعهم يشدو وهم يرددون خلفه
ما انتقم الحرب العوان مني بأذل عامين حديث مني
لمثل هذا ولدني أمي

اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلاً
ونخراً تكذب رسولاك ، اللهم فنصرك
الذي وعدتني .. اللهم ان تهلك هذه
العصابة لا تعبد بعد اليوم في الأرض
فانجزني عهدك ووعدك الذي وعدتني .

بركان تطايرت أشلاؤه ، وتمزقت أجزاءه ، وراح يرسل أنفاسه
الآخيرة السنة من النيران متراقصة ، وسحائب من الدخان ملتوية معتكرة
هجم الناس لشاهدة آثاره رجلاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .
فاختلط في ساحته رضاء الأبل بصهيل الخيول . وامتزج حوله صوت
المتناقشين بندااء المنادين ، ذلك هو معسكر قريش في ضاحية (الجحفة)
تستجم في خيامها للزحف ، وتنضج من طعامها لمواصلة السفر ، وتستعد
لاجارة أبي سفيان ومأمه ، أو لحرب محمد وأصحابه ، إذا كان لا بد
من ذلك ..

وأمام خيمة عالية كأنها قبة مسجد فسيح ، رجل مديد القامة
أبيض الوجه ، حديد التقاسيم يتمشى مطارق الرأس ذهبية وجيابة ،
وقد تدلت ذؤابته ، واختصر سيفاً عريضاً مفضضاً ، وقبض من خلف

ظهره على يد بأخرى . ولم يفقه من تفكيره إلا صوت نوفل بن خويلد
يناديه يا أبا الحكم . فرقف مكانه فجأة ، وشخص صوب مناديه دون أن
يرد عليه بأكثر من نظرات حادة صوبها إليه ، فقال له نوفل

- أسمعت بالرؤيا الجديدة شامها (١) جهم بن أبي مخزومة بن المطلب

الحكم هازئاً - لعلها على غرار رؤيا بنت عمه عاتكة

نوفل - ضاحكاً - حذوك النعل بالنعل

الحكم - هازئاً - وهذا متنبئ آخر من بني المطلب . ولا كنهه سيعلم

غداً - إذا التقينا - على من تكون الدائرة ، على قريش أم على محمد وجاءته ؟

ثم تنفس حاراً وعاد إلى اطرافته وهو يقول لصاحبه

دعنا وأبيك من هؤلاء المتنبئة ، حتى نمنظر مافعات الأقدار بالعبير .

ولم يتمها حتى سمع صوتاً يناديه ، فشخص إلى مصدر الصوت ، فإذا به

مخزومة بن نوفل . يشق طريقه إليه مسرعاً في نشوة وسرور ، غير حافل

بالمستفسرين عن العبير ، والمهتئين له بسلامة الوصول (٢) حتى وصل إلى

خيمة الحكم . وخلفه زعماء قريش تتداعى سراعا يستظلمون ماجاء من

أنباء أبي سفيان وتجارته ، فبادره الحكم في عصبية قائلاً له :

ما وراءك ؟ تحدث قبل أن تحتشد الدنيا حولنا

مخزومة - لقد تقدم أبو سفيان العبير حذراً يتنطس (٣) الأخبار ،

حتى ورد ماء عليه مجدى بن عمر ، فسأله هل أحسست أحداً فقال له :

ما رأيت أحداً أنكره ، إلا انى رأيت راكبين اناخا إلى هذا التل ،

ثم استقيا في شن (٤) لها ثم انطلقا ، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ

(١) رأها (٢) وذلك لأن مخزومة ممن كانوا مع أبي سفيان (٣) يتنطس (٤) وطأ

من أبعاد بعيرها ففته. فاذا هو نوى، فقال هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعا. فضرب وجه غيره عن الطريق.

الحكم - مقاطعا - أو جزيا هذا. ثم ماذا

مخرمة - ثم ساحل بها وترك بدرا يسارا

أصوات شكراً للآلهة.

ثم واصل مخرمة كلامه قائلا: إن أبا سفيان يقول إذا كنتم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجأها الله فارجعوا.

الحكم - والله لا نرجع حتى نرد (بدراً) فنقيم عليه ثلاثا، وننحر

الجزور، ونطعم الطاهام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان (١) وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا أبدا.

الأخنس بن شريق - مالنا والحرب إذن وقد نجى الله لكم أموالكم

الحكم - غاضبا - قد امتلأت والله جبيننا

فأحمر وجه الأخنس ونهض غاضبا. ثم سار إلى قومه ونادى فيهم:

يا بني زهرة (٢) قد خلص الله لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل. وإنما

نقرتم لتمنعوه وماله. فاجعلوا بي جبيننا وارجعوا. فانه لا حاجة بكم في

أن تخرجوا في غير منفعة.

أصوات من بني زهرة - هيا .. هيا ..

بني عدى بن كعب - هرحى .. هرحى ..

طالب بن أبي طالب - وإنما والله لقاله الحق قالها الأخنس بن شريق

زعمه بن الأسود - انها والله لقاله السوء قالها الأخنس، وإنما لقد

عرفنا أن بني هاشم وإن خرجوا معنا، فإن هوامهم مع محمد.

(١) جمع فينة وهي المنية (٢) كان سيدا مطاطا فيهم.

طالب — قل ما شئت يابن الأسود فاني لا بد راجع

زمنة — ولسكن بخفي حنين

طالب — بل بالعبير كلها، ثم بشيء أعز من ذلك (١) ثم أنشد يقول :

يارب إما يغزون طالب

فد متنب من هذه المقامب

فليكن المسلوب غير السالب

وليكن المغلوب غير الغالب

ثم خشي الحكم أن تشيع البرقة في قريش ، وأن تعزل منها بطون أخرى عن الحرب ، فأنع بنجاة العير . فأمر بالتجهيز والسير . وراح يستحث هذا ، ويدفع ذلك ، حتى رحلوا ونزلوا (بالعدوة القصوى) خلف كئيب (٢) من الرمل يكمنون خلفها ، ثم استدعى الحكم عمير بن وهب الجمحي ، وأسر إليه بما أسره ، فسارع عمير إلى جواده الأبلق فامتطاه ، ثم راح يتصعد الروابي حذرا ينظر عن يمين وشمال ، ثم نزل ببطن الوادي . وراح يطوف به يسبقه حرصه ، وتتبعه التفاتاته ، ثم عاد إلى القوم وهو يرتجف داعشا ثم قال :

— إن عدة القوم ثلاثماية رجل ، يزيدون أو ينقصون قليلا ،
ولكني رأيت الولايا (٣) تحمل المنايا ، ونواضح يثرب تحمل الموت

(١) يشير إلى ارتياحه ورجوعه قبل أن يحارب رسول الله

(٢) كومة عالية .

(٣) جمع وليه وهو ما يوضع على ظهور المطايا

الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى رجلاً
يقتل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ...

فامتقع وجه العاص بن هشام وزاغ بصره وسقط القدح من يده ،
فزجره الحكم ونهره . ثم واصل عمير كلامه وقال :

— فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

حكيم بن حزام — يا أبا الوليد : (١) إنك كبير قريش الليلة . وسيدهما

المطاع فيها . فهل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم الى آخر الدهر .

عتبة بن ربيعة — وما ذاك يا حكيم ؟

حكيم — ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي (٢)

عتبه — على ذلك ، إنما هو حليفي فعلى ديتته ، وما أصيب من ماله ،

ثم اعتدل وكان متكئاً وقال :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً

وأصحابه شيئاً . والله لأن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل

يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا

وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم . وإن

كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون .

الحكم — انتفخ والله سحر ك (٣) حين رأيت محمداً وأصحابه .

كلا والله لا ترجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، ولعلك قد رأيت ابنك

بينهم فتخوفت عليه .

(١) كنية عتبه بن ربيعة (٢) قد سبق ان قلنا ان عمرا هذا قد قتلته سرية

عبد الله بن جعش وهو في طريقه الى مكة مع تجارة لقريش من الشام (٣) بفتح

السين وسكون الحاء كناية عن حبه .

عتبة — ستعلم من انتفخ سحره أنا أم أنت يا مصفر إسته (١)
ثم التفت الحكم الى عامر الحضرمي وقال :
— هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس بعد أذ رأيت تأرك بهينك .
فقم وانشد حفرتك ومقتل أخيك بين الناس .
فنهض عامر وكشف عن رأسه وصرخ بين القوم :
واعمره واعمره
فاجتمع الناس حوله . وتنادوا بالحرب واويل لمحمد وجماعته .

نادى رسول الله عند الفجر ، العملاة الصلاة عباد الله ، فتداعى
المسلمون من كل حدب وصوب ، ينفضون عن ثيابهم قطرات المطر ، تقذت
اليهم من خلال الشجر ، أو انحدرت عليهم من بين الصخور ، ثم انتظموا
خلفه صفوفاً يؤدون حق الله عليهم . وكلهم ينادى ربه في صلواته بكلمات
خافتة لعلها طلب الاستشهاد ، ثم قام صلى الله عليه وسلم ، فتفقد الحوض
الذى أقامه الحباب بن المنذر بن الجموح ، وقد امتلأت جوانبه بماء
المطر يهيم طول الليل غزيراً ، ثم تقدم اليه صلى الله عليه وسلم سعد بن
معاذ وقال :

يا نبي الله ، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عنده ركائبك ،
ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببناه .
وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلاحقت بمن وراءنا من قومنا .
فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا

(١) كناية عن ضعف الرجولة في الحكم بن هشام وكان قد عرف عنه ذلك .

أنك تلتقي حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصرحونك ويجاهدون معك
فأثنى رسول الله على سعد . وأشار ببناء العريش . ثم دعا أصحابه
وأخذ يصفهم للقتال ، فألقى قريشا تتطازرل بأعناقها ، وترنو بأبصارها
إلى المسامين من خلف الرمال فتوجه إلى الله ورفع يده إلى السماء وقال :
اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ونفخها تكذب رسولك .
اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم ان تهلك هذه العصاة لا تعبد بعد
اليوم في الأرض . فأنجزني عهدك الذي وعدتني .
ثم التفت إلى أصحابه وقال :

لا تحملوا عليهم حتى آمركم . وان ا كتمتكم القوم فانضحوهم عنكم
بالنبل . واني عرفت رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها
لا حاجة لهم بقتالنا . فن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله . ومن
لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله . ومن لقي العباس
ابن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله . فانه إنما خرج مستكرها .
وبينا كان رسول الله يخطب أصحابه إذا بالأسود بن عبد الأسد
الخزومي يندفع من بين صفوف المشركين كالسهم المارق وهو يقول :
أعاهد الله لأشرب من حوضهم أو لأهدممه أو أموتن دونه
فانبرى له حمزة بن عبد المطلب وتلقاه بضربة شطرت ساقه ، فهوى
على ظهره ، ينطف الدم منه . ولكننه راح يحبو صوب الحوض مكابراً
رجاء هدمه . فعاجله حمزة بضربة أخرى فقتله . فانطلقت بقتله الشرارة
الأولى من نيران الحرب بين قريش والمسامين .

والقذى نفس محمد بيده لا يقا تلهم اليوم،
رجل فينزل صابراً محمداً مقبلاً غير مدبر
إلا ادخله الله الجنة .

حديث

وقفت قريش في كثرتها وسلاحها ، تنظر إلى المسلمين بعين قارية ،
وقلوب ملتبهة وسيوف مسلولة ، وأقواس غامرة (١) ورسول الله يشرف
من عريشه على الجميع ، ويحرك لسانه بما لم يكن يسمعه أحد ولعله
يستنجز الله وعده في الفوز . وينظر بعين الأمل والرجاء في النصر إلى
معاذ وعوف ابني الحارث ، وعبد الله بن رواحة ، يتقدمون بأقدام ثابتة
لمنازلة عتبة بن ربيعة بن أخيه شيبة وولده الوليد . وما قطع عليه
حبل دعائه إلا صوت عتبة يقول :

— يا محمد اخرج لنا أكناءنا من قومنا فلما لنا بهؤلاء من حاجة .
رسول الله — قم يا حمزة بن عبد المطلب ، قم يا علي بن أبي طالب ،
قم يا عبيدة بن الحارث .

(١) وهكذا يقول الله « وإذ يريدكم وهم إذ أنهم في أعينكم قليلاً ويقولون في
أعينهم ليغض الله أمراً كان مفعولاً .

عتبة - من القوم.

حمزة - أنا من تعرف وهذا علي ابن أبي طالب وهذا عبيدة بن الحارث
عتبة - نعم أكفأ كرام . إلى النزال

فاذا بالسيوف تصعد وتهبط ، وتيمن وتيسر ، والأقدام تتقدم
وتتأخر ، وتطرد وتنعكس ، وكلا المعسكرين قد ربطوا على قلوبهم ،
وجعروا من أنفاسهم ، واستحالوا عيوننا غادية رانحة مع غدو المتنازلين
ورواحهم . وأنياب تبهز بالغيظ وتصر بالحق ، حتى كانت طعنة من حمزة
هوى تحتها شذبة بن ربيعة ، مدرجا بدمه ففغر المشركون أفواههم .
واتسعت محاجرهم ، بينما كبر المسلمون . ثم كانت طعنة من عتبة ، أصابت
نخذه عبيدة فخاص لها المشركون ، وأرسلوا سيوفهم تتمايل في الفضاء ،
ولكن علي بن أبي طالب لم يدعهم في أفراحهم طويلا ، بل عاجل
خصمه الوليد بن عتبة بخرية خرت تحتها صريحا لا ينبس ببنت شفة ، ثم
كر مع حمزة علي عتبة فأجهزا عليه ، بمد أن نالته ضربة من خصمه
كسرت ساقه . ثم حمزة لا عبيدة بن الحارث حتى وضعه بين يدي
رسول الله ، فنظر إلى رسول الله بعين الحب والرجاء وقال له في لهفة :
ألمت شهيدا يا رسول الله ؟

- رسول الله - بلى ..

عبيدة - لو كان أبو طالب حيا لعلم اني أحتق منه بما قاله عن نفسه ،
حيث يقول :

أنسله (١) حتى نمرع حوله ونهمل عن أبنائنا والحلائل .

(١) بضم النون وسكون السين وكسر اللام وضم الميم . ولعله بيت قاله أبو طالب
دفاعا عن رسول الله منناه لأنسله حتى نموت حوله وننسى أبنائنا وزوجاتنا .

فنظر اليه رسول الله حنواً ، ثم غفا غفوة سريعة أفق على أثرها
وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر . سيهزم الجمع ويولون الدبر .
وما أن رأّت قريش مصرع أربعة من بنيها قبل أن ترى مصرع
مسلم واحد ، حتى غات حيتهم ، وانفجر بركانهم ، وكرّوا على صفوف
المسلمين مشاة وركبانا ، والمسلمون يذودون عن مواقعهم بالنبال في
ثبات وسداد . ورسول الله واقف في عريشه على تلك الربوة العالية
يشرف على المعركة ، ويرسل أوامره إلى حمزة وعمر وعلي ، ثم حال مثار
التراب بينه وبين الاشراف على سير القتال ، فنزل الى مقربة منهم وخافه
سعد بن معاذ في كوكبة من الانصار ، ثم عاد وحوله هذا الحرس لئلا
يكر المشركون من خلف العريش على غرة . ثم وضع سعد بن معاذ أصبعه
على فمه كأنما ندم لشيء أو وقع أمامه فكدر ثم قل :

هذا دهجع دولي عمر بن الخطاب قد سقط بين الصفوف شهيداً بيد
عاهر الحضرمي . وسكت هنيهة واستتمال بعنقه هنا وهناك ثم قال :
وهذا حارثة بن سراقة قد قصد الى الموض ليثرب منه - فراشوه
بسهم فحقت دونه ظامناً شهيداً . وهذا حارثة بن قيس قد صرع بسهم
طأش ولما يزل يافعاً .

كان سعد بن معاذ يقول - هذا رسول الله يتابعه بنظرة تتلجج
فيها عواهل الألم والامل والخوف والرجاء ، ثم سمع الحكم بن هشام
ينادي في قومه لا يهولنكم مصرع شيبه ومن معه فزعموا . فواللات
والعزى لا ترجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالرجال . لا تقتلوهم خذوهم
باليد . فقال صلى الله عليه وسلم الى الأرض بيده وأخذ منها قبضة من

الحصي ثم دنا من القوم وحنانهم بها في وجوههم وقال — شامت الوجوه (١) ثم التفت إلى أصحابه وقال : شدوا عليهم (٢) ، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فتراحوا مترامين كالبنيان المرصوص مستأسدين كالبيوت الجائعة .

وما سمع عمير بن الحمام (٣) ذلك من رسول الله ، وكان قد جلس ليتبلغ ببعض تمرات لما تزل في يده ، حتى قذف بها وقام من فورهِ هو يقول :

بخ بخ (٤) فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم امتشق سيفه وانقض بين الصفوف وهو يقول :

ركضا الى الله بغير زاد

إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة النقاد

غير التقى والبر والرشاد

ثم التقى الجمعان ، واشتدت المعركة ، ونار التراب ، ولمعت السيوف ، فصحب رغاء الابل صهيل الخيل ، وامتزج التكبير بأراجيز التحريض ، واختلطت الآهات بعبارات التهليل . فاستحالت ساحة القتال قطعاً من الليل المظلم ، تنهاوى كواكبه على رؤوس الخلائق ، فتفرى جلودهم

(١) فبعت (٢) كروا عليهم بقوة (٣) بضم الحاء وفتح الميم أى للوت أول شهيد من الانصار (٤) كلمة تعجب واستعجاب

وتمزق أجسامهم . فترتفع أصواتهم بالأسى والآنين ، أو يودعون الدنيا على خير دين ، ثم أخذ الظلام يبتسم عن ضوء النصر ، وبدأ المسلمون يقدون بالأسرى والغنائم إلى حيث العريش .

ثم شب أبو بكر على مقدمة أصابعه ، وأخذ يميل بعنقه يمينا وشمالا وهو ضاحك السن ، فنظر إليه سعد بن معاذ وقال :
— ما يضحكك أيها الصديق ؟

أبو بكر — لقد أسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وولده ، فعثر بهما غريمهما بلال بن رباح (١) فرفع السيف ليقتله وعبد الرحمن ابن عوف يمد يده والمشادة بينهما لا تزال قائمة .

فتنفس سعد بن معاذ عن ألم دفين ولم يقل شيئا رسول الله — لكأنك ياسعد تكره ما يصنع الناس سعد — أجل والله يارسول الله . انها أول وقعة أوقعها الله بالمشركين .
فالاتحان في القتل أعجب إلى من استبقاء الرجال

أبو بكر — لعل الله يحقق رغبتك فيمن بقي من قريش . ثم ألا يكفي اتحان كل هؤلاء الصناديد ؟! هذا نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وزمعة وعقيل والحرث أبناء الأسود ابن عبد يغوث ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وغيرهم قد نيفوا على العشرين وأضحوا صرعى تحت أقدام المجاهدين . فهلا وضيت ان نستأثر ببعض الأسرى لعل فيهم للمسلمين نفعا ، على ان المعركة

(١) لقد كان بلال عبدا لأمية هذا وطالما أجاعه وعذبه ووضع الصخرة العظيمة على صدره ويقول له لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد . ولم يكن لبلال من جواب إلا أن يقول أحد أحد الله أحد .

لا تزال دائرة . وهام المشركون يتساقطون من الصفوف تساقط الأشجار
في الحريف

وما أسكت الصاحبين عن الحديث إلا صوت من صفوف قريش ينادى
الفرار الفرار . . النجاء النجاء ..

فاستحال الشجاع جبانا ، والنسر عصفوراً مهيباً الجناح ، واللواء
خرقة مزقة ، وتلاشت صفوفهم في كل ناحية كما يتلاشى الهشيم أمام
رياح العاصفة

فسجد النبي لله شكراً . ثم أخذ الصحابة في تضييد الجرحى بالزيت
الدافئ وتكبييل الأسرى بالحبال وجعل الغنائم في صعيد واحد ،
ورسول الله يكرر الشكر لله والثناء عليه ، ثم أمرهم أن يلتمسوا الحكم
ابن هشام في القتلى وانظروا - ان خفي عليكم - إلى أثر جرح بركبتيه
فاني أزدحت وهو على مادية لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ،
وكنت أشف منه يمشي ، فدفعته فوق عنى ركبتيه ، فجحش جحشا (١)
لم يزل أثره فيه بعد ، ثم توجه إلى الله وقال :
اللهم لا يعجزك

ثم وافى العريش معاذ بن الجموح مصفر اللون منهوك القوى . منحنيماً
إلى ناحية الشمال والدم يسيل منه غزيراً
فبادروا إليه يعينونه على السير ، وسارعوا إلى احضار الزيت الدافئ .
يغمسون فيه مكان الجرح منه ثم سأله علي بن أبي طالب
- ما خطبك يا أخاه ؟ ؟

معاذ - سمعت القوم قبل اشتداد المعركة يقولون ان أبا الحكم لا يخلص (١) اليه شيء. فلما سمعتها جعلته من شأني وصعدت نحوه. فلما أمكنتني الله منه ، حملت عليه فضربته ضربة شطرت قدمه بنصف ساقه. فضربني ابنه عكرمة على عاتق فطرح ذراعي لاتصلها بجسدي إلا جلدة من جنبي ، ثم أجهضني القتال عنه . ولقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفي . فلما آذنتني وضعت اياها رجلي ثم تمطيت بها حتى طارحتها ، ثم رأيت معوذ ابن عفراء قد طعنه بنصل واختفى فوق علي الأرض (٢) ولا أدري ما حل به بعد ذلك

ولم يكدم معاذ يتم كلامه حتى جاء عبد الله بن مسعود وقذف بين يدي النبي برأس ضخم وقال :

هذا رأس عدو الله أبي جهل

رسول الله - مسرورا - بالله الذي لا اله غيره ؟؟

عبد الله - نعم وأيم الله

سعد بن معاذ - فضلا من الله ونعمة ان ملكنا رأس الطاغوت

ثم واصل بن مسعود كلامه وقال :

ان بيني وبين أبي جهل ثأرا قديما فقد شج أذني يوما بحجر عند الكعبة لايمانى بالرسول ، فقلت لعل الله يجمع رغبتى فيه برغبة رسول الله . فاخذت اتصفح وجوه القتلى حتى وجدته بأخر رمق فعرفته ووضعت رجلي على عنقه ، فقال لي لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويح الغنم ، ولئن كانت الدبيرة ، فقلت لله ورسوله ، بينما أنا مشغول برأسه احزته من عنقه ، ولكن سيفي لم يغن شيئا ، فبصقت في وجهي وقال خذ سيفي هذا

(١) لا يصل اليه أذى (٢) وقد قتل معوذ في هذه المعركة.

فخز به رأسى من عرشى (١) وعجل بى من هذا العذاب ففعلت ذلك .
ولما لم أستطع حمله نفذت إلى اذنه بجبل ثم شحطته اليكم (٢)
نخر رسول الله ساجدا وقال الله أكبر الله أكبر صدق وعده، ونصر
عبده. وهزم الأحزاب وحده. الحمد لله الذى اخزى فرعون هذه الأمة
ثم أمر بدفن القتلى فى حفرة واحدة . ودفن الشهداء فرادى
أبو بكر — وانت يا بن عوف، مالك صامت واليوم مسرة وعيد
عبد الرحمن بن عوف — يعفو الله عن بلال بن رباح لقد استعدى
الانصار على أمية بن خلف وولده بعد أن اسرتهمما فقتلوهما على الرغم منى
فذهبت أدراعى وفجعى فى أسيرى

المجنذ بن زياد — بل يعفو الله عنى أيضاً فقد عثرت بأبى البختري
أثناء القتال فتملت له دع النوم وانج بنفسك فان رسول الله قد نهى عن
قتلك . فقال وزميلى جنادة بن مليحة؟ قلت لا والله ما نحن بتاركى
زميلك ، وما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك ، فقال لا والله لا امرتن
معه لئلا تتحدث عنى نساء قريش انى تركت زميل حرسا على الحياة .
فدونك والسيف ، ثم أخذ يرتجز وهو ينازلى
لن يسلم ابن حرة اكيله حتى يموت أو يرى سبيله
عكاشة — وما خطبك يا حبيب

قطع شقى بضربة سيف فرفع عنه ثيابه بسرعة ثم جاء رسول الله
فضم بين أجزاء لحمه ومسح عليها فاعدت كما كانت
على — وماذا بك يا هذا
رفاعة بن مالك — فقتت عيني بمهم المشركين

رسول الله — ما دعناه — إلى هاتهما ثم بصق نبي موضعها وأطادها
مكانها فابصرت كما كانت

عكاشة — الله أكبر الله أكبر أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا،
إن القضيبي (١) الذي أعطيتني به قد استحال سيفا بتارا وقد قاتت به
زهراء يومى ولما يزل قوى الصفيحة

(١) قضيبي من حطب

يا أهل القليب . . هل وجدتم ما وعد
ربكم حقا؟! فاني وجدت ما وعدني ربي
حقا ، بأئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم
كذبتموني وصدقني الناس
واخرجتموني وآواني الناس
وقاتلموني ونصرني الناس محمد رسول الله .

هدأت المعركة وخيم السكون . وغاب كل عن مكانه يستعيد مشاهد
القتال ويستعرض ما كان مستهدفا له . فتارة يقطب جبينه وتنكش
مخاجره فزعا لحادثة ، وتارة أخرى تنبسط أساريره ويضيء بحياه الموقف
خالد ، وثلاثة يطير بخياله إلى يثرب وماستاقام به ، ثم إلى مكة وماسيطن
عليها من أحزان ، فيشيع السرور في جسمه ، ثم رابعة إلى ما كان يحدث
لو أن النصر لم يكن في صفوف المسلمين فيلتفت يمينا وشمالا طردا لهذه
الاشباح المزعجة ، وفرارا من التصورات الخيفة تتوارد على ذهنه وتمرف
شئ الأزياء وتغايير الاوضاع . واعله قد أفاقهم مرور رسول الله في
حرسه الكثيف ميماسطر قریش فتوشعورا بأساحتهم من جديد .

وساروا خلفه كأن على رؤسهم الطير ، لا تسمع إلا وقع الخطي وحفيف
 الثياب . فرأوا بقبور الشهداء . ثم وقفوا دونها هنيئة رهيبة اختلط فيها
 شعور الآسى على فراقهم بشعور الغبطة لسبقهم إلى دار الجزاء . وامتزج
 فيها الحنين إلى منواعم بالرغبة في الحياة لاتمام رسالتهم ، ثم تحركت
 الألسن بما تيسر من القرآن ، ثم تابعوا سيرهم فألقوا أبا حذيفة قائما على
 جثة أبيه عتبة بن ربيعة ممتقع أوجه حزين النفس ، فالتفت إليه رسول
 الله وقال ، يا أبا حذيفة لعلاك دخلك من شأن ابنيك شيء .

أبو حذيفة - لا .. والله يا بني الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه
 ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا . فكنت أرجو أن
 يهديه ذلك إلى الاسلام . فلما رأيت ما أصابه . وذكرت ما جات عليه من
 الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك
 رسول الله - خيرا ..

ثم أخذت الجنة والقيت في القليب (١) مع بقية قتلى المشركين ، ثم
 رأوا عن بعد غير قليل ، طوائف الهداة ووفود النور تحوم حول
 شيء تهبط عليها بسرعة وتصعد ، كأنها تحاول التماسه فلا تمسه طبع .
 وراهم ذلك فدنوا من موطن هبوطها . فاذا بها جثة لاعهد لهم بصحافتها
 وقد بدأت الروائح الكريهة تنبعث منها ، فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض
 نظرات استفسار عن عساه أن يكون صاحب هذه الجثة ، ثم تبين أنها لامية
 ابن خلف فتسأل رسول الله

(١) حفرة دفنت فيها قتلى المشركين

ثم — لم توار التراب ؟

مالك بن الدخشم — لقد اتفخ يارسول هذا المشرك في درعه حتى
ملاها قبل الاوان وكم حاولنا معجبه إلى القليب فيترايل لجه
عمر — افروه في مكانه واهيلوا عليه الحجارة والتراب
ثم وقف صلى الله عليه وسلم وقال

يا أهل القليب : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ يا عتبة بن ربيعة
يا شيبة بن ربيعة يا أباجه بن هشام يا أمية بن خلف هل وجدتم
ما وعدكم ربكم حقا ؟ فاني وجدت ما وعدني ربي حقا .. بثس عشيرة النبي
كنتم لنبيكم ، كذبتهموني وصدتني الناس وأخرجتموني وآواني الناس
وقادتموني ونصرني الناس

عمر — أتنادى يارسول الله قوما جيفوا (١)

رسول الله — ما انتم بأسمع لما أقول منهم ولا يمكنهم لا يستطيعون
ان يحييوني

القت (بثر) بكل ما فيها تستقبل الجيش الظافر رجلا وركبانا -
على بعد أميال - يحملون الرايات البيضاء . ويلوحون بالسعف والاعصان
كانها في مسكانها حرجة متقلبة تنبعث من ثناياها سحائب البخور
وأهازيج النصر ، وما التي الجمعان حتى غلا مرجل الفرح وفاض دموعا
وارتفعت الضوضاء حتى استحال دوي راعدا ، وسبح الثرى في الفضاء

(١) ماتوا واقنوا

حتى صار سحابا كثيفا تترك السيوف في ظلمته كما تترك النجوم في الليل
المظلم ، وخشي رسول الله مغبة المشعور بالنصر على الاسرى قتال
استوصوا بالاسارى خيرا

فجهمهم عمر وعلی وجعلهم كقطب الریح بین المحاربین حتى لا یصل
الاذی بهم من المستقبلیں المتحمسین

وعند المنازل النبوية استعرض الاسرى رسول الله وقد شدت أيديهم
إلى اعناقهم صنوفا كأنهم مجموعة من الدببة الراقصة تخضع لأوامر قائدها
يرهون المسلمین بنظرات كالشرر ويقذفونهم بأنفاس كالحمم ثم ردد
رسول الله نظره بین عمه العباس وبن أسرہ كعب بن عمر وهو
یضحك (١) ثم قال :

كيف أسرت العباس يا أبا اليسر

ابو اليسر — لقد أعانني الله عليه برجل مارأيته قبيل ذلك
ولا بعده

رسول الله — لقد أعانك عليه ملك كريم

ثم نظر رسول الله إلى عمه وقال

أفد نفسك وابني أخويك عتيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث
وحليفك عتبة ابن عمر ، فاذك ذومال

العباس — كنت مساميا برسول الله ولكن النجوم استكروهوني على

الخروج للقتال

رسول الله — الله أعلم باسمك . ان يكن ما تذكر حقا ، فالله

يحزبك به . أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك

(١) لان العباس كان جـيـمـا يـمـا (ابو اليسر) كعب بن عمر كان رجلا نجيبا

العباس — لي في ذمتك عشرون أوقية من ذهب فاحسبها في
فدائي (١)

رسول الله — لا .. ذلك شيء اعطانيه الله عز وجل منك
العباس — آسفنا ليس لي مال

رسول الله — وأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت عند أم
الفضل بذت الحرث وقات لها : ان اصبحت في سفري هـ ذبا فلانفضل كذا
وكذا ولعبد الله كذا ولهم (٢) كذا وكذا ولعبيد الله كذا وكذا

العباس — شاهقا — والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وغيرها
واني لا أعلم انك رسول الله . ثم فدي نفسه وابن أخيه عقيلادون غيره
ثم التفت رسول الله إلى ابن عمه نوفل بن الحرث وقال له
أفد نفسك يا هذا

نوفل — مالي شيء أفدي به نفسي

الرسول أفد نفسك من مالك الذي بجدة

نوفل — اشهد أنك رسول الله . والله ما من أحد يعلم أن لي بجدة
مالا غير الله ثم فدي نفسه

(١) لم يكن رسول الله مدينا له بشيء . وانما خرج العباس ومعه عشرون أوقية
من ذهب ينفق منها على غريش فصدورت منه حين أسر فزعم انها تكون في ذمة
الذي مادامت قد صدورت منه . ولكن رسول الله قال له (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى
علينا به فلا تتركه لك) وفي هذا نزلت آية (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى
ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم)

(٢) بضم قفتح

ثم رجع عمرو إلى الوداء قايلاً ثم عاد وأمن في الصفوف ثم قال
ودو يشير بأصبعه

هذا سهيل بن عمرو في الأسرى يا رسول الله .. وأطالما دلع لسانه
عليك بين الناس خطيباً فأنزع تنيته السفايين حتى لا يقوم إلى مثلها
مرة أخرى

فصمت رسول الله هنيئة تردد فيها بصره بين عمرو وسهيل ثم قال :
لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً وأنه عسى أن يقوم
مقاماً لا تذهه

وتقدمت سودة بنت زمعة زوج النبي الأسارى (١) فالتت سهيلاً
بينهم فقالت له اعطيتم بأيديكم ؟ لا منكم كراماً ؟

فقطع رسول الله حديثها قائلاً

يا سودة .. اعلى الله وعلى رسوله تحرضين ؟

سودة - والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد (٢)

مجموعة يدها إلى عنقه بحبل ، ان قلت ذلك

ثم مال اسامة بن زيد على اذن عبادة بن الصامت وقال له :

ابن عقبة بن معيط والنضر بن الحرث وقد تركتهم في (بدو)

بين الاغلال والاصفاة قبل ان يرسلني رسول الله مع صاحبي زيد بن

حارثه إلى أهل العالية والسافلة ببشاوة النصر

عبادة هماماً - أما النضر ابن الحرث فقد قتله علي بن أبي طالب بأمر

رسول الله في «الصفراء» (٣)

(١) ولم يكن اذ ذاك قد نزل الحجاب

(٢) كنيه سهيل

(٣) وسب قتله أنه كان ينال من القرآن ويدم رسول الله ويمذب اصحابه بمكة

وأما عقبة بن معيط . فقد أمر رسول الله بقتله (بعرق الظبية) (١) وأنه حين سمع ذلك كفى بين يدي النبي وقال ومن للصبيبة يا رسول الله ؟ فقال له لهم النار ثم تقدم صوبه حاصم بن ثابت وعلاه بسيفه فقتله اسامه - وأين ذهبت الاسلاب الكثيرة لا أرى إلا بعضها موزنا بين المحاربين

عباده - أما الاسلاب فقد اختلفنا فيها وساءت اخلاقنا ، فمن رأى بأن توزع على المحاربين وخدمهم ، ومن رأى بأن تعمم على جميع من شهدوا المعركة محاربين أو حراسا ، فنزعها الله من ايدينا فجعل رسول الله يقسمها بين المصاميين بالسوية وقد تم ذلك في سير (٢) ولدى عبد الله بن كعب امين النفل (٣) سهمك وسهم صاحبك زيد بن حارثة فاذهب اليه ان شئت وتسلمه

فاطرق اسامة برأسه استحياء وقال
ما هذا سألت .

ثم صمت وصمت محدثه معه واستفرقا في تفكير لم يفهما منه إلا صوت عمر عاليا يدعو الصحابة للتشاور في مستقبل الامرى وقد اسند رسول الله ظهره إلى إحدى قوائم المسجد يستمع إلى آراء أصحابه فقال ابو بكر :

(١) وذلك لانه وعلى عنق النبي وهو يصلي يوما وبعق عليه ، وفيه نزلت آية (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا)
(٢) بفتحين ومتايتين اهم قرية (٣) بتشديد ففتح - الاسلاب

يا رسول الله ، قومك واهلك استبتمهم واستأنهم (١) وخذ منهم
القدية فيكون ما اخذناه منهم قوة ، وعمى الله ان يهديهم فيكونوا
لنا عضدا

عمر - يا رسول الله كذبوك واخرجوك فما عليك من ان تمكني من
وهب بن عمير وعمر بن ابي سفيان فاضرب عنقهما وتمكن حمزة من
من اخيه العباس فيضرب عنقه ، وتمكن عليا من اخيه عقيل فيضرب
عنقه ، وتمكن مصعب بن عمير من اخيه ابي عزيز بن عمير فيضرب عنقه
حتى يعلم الناس ان ليس في قلوبنا هراة للكفار وعولاة صناديدهم
وقادتهم وأئمتهم

عبد الله بن رواحة - يا رسول الله انظر وادبا كثير الحطب فادخلهم
فيه ثم اضرمه عليهم نارا

رسول الله - ان الله عز وجل ليأين قلوب رجال فيه حتى تكون
الين من اللين . وان الله ليشد قلوب رجال فيه . حتى تكون أشد من
الحجارة . وان ملك يا ابا بكر مثل ابراهيم قال من تبعني فانه مني
ومن عصاني فانك غفور رحيم . ومثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك
وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم . ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب
لا تذر على الارض من الكافرين ديارا بل مثلك كمثل موسى قال ربنا
اطمس على اموالهم واشدد قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم
ثم قال صلى الله عليه وسلم

انتم اليوم عالة ، فلا يفلتن منهم احد الا بفداء او ضرب عنق

عبد الله بن مسعود - الأسهلي بن بيضاء بار رسول الله
فسكت رسول الله هنيهة مروح فيها نظره الى السماء ثم اسبل جفنه
فلم تقع عبد الله بن مسعود اصمته واطرق براسه مرتجفا كأنه ينتظر
حكم الاعداء عليه حتى سمع رسول الله يقول
- الاسهلي بن بيضاء

فرفع راسه وقد عادت الحياة الى وجهه وزفر مستشهدا مسرورا -

ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى
يشخن في الارض تريدون عرض الدنيا
والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم .
قرآن كريم

وكان اثار عند الشعب بوى القرشين على أبواب الطريق إلى يثرب
متناثرين هنا وهناك ، زرافات ومثنى يرقبون الافق ويظالمون
وجه الصحراء لعل حدسهم يصيب مكانه ، فيظفروا بقافلة قادمة أو
ببعوث من قريش يخدمهم عن أنبيائها

وكما شاهدوا ظل السحاب . أو اهتزازات السراب . أو تمايل النخيل
والاشجار ، خالوها قوافل قادمة . فيحبسون من أنفاسهم ويربطون على
قلوبهم . ويشيرون بأصابعهم جاحظي العيون تغرى الافواه حتى إذا
أخطأهم حدسهم . عادوا الى بعضهم مزججين متلاومين مسخطين .
وظلوا على هذه الحال حتى وأوا شبحا يتأرجح عن يده فاختلفوا فيه
هل هو حقيقة أم خيال . ولكن اليأس في هذه المرة قد أبطأ مسيره
إلى نفوسهم . فحمدوا جميعا في أما كنهم وشدت عيونهم بأهدابها صوب

الآفاق . وكأدنا القدام قوى الانتقاد بحقياته ، وارتفعت بقوة الدماء
في الوجوه . وزادت دقات القلوب في الصدور وجف اللعاب في
الحلاقيم وترددت الانفاس بسرعة لاهثة ، وكان أن صاح صفوان
ابن أمية .

هذا والله الحيسان بن عبد الله بن اياس ، أحد أبطالها وابن بجدتها
أبو سفيان — ولسكن سعنته لا تبشر بخير
صفوان بن أمية — مه يا هذا ! لعابها آثار السفر
كان القوم يقولون هذا وهم يرتضون نحوه حتى وقفوا دون
ناقته ينظرون اليه بعيون حائرة بين التلويح والرجاء وهو في مكانه
كالتمثال لا ينبس ببنت شاة فادره صفوان قائلا

ما وراءك ؟؟

فأطرق برأسه لا يحير جوابا

فاحتد عليه أبو لهب قائلا

فجئت من طليعة .. تكلم يا هذا

فرفع رأسه قليلا وأخذ يفتح فده كمن يفتح له جعة دواء مريرة

ثم قال :

والله ما من شيء إلا ان هجموا علينا فنحنهم أكتافنا فأخذوا
بأسرونا فينا ويقتلون . ولقد قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وبنيه ومنبه
ابنا الحجاج وأمية بن خلف وزمعة وعقيل والحارث ابنا الاسود بن
عبد يغوث وقد أسروا نحو السبعين وعلى رأسهم عقبة بن ميط والنضر
ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب وأبو عزيز بن عمير وسهيل بن

عمر وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث
كان الخبيسان يقول هذا وقلوب القوم تتساقط من صدورهم
فتخور لما نفوسهم على وقع الانباء كما تتساقط أوراق الخريف على
وقع الرياح

فعادوا إلى مكة منكسي الرعوس تحت سحابة من الكآبة والحزن
متراعى التوى متهافني الاعصاب ، وساقط أبالهب قدماه من حيث
لا يدري إلى حجرة أم الفضل عند زمزم فجلس على عتبة ما عتبا حزينا
فسمع أبا رافع مولى العباس بن عبد المطلب يحدث عن هزيمة قريش
في بدر فما كان من أبي لهب إلا أن لطمه على وجهه فثار أبو رافع لذلك
فخمله وضرب به الأرض فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة
فأخذته وضربت به ضربة شجت رأسه وقالت
تستضعفه ان غاب عنه سيده

أبو لهب — تربت يدك يا فوالله إن سيده هذا الذي تقولين ، عند
محمد في الاغلال مع ابني عمه أبي طالب والحرث
أم الفضل — إن عفو محمد وكرمه لا ينفدان ، فدعهم أنت وشأنهم
ياعدو الله

وما هي الا سويحات حتى شامت أنباء بدر في مكة ، وتوانرت نخلت
شوارعها من المارة وخيم الحزن على ربوعها . وجاء الليل فلطمها في ثياب
الحداد . لا يطل من كواها (١) نور ولا يذبعث منها صوت . وقد تسمع
بكاء خافتا يرمله الجوى حارا داويا . ويمنعه الحياء ، قبل الاخذ بالثار

(١) جم كوة وهي النافذة

ويحبسه الخوف من السماتة ، ففي كل قلب جرح ومع كل زفرة
مهجة وسعير .

وأذاب الحزن كبد الاسود بن زمعة بن عبد المطلب وذهب الحزن
بنور عينيه على ولديه وابن ولده الذين قتلوا في بدر وخاصم الكرى
جفنه - مذ علم بذلك - حتى سمع في جوف الليل نائمة تنتحب فدما
بغلام له وقال

أنظر يا غلام هل أحل النجيب وهل بكت قريش على قتلها لعلي
أبكي على أبي حكيمة (١) فان جوفى قد احترق من الكدر فخرج
غلامه وعاد يقول

إنما تبكي على بعير لها أضلته فأنشد يقول

أبكي أن يضل لها بعير	ويعتمها عن النوم السهود
فلا تبكي علي بكر وانكن	على بدر تقاصرت الجود
على بدر سراة بني هصيص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي ان بكت علي عقيل	وبكي حارثا أسد الاسود
وبكيتهم ولا تسمى جميعا	فألابي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

وفوق بساط الارض الخضراء . وتحت شجيرات تعافقت فوق بر
عذبة تصفت أوراقها لعزف النسيم وتميد أغصانها بالأحن البلابل . جلس

(١) كنية ولده زمعة

أسامة بن زيد عند الاصميل مع صاحبه زيد بن حارثة وأخذ يشدو
بقول الشاعر :

أبادتنا الكفار في ساعة العمر	ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر	قتلنا مرء القوم عند مجالنا
وشيبة يكبو للبين وللنحر	قتلنا أنا جهل وعتبة قبله
وطعمة أيضا عند نائرة الفتر	قتلنا سودا ثم عتبة بعده
ويصلون فاراً بعد حامية القفر	تركناهم للمعاديات يذنبهم
	ثم قال لصاحبه وهو يمازره

أرأيت كيف أذل الله آتاك قريش فأرسلت رسلها إلى رسول الله
جالسهم ما انفقوا عليه من عدم تقديمه حتى لا يطمع الرسول في كثرة
بل لند حرموا البكاء على قتلاهم بمكة حتى يأخذوا بالثار في ملحمة
قادمة فقدوا في اليوم المطلب السهمي في فداء أبيه أبي وداعة باربعة
آلاف درهم وواني مكرز بن حفص في فداء سهيل ابن عمرو ووضع
رجله مكانه في الفتن حتى ينطلق سهيل في إحضار العداء وأرسلت أم
مصعب بن عمرو بفداء ابنها أبي عزيز بن عمرو ثم أرسلت زينب بنت
رسول الله قلاتها تفدى بها زوجها أبا العاص بن الربيع فوق لها
رسول الله والكنه لم يطلق سراجه الا برضاه أصحابه الا الى ريرا لها
قلايتها على أن يسرح زيد بن أبي يثرب (١) ومن رسول الله بغير فداء على
أبي العاص ووهب بن عمرو وعمر الجمحي الشاعر المعروف بعد أن عاهد

(١) وكان زوجها يحبها ويحسن معاملتها ويأبى أن تفارقه أو يفارقها . وقد
أثر هذا الصنيع في نفسه فأرسلها الى أبيها مدبرة . ثم أسلم بعد ذلك

النبي على ألا يقول في الإسلام حجرا (١) ثم وافى عمر بن وهب أحد
شياطينهم وما أدخلوه على رسول الله حتى أخبره النبي بمؤامراته التي
بيتها مع صفوان لقتله (٢) فشقق عمر شفقة نذاعت أضلاعه لها
أو كادت وقال أشهد أنك رسول الله وقد كنا نكذبك بما كنت
تأتينا من خبر السماء، وهذا وحك لم يحضره إلا أنا وصفوان وما أتاك
بأمرنا إلا وحي السماء فالحمد لله الذي هداني للإسلام فقال رسول الله
فقموا أخاكم في دينه وأقرئوه وعلموه القرآن واطلقوا له أسيره ثم
وافى رهط من بني عوف رجاء في إطلاق سراح عمرو ابن سفيان،
لأن أبا سفيان قد حبس سعد ابن النعمان ومعه غنمه (٣) حتى
يطلق سراح ولده

زيد بن حارثة - نعم لقد أذل الله آفانهم ودحاها في الرغام . .
ولكني رأيت اليوم رسول الله وأما بكر يمكيان بكاء مرآ وجاء
عمر فقال ماذا يمكيك أنت وصاحبك، فان وجدت بكاء بكيت وإن
لم أجد تبكيت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عرض
على عذابكم أدنى من هذه الشجرة (وأشار إلى شجرة قريبة)
ولكني لم أفهم كل الذي أراد رسول الله

(١) ولكنه نقض عهده وطاد مع المنافقين في (أحد) فأمر وقتل وحمل رأسه
إلى المدينة

(٢) وكان قد اتفق معه على أن يقتل رسول الله مقابل التنازل عن دين لصفوان
في ذمته، فيضار له ولده وهب بن عمر أحد الأسرى ويستريح من الدين

(٣) وكان شيخا مسلما قد جاء إلى مكة معتمر الا يخشى الذي حدث له

اسامة - لقد عاتب الله نبيه في قبول القداء عن الاسرى ونزل
عليه جبريل يقول له عن ربه (ما كان لنبى ان يكون له اسرى حتى
يشخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز
حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وما
آتمها جبريل حتى همى رسول الله وصاحبه بالبكاء ثم قال لو نزل عذاب
من السماء لم ينج منه الا ابن الخطاب وسعد بن معاذ لقوله يا بنى الله كان
الانتحان فى القتل احب إلى من استبقاه الرجال

مِصْبَاحُ السُّفَهَاءِ

سر وصوت

على أثر هزيمة قريش في بدر احتجرت كل
ماربحتهم من القافلة التي نجت من أيدي المسلمين
لتعد به حملة من الدعاية الخبيثة ضد الدعوة
الاسلامية تمهيدا لحملة حربية تسترد بها هيبتها
أمام العرب وتنتصف بها من محمد وأصحابه
فاستقبل المسلمون حملتهم الأولى بما هي أهله من
قطع السنة السفهاء المأجورين وابدانهم وفيما يلي
وصف لمصارع هؤلاء السفهاء .

— ١ —

هؤلاء اشرف العرب وملوك
الناس والله ان كان محمد قد اصابهم
لبطن الارض خير من ظهرها .
كعب بن الاشرف

الليل ساجي الزفرات ، طائر النفثات ، فضى الالهاب مفوف الجلباب
لا تسمع فيه إلا حفيف الثياب . ولا ترى في وضاءته إلا رهطاً من البشر
يسير صوب ضاحية (بقيع الغر) في تؤدة وازاة ، مطأطئي الرؤوس ،
كأن ما تحمل رؤوسهم ويشغلها قد أثقلها ، يتقدمهم رجل وبعة (١)
وضىء . . يسبح ذيل عباءته في الفضاء فتخالها أجنحة ملاك ، ويرسل ذؤابة

(١) متوسط القامة

صماته بين كتفيه فتظنها صحابة صغيرة هبطت من السماء، يباعد الحب والاجلال بينه وبين صحابته صامتاً . وتدنى المشورة بينهم وبينه هامساً . وقد ظلوا على هذه الحال ، حتى لمحو أنوار الضاحية نقطا باهتة . كأنها عيون معتكرة في محاجر سوداء . فوقف دونها ووقفوا ، ثم التفت اليهم وقال :

انطلقوا على اسم الله

ثم شخص إلى السماء في عودته إلى بيته وقال :

اللهم أعنيهم . .

فردد القضاء دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وسمع الصحابة ذلك فأمنوا على دعائه ، وعيونهم شاخصة نحو الضاحية التي أصبحوا منها على بعد نحو نصف ميل

ثم دعا محمد بن مسلمة . من وجه عباد بن بشر وقال له في صوت خافت .

أهذا هو حصن كعب بن الأشرف

عباد — إن حصنه خلف الضاحية ولعل نيرانه تلك التي تداوونا من خلال السعف (٢)

الحارث بن أوس — لا علا كعبه ، ولا شرفت بمنله أرومته (٣) ولا رجئت عنه منيته . لقد ضاق هذا الرجل ذرعا بما كتب للمسلمين من النصر . ولم يطق صبراً على ضغيفته ، فقال على ملاء حين علم بقتل

(٢) جريد النخيل

(٣) أصله وأهله

زعماء قريش (هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس . والله ان كان محم .
أصابهم لبطن الأرض خير من ظهرها) .

فترجو أن نبلغه اربته . وننزله إلى بطن الأرض الذي أراد
ابو عبس — ليته اكتفى بما قال يبرد به حفيظته اا ولكنه رحل
إلى مكة واخذ يفتي محافلها ونواديها ومنازل القتلى في بدر ، محرضاً على
الاخذ بالنار من محمد وأصحابه ، وكان آخر ما انشد في ذلك قوله :

طحنن رحا بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتات سراة الناس حول حياضهم	لا تبع مدوا ان الملوك تصرع
كم قد اصيب به من ابيض ماجد	ذى بهجة تأوى اليه الضيع
طالق اليدين اذا الكواكب اخلقت	جمال انقال يسود ويربع



نبئت ان بنى المغيرة كلهم	خشموا القتل ابى الحكيم وجدعوا
وابناربيعة عنده ومنبه	مانال مثل المهلكين وتبع
نبئت ان الحرث بن هشامهم	في الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور (يثرب) بالجوع وانما	يحمى على الحسب الكريم الاروع

ابو نائله — غضبوا من أصواتكم لئلا يكشف أمرنا أحد من
هذه الضاحية

محمد بن مسلمة — ويحك وأى عين لم تنم إلى هذه الساعة يا أخاه !
عباد بن بشر — وياليتك اكتفى بذلك بل عاد إلى (يثرب) وراح
يؤذى اسماع الناس بسفاهاته ويتشبه بفساد المسلمين تلويثاً لسيرتهم

محمد بن مسامة - محتدا - يالمول المصاب لهذا الحد ولغ هذا
الرجل في أعراضنا ؟

عباد - انه لم يدع ممن يعرف واحدا حتى انشد فيهم - واشيب
واطال . وكانت آخر غزلياته ماقاله في أم الفضل بنت الحرث وكان
منها قوله :

اراحل أنت لم تحال بمنقبة	وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء وادعة لو تعصرا نصرت	من ذى القوارير والحناء والكم
يرتج ما بين كفيها ومرفقها	إذا نأدت قيسا ما ثم لم تقم
اشباه أم حكيم إذ توصلنا	والحبل منها متين غير منجزم
احدى بنى عامر جن الفؤاد بها	ولو شاء شفت (كعبا) من السقم
فرع النساء وروع القوم والدها	أهل المحلة والايفاء بالرحم
لم أر شيئا بليل قبلها طلعت	حتى تجلت لنا في ليلة الظلم

أصوات - الويل للهالك بن الهالك

عباد - لعل حيلتنا تم ايلتى مصرعه الليلة فنبر بما تعهدنا به، ونحظى
برضاء رسول الله

وكان السائر بالقرب من الحصن في مثل هذه الساعة المتأخرة من
الليل يشم نسمات المسك تضيع المكان، ويسمع حديث غزل ودعابة تمازجها
قبلات هامة : وتتخللها فترات حارة . لا تختفي حتى تعود ، ولا تعود حتى
تختفي ، بين ديبب المنى ، وانشوة السعادة ، واحلام اليقظة بين زوجين
أغاب النظن أنهما حديثا عهد بعرس . فقطع عليهما حبل هذاهما
صوت ينادي

يا بن الاشرف هلم (١)

فارتعدت العروس لهذه المفاجأة . وأحست في نبرات الداعي نذيراً
مخطر قادم . وعرف كعب بن الاشرف صوت مناديه وصديقه الحبيب
(أبو نائلة) وانه ما أتى في مثل هذه الساعة إلا لخطب ، فهزته اريحية
بسرعة خاطفة ورد على صاحبه قائلاً :

جارك الغيث (٢)

العروس — فازعة — لاجادت بالغيث سماء

وهم زوجها بالقيام فوقفت دونه مما انه مضطربة وقالت :

— انك امرؤ محارب ، وان صاحب الحرب لا يزال منزله في مثل

هذه الساعة

كعب — انه أبو نائلة . وانه لو وجدني نائماً ما أيقظني . وانه لا محالة

في حالة إلى عوني والا لما جاء في مثل هذه الساعة

العروس — اني لا اسمع من صوته شراً واحس منه بقشعريرة

كعب — ان فراقنا منبهة من ليل لا يعد شراً ، على ان الفتي إذا

دعى ولو اطعته اجاب ، فتمنحت عن طريقه واسلمت وجهها لراحتها

واجهشت بالبكاء حتى سمع نسيجها خارج الحصن

وما التقي وجهها حتى ابتدر أبو نائلة صاحبه قائلاً

وجهك والقمر يا بن الاشرف افمن لي بعروس بضمة أستعيد بين

(١) تعال

(٢) كلمة تقولها العرب عندما تلبى رغبة اللهييف

اعطافها شرح الشباب . ان ذكر الندي قال
واقعد ذكرك والرماح فواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
كعب — وكيف أنسى شاعر بنى عبس بمد أن قال في محبوبته
هذا التشبيب الجميل

فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم
فتضاحك الصاحبان ثم قال ابو نائلة
ويحك يا بن الاشراف . اني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك
فاكتم علي

كعب — تحدث فقد صادف شرك مكانه
أبو نائلة — لقد كانت قدوم هذا الرجل (١) بلاءا . . . عادتنا
العرب . ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت السبل ، وأصبحنا وقد
جهدنا وجهود عيالنا
كعب — لقد صار الأمر إلى ما كنت أقول وأحذر . واخيف
منه وانذر

ابو نائلة — ألك أن نمشى صوب شعب (العجوز) فنتحدث
طوقا من الليل في ضوء القمر لشأن ما
كعب — لا تريب علينا ولا شية، فشأنى شأنك وأمرى أمرك
ابو نائلة — ان لي اصدقاء قد سبقوا إلى شعب . (العجوز) وقد
أردت أن تبيعنا واياهم طعاما . ونرهنك ونوثق لك في حقلك ونحسن
في ذلك

كعب — اترهنونني نساء كم ؟
ابو نائلة — وكيف نرهئك نسـاءنا وأنت أشب نهي في قريش
واعطهم !!

كعب — ضاحكا — اترهنونني ابناكم
ابو نائلة — لقد أردت ان تفضحنا في ذلك . وان معي اصـحاب
على مثل رأيي . وانهم ليمتظرون مقدمك ليرهنوا سيوفهم ودروعهم
وزردهم ، وهي اعز ما يملك النقي في قومه
كعب — إذا كان الامر كذلك فهي صفقة غير خاسرة
ثم جذب ابو نائلة وجبة طويلة من الهواء في عمق ثم ارسلها
وهو يقول :

مارأيت كالليلة طيبا اعطر قط فاعملك مصدره
ثم وضع يده على فود كعب (١) ورفعها إلى أنفه وجذب زفرة
طويلة أخرى وقال

— نعم . . انه من فودك

ثم عاد فوضع يده على مؤخرة رأسه ثم رفعها إلى أنفه وجذبها
بقوة وقال

— ان بصيص المسك يطل من حول راسك يا ابن الاشرف
ثم أعادها للمرة الثالثة . وكانا قد وصلا إلى المكان الذي كمن فيه
الصحابة خاف أكمة هناك في انتظار القريصة

(١) مايلي الصدغ من الرأس

وماراي ابوناالة سيوفهم تلمع في ايديهم وانهم منه على مقرية ، حتى
واح يتظاهر بتضميخ يده بالمسك من شعره مداعبا له ، ثم قبض على عنقه
بقوة وهتف باصحابه وقال

— اضربوا عدو الله

وما هي إلا لحظات حتى كانت السيوف تختلف صاعدة هابطة
فوق « كعب »

رسول الله يؤدي صلاة الفجر في محرابه والدنيا حوله خاشعة
لخشوعه . صاغية اترتيله ، واجفة لوجيبه . وخلفه هؤلاء الأبطال
الخمسة الذين تأمروا على السفية كعب بن الاشرف قد انستهم
حلاوة الترقيل متاعب السفر ، وأضفى جماله شفاء على جريحهم فأنسى
آلامه

ثم اقرأوا رسول الله السلام فأقبل عليهم هادئا يتامس في وجوههم
ما يبطنون من انباء ، فابتدره محمد بن مسامة قائلا
هندينا للاسلام بقتل كعب بن الاشرف يا رسول الله ، فرفع رسول
الله وجهه إلى السماء شاكرآ

ثم قال ابن مسامة

كادت سيوفنا لاتغنى شيئا في عدو الله بعد أن هزتنا صيحته الراجعة
حين هو بنا عليه بها نخفنا نجدة قومه له - لولا أعمدت سيفي فوق امعائه

وتحاملت عليه به . حتى وصل إلى ماتحت عانته فتراخت يده ، وفترت
حركته ، وفارق الحياة ، ولم يعكر علينا جمال هذا النصر إلا إصابة الحرث
في رأسه وقدمه بايدينا ، اسرعة اختلاط الاسـياف على كعب ، فبسط
واحته صلى الله عليه وسلم ومر بها على فمه ثم مر بها بعد ذلك على موضع
الجراح من الحرث فعاد أقوى ما يكون صحة وسلامة

هذا قاتله . . انى لأرى فيه
اثر العظام .
محمد رسول الله

ساروا وكانهم كانوا يلاحقون الغزاة وهي تسرع متعثرة في
اذبال الهزار، حتى استوقفهم الظلام في حراسة النجوم . واحاطتهم أطراف
الوحشة من كل جانب . فجلسوا يدرون بعيونهم في رقعة السماء بحثا
عن مطالع القمر يواصلون تحت ضوءه بقية المرحلة نحيقا للمهمة الخطيرة
التي أخذوها على أنفسهم ، وتعهدوا بها أمام رسول الله .
وهبت نسبات الليل زرية ساجية فتلقفتها الخياشيم ناهمة ، وهفت
لها النفوس هائمة ، واستقبلتها العيون حاملة . فغاب الكرى والعناء
بعض الجفون . فراحوا يتأيلون تتأيل الاغصان في مهب الرياح الهادئة
حتى ايقظهم صوت أميرهم ينادى :

— هلم أيها القوم فقد فاض الوادى بنور القمر . . .
فتمطى مسعود بن سنان وتثأب . ثم فتح عينيه على قرصة شهير
مائلة ازاءه على يد عبد الله بن انيس . فغاب نصفها بين ماضغيره ،

ولما يزل نصفها الاخر بين شفئية ، ينتظر دوره ، فتضاحك الصحاب وما
بعضهم على بعض من شدة السرور ، ثم وقف الخزاعي بن أسود ومرح
عينيه اللامعتين في الفضاء المحيط به ، ثم نظر صوب الحجاز وقال :
— ألم نواقع بعد « خير » ؟ ؟

عبد الله بن عتيك — اننا علي مومي النيسال منها . ولو كنت في
مكان الحراسة قبل أن يطل علينا وجه القمر ، لرأيت أنوار الحصن الذي
نقصد اليه عيوننا دقيقة معتكرة .

الخبزاعي — فرحا — أهكذا دنت سيوفنا من رأس أبي رافع
شيخ اليهود ؟

عبد الله — قد دنت والله وحان قطعها .

و كنت لا تسمع في هدأة الليل إلا وقع الاقدام الوئيدة على الرمال
تغيب في فحيحها همسات المتآمرين كلما دنوا من نخيل (خير)

واسترعت انتباههم على حين غرة ، دقات منتظمة تتابع أحيانا
سريعة في ذيل الرياح القوية . وقتباطاً أحيانا أخرى مع بطء الرياح
وهدونها ، فرفعوا أبصارهم صوبها فاذا بها العجلة الهوائية المعروفة
عند الروم باستخراج الماء والتهوية ، فوق بناء شامخ يحرسه جيش من
النخيل المتكاثف ، فعرفوا انه حصن ابي رافع اليهودي ، فنظر بعضهم
إلى بعض نظرة تنادى بالاستعداد .

ثم سمعوا على غرة منهم صريرا قويا ، فالتصقوا بالنخيل في سرعة

خاطفة حتى لا يراهم أحد . وإذا بحارس الياب يتقدم بمصباح في يده أمام شيخ مقوس الظهر طويل اللحية ، تحف به جماعة عليهم ثياب معصفرة أكبر الظن أنه كبير أبحارهم في حاشيته وتلاميذه ، ثم جاء حارس آخر يسعى أمام رجل فضفاض الثياب . رجراج الجلاب ، وضئ الوجه ، لامع العينين ، مرسل الشعر ، كأنه مرآة مصقولة في أطار ذهبي ، فضغط ابن عتيك على كتف صاحبه عبد الله بن انيس ، فالتفت إليه فأشار له بإصبعه صوب الحارس وسياه ثم همس في أذنه وقال .

هذا هو صاحبنا !

فأوما ابن أنيس برأسه إيماة فهم منها أن هذا هو (أبو رافع) ضحية هذا المساء ، وما اختفى ظل أبي رافع حتى سارع عبد الله بن انيس إلى داخل الحصن يقود صاحبه من يده ، واختفيا بمناخ الأبل وكلما تناقلت الساعات وتباطأ الزمن ، وأهضمهم الانتظار ، مد أحدهم يده في الظلام يضغط بها على صاحبه يستنهضه إلى الصعود لاقتناص الفريسة فيسيران في بظء وحذر ، يتحسسان الطريق ويتلمسان المنافذ ، حتى إذا رأوا أنوار المصباح تسعى أمام حامله عن بعد وسمعوا وقع خطوات الحراس لا تهدأ لها حركة - طابوا أدراجهم في سرعة القطا وخفته . فيتلاومان بالإشارات ، ويتعاطيان بالكزات ، ثم يلوذان بالصمت جامدين عن الحركة محتبسي الأنفاس .

ثم سمعا حديثا قائما بين الحارس وآخر تمازجه خطوات متقطعة غير منتظمة لاتأخذ في سيرها طريقا معتدلا كما هي عادة الحارس أكثر الليل وهو يودع سمار سيده وجلسائه ، وإنما تتلوى وتتعرج وتدور

حول نفسها في أكثر من مكان ، فعلم الصاحبان أن المجلس قد خلا من رواده ، وأن دور التفتيش للتأكد من خلو الحصن من الكائدين قد جاء ، فقاذ أحدهما صاحبه برذعة حمار ليختبئ تحتها ، واحتفظ لنفسه بولية (١) من ولايا الأبل ، وجاء دور المناخ في التفتيش سهلا سريعا وخرج الحارس الفصير ومعه صاحبه إلى الباب العام يفلقانه ويؤكدان نتاجه ، فانتزها ابن انيس فرصة ، وأطل عليهما من كوة المناخ وعرف أين علقت المفاتيح .

طنين كأنه حلم ، ثم نفا وتضخم حتى صار صدى قويا أطار الكرى من رأس أبي رافع اليهودي ، فاستيقظ شهوره قليلا وراح يتسمع ما أيقظه ، ثم غالبه النوم بسرعة فعاد القرع كما كان ، وعاد أبو رافع إلى يقظته فرفع رأسه قليلا فسمع القرع وجلس يمسح عينيه كأنه يزيل منها آثار النوم وبقاياها ، ثم استيقظت زوجته وقالت من باب .

صوت — افتح يا أبا رافع

الزوجة — جازعة — أنا والله صوت ابن عتيك .

أبو رافع لزوجته — ثكلك أمك . عبد الله بن عتيك بيثرب .

أين هو منا في هذه الساعة ؟

الزوجة — أنى لأحس بزهوة (٢) شر قادمة .

(١) الولية المعروفة عند العامة بعدة الجمل وجمعها ولايا

(٢) حرارة .

أبو رافع — افتحى: فان الكريم لا يرد عن بابه في مثل هذه الساعة
فقامت صوب الباب تقدم رجلا مرة اذعانا لرغبة زوجها. وتوخرها
أخرى تحت تأثير ما وقع في نفسها من فزع .
وما التي وجهها في وجه الطارق حتى صاحت .
— وازواجه أنه ابن عميك . . .

ولم تسكد تنمها حتى هجم عليها ابن انيس ووضع يده على فمها
بينما انقض ديد الله بن عميك على أبي رافع بسيفه . وكلمها حاولت أن
ترفع يده عن فمها لتستغيث، رفع سيفه عايبها ليقتلها، ولكنه ما لبث أن
تذكر وصية النبي له في أن لا يقتل امرأة ولا طفلا .

ولكنها ما فتئت تدافع عن نفسها وتصارول خصمها في قوة وعماد
وقد أثار نائرتها رؤيته السيف لأمها في الظلام يعلو ويهبط فوق زوجها
فيتناثر دمه هنا وهناك . وخصمها ما فتى . بدوره يجالد نفسه ويروضها
على الاحتمال والاصطبار حتى لا يشتد غضبه عليها فيقتلها، ويخالف
ذلك وصية رسول الله ، وما أنهكها التعب وتمشى فيها الاغماء . حتى
كان قد عاد ابن عميك فهمس في أذنه .

— تقدم فذفف (١) على الرجل قبل فوات الوقت .
فدخل ابن انيس فألفاه سابحا في دمه فوضع ظبية السيف في بطنه
وتحامل عليه حتى نفذت من ظهره ، وخرج مسرعا يقول لصاحبه .
النجاء . . . النجاء .

(١) أجم-ز .

ثم تقدم يفتح الابواب التي كان قد أغلقها خلفه وعدا نحو أصحابه
ولسكنه لم يكذب يصل إلى مكانهم حتى سمع صوت ابن عتيك يقول
وارجلاه . . . وارجلاه ..

فسارع القوم إلى مكانه فالفوه قد ضل طريق الخروج فهوى من
عل، فكسرت ساقه، وما احتملوه حتى سمعوا صوتا يصيح .
وايبتاه وازوجاه ..

فسارعوا به إلى أول كهف وضمدوا رجله بعلمته ، حتى لا ينزف دمه
وما هي إلا ساعات حتى كانت الآكام والافنية الواقعة حول خيبر
قد غشيتها أضواء المصابيح الكثيرة ، تمشي بين يدي اليهود الذين هرعوا
على الصياح باحثين عن قتله أبي رافع سريهم وسيدهم ، كالجراد المنتشر
يعاو وجوههم الفزع والوجوم . بينما تطل عيون المتآمرين من أحد
الكهوف العالية هناك . وكما شاموا (٢) نورا يتجه نحوهم ، علت دقات
قلوبهم وجفت حلاقيهمهم وسارعت أنفاسهم ، ولكن برد الاطمئنان
وهدهوء الايمان لا يلبث أن يعاودهم فتحمدوا قلوبهم وتلج صدورهم
فينتظرون المقدور في سكينه وسلام .

ثم تذكر ابن انيس فجأة، أنه نسي قومه على دوج الحصن ساعة أن
ذهب لاغاثة ابن عتيك، فذا امر مأخره قروي وأخذ طريقه إليه فألقى القوم
يسأل بعضهم بعضا في الطريق .

— من طعن أبو رافع ؟ من طعن أبو رافع ؟ وكانها كلمة الوحي

(٢) رأوا

نرات على بنى اسرائيل، أو ترنيمة يرددونها عند حلول المصائب. فكان
ابن انيس كلما اتى فردا أو جماعة بادوهم

— من طعن أبو رافع؟ من طعن أبو رافع؟

وظل كذلك حتى دخل الحصن واحتمل قومه والناس في هرج
ومرج ونزول وصعود.

يئمت اليهود من البحث عن القتلة وعادوا أدراجهم فاحتمل
الصحابة جريحتهم وعادوا به صوب يثرب.

وقبل انبلاج الفجر حمل الأثير إلى آذانهم صوت الناعى بقول:

انعى أبا رافع .. انعى أبا رافع .. وباح أهل الحجاز.

فشهقوا جميعا وكانما قد استفاقوا من غشية ثم رددوا فى صوت

واحد.

— حمد الله.

ثم قال ابن عتيق.

— والله ما كان خوفى أن يظفروا بنا بقدر خوفى على أن لا يموت

هذا الكلب الجمع، الذى طالما اساء الى رسول الله، ومد يداذى إلى

صحابته، وألب الأحزاب على المسلمين، وأثار قريشا لحربهم .. وكم

كانت الحياة عزيزة فى عينيه، فطالما دافع عن نفسه حين هجمت عليه

بسينى واستمات فى الدفاع، وحال بينه وبين السيف بالوسائد يضع بعضها

فوق بعض.

ابن انيس — الآن قد أديننا واجبننا وأرحنا ضمائرنا حتى لا يهاخرنا

الايوس يقتلهم كعب بن الاشرف ، ولا يذهبوا بها فضلا علينا عند
رسول الله ابدأ .

ابو قتادة - نعم لهنأ الخزرج بما فعلنا ولتقر بنا عينا .

رسول الله في المسجد واصحابه حوله كالمسألة حول القمر يأمر
وينهى ، ويفسر ويشرح ، وقلبه الخنون الفيض مشغول بالابطال الخمسة
الذين ذهبوا لاغتتيال ابي رافع اليهودي . فكان يغطي انشغاله بهم
باقتسامته المشرقة ، ويسترحق حنينه اليهم بمداعبة أبناء الصحابة . ويسرى
عن نفسه بالحديث والدراسة . وبينما هو كذلك وإذا بالصناديد الاربعة
يدخلون المسجد . وبين ايديهم عبد الله ابن عتيك يئن ويتأوه وعلي
شفاهم ابتسامة النصر يمازجهم - اشى من الحزن على ما أصاب صاحبهم
فأفصح لهم صلى الله عليه وسلم في مجامعهم ورحب ، بمقدمهم ثم
قام فعاون في وضع الجريح على الارض ثم كشف عن ساقه وابتسم .
ثم وضع يده على فمه الشريف ، وتلا كلمات ثم مر بها على موضع الكسر
فخبرها الله وعادت كما كانت ، وانتصب أبو عتيك واقفاً كأن لم يشك
بها من قبل .

ثم راحوا يتصون عليه قصةهم ذهابا وايابا ، ثم اختلفوا حول
القاتل لابي رافع فادحاها كل من عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس .

فقال لهم الرسول : - هاتوا سيوفكم

فجاءوا بها . فنظر اليها صلى الله عليه وسلم وقلبا ثم تفقدها مرة
أخرى ، ثم قدم لعبد الله بن عتيك سيفه ثم رفع سيف ابن أنيس وقال :
هذا قاتله أتى لارى فيه أثر العظام .

يامعشر يهود ، احذروا من
الله مثل ما نزل بقريش من
النقمة ، وكفوا عن أذى المسلمين
واحفظوا عهد الموادة ، أو ينزل
الله بكم ما نزل بهم .
مجد رسول الله

الناس تتداعى من كل ناحية صوب جثة يهودى تنطف من جراحة
دماء غزيرة ، واليهود ممسكون بمسكون بمسلم يدعونه (١) تارة بأيديهم ، وأخرى
بمطارق الحلى ، وثالثة بسيوفهم ، حتى تراخت أعصابه وتهافتت قواه ،
وهوى إلى الأرض مضرجا بدمه ، يضربه الأطفال بأيديهم ، ثم
لا يسعفهم ذلك فيركلونه بأرجلهم الصغيرة ، ثم يشخصون إلى آباءهم
يستقبلون منهم بسمة الارتياح والرضا ، ثم هودون إلى الضرب والركل
وتمزيق ثياب المحتضر ، وفي نهاية الدرب وقفت امرأة قبالة حانوت من
حوافيت الحلى تصيح بأعلى صوتها .. يا للمسلمين .. بينما أخذ صاحب
الخانوت يتوسل اليها أن تكف عن الصياح فلا تكف ، فينظر عن يمينه
(١) يفتح فضم فتشديد أى يضربونه .

وشماله في سرعة، ثم يدخل إلى حانوته يجمع ذهبه وحليته في حرزها
استعدادا لاغلاق حانوته قبل أن يجتمع الناس، وهو من شدة الرعدة
لا يكاد يحسن شيئا مما يريد أن يصنع. وطارت أنباؤها إلى احياء يثرب
ونواديها، فزحف المسلمون تلمع السيوف في أيديهم فرادى ومثنى،
وتسابق اليهود إلى مكان الحادث الفاجع زرافات ووحدا. ثم وقف
الجمعان إزاء بعضهما في معسكرين ملتئين ولما نزل صفوفهما أستقبل
وافدين جددا من الفريقين، يتقد الشرر من عيونهم. وبتطاير الموت من
سيوفهم، لولا مسارعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكان
الحادث في سوق الذهب والحلي، ووقوفه حائلا بين الجمعين أن يلتقيا
في حرب ضروس لم يأخذها المسلمون كل الأهبة والاستعداد، ألقى
رسول الله على الجمعين نظرة فاحصة، ثم أطرق طويلا يوازن بين القوتين
ويستعرض الموقف من جميع نواحيه، ليرى رأيه في حربهم أو مهادنتهم
حتى يستجمع المسلمون قوتهم لقتالهم في ميدان يروا فيه غصن النصر
أدنى إلى أيديهم من ذلك، ثم نادى صلى الله عليه وسلم ورفع رأسه وشخص
إلى اليهود وقال :

يا مشريهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وكفوا
عن أذى المسلمين، واحفظوا عهد المواعدة، أو ينزل الله بكم ما نزل بهم
فهاج اليهود وماجوا، ورفعوا سيوفهم يلوحون بها في الفضاة وسادت
الجليلة والضوضاء.

ثم شوهد عبد الله بن كعب يغالب صفوف اخوانه اليهود ويمار كها

كأنه سبحانه يصارع الأمواج مصارعة في خضم هائج ، حتى وقف أمام رسول الله وهو يلمث من أثر الانفعالات التي تجيش بنفسه ، والاعياء الذي أصابه — وقال :

لا يفرك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب . فأصببت منهم فرصة . إنا والله لن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس .

فخاص اليهود حبيصة الفرع ، وعادوا يتوعدون بأشاراتهم وبلوحون بأسيا فهم . ويكيدون بغمزات لحاظهم ، ورفع حواجبهم ، واتساع محاجرهم واستطالتهم وتقاصرهم ، وإرسال النكات سخريه واستهزاء .

فأمر رسول الله المسلمين بالانصراف فأشدت الجلبة وزادت الضوضاء والسخرية وإن لم تتجاوز مكانها رعبا من المسلمين وخوفاهم .

ثم استدعى كبار الصحابة إلى جلسة خاصة للمنظر في الموقف ، وما يمكن أن يتمخض عنه من تطورات ، ثم أفضى إلى كل منهم بهيمته التي

أسندت إليه ، واسترعى النشاط وشدة الحركة نظر اعرابي واقع يثرب من الضواحي ، فاستوقف ناقته بالقرب من المنازل النبوية وأخذ ينظر

إلى الصحابة منصرفين من لدن الرسول في حدة وحزم وسرعة ، فأخذ الاعرابي يستقبل هذا بنظرة ويشيع ذلك بأخرى ، ويتابع ثالثا بثالثة

ويتأمل رابعا برابعة ، عساه ان يصل إلى تفسير لهذا كله فلم يظفر بشيء . ألحت عليه غريزة الاستطلاع واشتدت . حتى لم يبق مجال في صدره

للصبر ، فاعترض بناقته طريق عبادة بن الصامت يسأله .

مامر هذا الفرع يستولى على الناس ؟؟ أكو قريش على « يثرب »

تأخذ بثأرها في بدر ؟

عبادة — الأمر أهون من ذلك . انها امرأة من العرب قدمت بحلي
لها لتبيعها في سوق بني قينقاع فجلست إلى يهودى بها . فجعلوا
يريدونها على كشف وجهها وهى تآبى عليهم ذلك ، فجاء يهودى من
خلفها وعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها بشوكة في السر ، فلما
قامت انكشفت سواؤها ، فضحكوا منها فصاحت بالمسلمين فوثب رجل
من المسلمين على اليهودى فقتله ، وشهدت اليهود على المسلم فقتلوه
فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين على اليهود ، فسارعوا من كل جانب
وكادت تقع الواقعة بينهم وبين اليهود لولا حزم رسول الله .

ثم رفع (عبادة) يده يحجب عن عينه أشعة الشمس ليرى محدثه
الجامد في مكانه . فالفاه تمثالا فاغر القم . جا حظ العين ، متجمد الجبهة
كأنه أدرك ما وراء ذلك ، وأنه حادث لن يمر قبل أن يحتاح في طريقه
الأخضر واليابس ، فاستحقت ناقته شارد الدهن مأخوذ اللب ، وسار إلى
حيث شاء أو شاعت ناقته ، رأى عبادة ينظر في عجب إلى هذا الذى
خادره قبل أن يسمع منه شيئا أو يقرئه سلاما .

رفعت الشمس فتأبها على رماح وقسي ورايات وبنود ، وخوذات
وزرود « ١ » ومشاة وركوب ، يرسمون دائرة متشابكة حول قينقاع
يسودها حزم صارم . ويملوها صمت رهيب ، وترمقها عيون من
كوى « ٢ » اليهود نافذة زائفة ، وتدق بين يديها قلوب دافقة واجنة وتحوم
فوقها اشباح مزعجة راجنة .

(١) جمع زرد وهو ما يلبس في الحرب

(٢) جمع كوة وهى النافذة

خمسة عشر يوما وهذه الدائرة البشرية قائمة بين اليهود وما يحتاجون
من ميرة وذخيرة ، يقتاتون باللحم والتمرات ، ويتبلغون بالثمالة
والصبابات ، وينقبون عن مخرج من هذا الجحيم ، حتى شام المسلمون يوما
وايات بيضاء ترفرف على منازل اليهود شارة العجز وعلامة التسليم .
فسرت في المسلمين نشوة الفرح ، ومحت آية البشر سطور الصمت
والصرامة ، ثم طاد كل ذلك اليهم على أثر ما همس به عمر إلى رؤساء
الفرق والالوية ، فراح كل يشهد سيفه من جديد ، أو يلمس شفرته في
رفق كانه يوقظها للكفاح .

واسترعى نظر المسلمين عن بعد ، صوت رجل سامق الطلعة وفاف
الثياب ، يجر نصف عباءته على الارض ، يسير مسرعا في فزع ، ويشير بيده
صوب رسول الله ويصبح .

على رسلك يا محمد ... على رسلك يا أبا القاسم ..
فتها من المسلمون وسمع صوت أحدهم وهو يقول .
هذا حليفهم وحاميف المسلمين عبد الله بن ابى بن سلول .
ثم جاء فوقف دون رسول الله مبهور الانفاس منتفخ الانف
متمقع الوجه ، وقال يا محمد احسن في موالى « ١ »

فلم يظفر من النبي بجواب ، فكرر عليه الطلب فاعرض عنه النبي
وشاح بوجهه متشاغلا بحديث مع صاحبه أبى بكر ، فادخل ابن سلول
يده في جيب درع النبي وضغط على أسنانه تنز من الغيظ وجذب
رسول الله اليه فظهرت علامات الغضب على وجه رسول الله فتقال له

« ١ » بتشديد الياء لانهم كانوا حلفاءه

أرسلني ...

فلم يرسله ابن سلول وراح يحملق في عين النبي متقاص الوجه، محتمق
الدم ، باوز الاسنان . فقال له النبي مرة أخرى أرسلني ويحك . .
ابن سلول — والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي . . اربعمائة
حاصر (١) وثلاثمائة دأرع قد منعوني من الاحمر والاسود تريدان
تحصدهم من غداة واحدة! انى والله امرؤ ، اخشى الدوائر وأنهم موالي
ومو الى صاحبك عبادة بن الصامت ، فمزع عبادة الى النبي وقال :
أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حلف
هؤلاء الكفار ولايتهم (٢) فمقط في يد ابن سلول وازداد غيظا بما
سمع يقطع عليه جبل الوقيعة التي أرادها من قواته حتى سمع لاسنانه صرير .
عاد النبي إلى سكينته يفكر في أمر هذا الرجل ولما يزل له بعض
الساطان على يهود ومشركي يثرب ، من الاوس والخزرج ، أيهاده حتى
يستل منه بقية سلطانه ، أم يحاربه فتنضم جماعته إلى بني قينقاع وقد
يضخم أمره ويستفحل شأنه فتخلق في يثرب دولة أخرى شوكة في
ظهر المسلمين ، ولكنه إذا هادنه ، فماذا يكون المصير لبني قينقاع بعد
ان تمردوا عليه مرات وأتوا بفاحشتهم المنكرة مع هذه المسألة .
هذا ما كان يدور بخلد النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن سلول

« ١ » بلاد درع

« ٢ » وفيه وفي عبد الله بن أبي بن سلول نزلت آية « يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ،
ومن يتولهم منهم فانه منهم . الآية »

جالس على الارض يدور برأسه تحقيق أمنيته في العفو عن حلفائه اليهود، فيجري الدم في وجهه مرحا وسرورا، ثم يعاوده الخوف من الرفض بما يحمل من خيبة، فيمتقع وجهه، ويجف ريقه، ويدعى له بالماء فيدخله فيه ثم لا يسيغه، جزعا فيمجه بجواره . مستكرها له .

وكانت ساعة خروجه فاصلة يقرر فيها مصير قبيلة بأسرها قد نيفت على السبعائة محارب ، يتيم بعدهم أطفالهم وتترمل نساؤهم ، ويفقد بعدها حليفهم عبد الله بن سلول آخر سهم من هيبتة وكرامته .

واستفاق عبد الله بن سلول على صوت النبي يأمر بالعفو ، عن بني قينقاع . على أن يجلو عن يثرب تاركين ما لهم من ذهب وثروة، على أنه أراد أن يتصل برسول الله بعد أن اطمأن على حياة حلفائه ليستصفحه عنهم في أمر الجلاء عن يثرب ، فوقف دونه عمر فأغاظ لعمر القول فضربه عمر ضربة شج لها رأسه ، فعاد إلى قومه وحلفائه والدم يخضب وجهه إثارة لهم . ولكن واحدا منهم لم يتحرك له ولم يثر لجرأحه رغبا من المسلمين .

مالت الشمس صوب الغروب تودع جيشا ضحيا يجر أقدامه صوب الشام في ماتم حزين . هذا شيخ يرتطم بصخرة فيهتز ضعفاً ، ثم يقع متأوها . وهذا طفل انهكه السير وأمضه فراح يتباطأ وهو يعرك عينه باكيا من الاعياء . فتسيل له نفس أمه حزنا وشفقة ، ثم تهوى اليه فتحمله على ذراعها الثاني قبالة أخيه الرضيع . وهذا رأس العائلة وعمادها يعاني مرارة السير تحت أنقال المتاع ، ويزيد في آلامه ومرارته ما يرى عليه زوجه وأولاده وأباه وأمه ، لاهئين من الضنا والشقاء ، ويحز في كبده

ما خلف من ثروات كان يتمنى ان تاكلها النيران، أو تدفن في قرار البحر
دون أن يستولى عليها المسلمون الذين دخلوا (يثرب) ضيوفا فاستحالوا
فيها سادة وحكاما، ثم انقلبوا قساء مستعمرين .

هذا ما كانت تتحدث به عين عبد الله بن كعب دون أن ينبس ببنت
شفة، ثم وقف ووقف معه الجميع تحت سحابة من التراب الثائر ثم أرسل
نظره مع غروب الشمس إلى يثرب أو دعها كلما بنفسه من أسى وحنان .
ثم سرح نظره فيما حوله من رسوم الألم واطلال الحزن، ثم نظر إلى
حايفه عبد الله بن سلول مطأطئه الرأس جازع النفس مكتئب الفؤاد
مطرقا جامدا، كأنه قطعة من الصخر، فالتفتي نظره بنظره وقد عقد الموقف
لسانها، ولم تكن الا شهامة طويلة ارتفع لها صدر بن كعب، ثم أرسلها
زفرة حارة كأنها زفير بركان ثائر، ثم عالج لسانه وغالبه حتى استطاع
أن يقول له حين وداعه .

والله لا تقوم ببلد يشج فيه رأسك يا ابن سلول وأن كل ما تركناه
فهو دونك ثم تصالحا إلى غير لقاء .

من ظفرتهم به من رجال يهود فاقتلوه
محمد رسول الله

وجلسوا دون البئر يتسامرون تارة ، وينظرون تارة أخرى إلى أهل
يثرب ، وقد غادروا منازلهم يستقبلون فسحات الليل الندية وحدانا ومثنى
وقد عقد الحرور عليهم لسانهم ، وألبستهم الوحشة ثوب السكينة
والهدوء ، فكانوا كأنهم أشباح ضالة في الصحراء ، أو أطيان هائمة
في الفضاء.

وامتدعى انتباه المتسامرين صمت سالم ابن عمير ، لا يشارك جلساءه
أطراف الحديث ، ولا يبدي ملاحظاته على ما يسمع أو يرى ، ولا يفتأ
ينظر إلى مواقع النجوم ، كأنه يهدأ أو يحتسب بها وقتا معيناً. ثم
يعود فينحني على نفسه ويلامس شفرة سيفه في حذر وترفق ، ثم يرفع
رأسه ويحرك لسانه بكلمات عميقة خافتة قباغته عميرة صاحبه قائلاً:
ويحك ياسالم ! مالك الليلة قد لذت بالصمت كأن شأنا خطراً
قد أهمك !؟

فنظر سالم إلى محدثه نظرة حادة حائرة ، ثم أرتأ أن يارتد بصمته مرة

اخرى ، لولا أن استقبله صوت صاحبه محمداً .

تحدث يا هذا فان شأنك شأن الجميع .

أصوات — إى وربى

سالم بن عمير — لاخطووة ولا هموم . ولكنها ذكريات (بدر)

تطوف صورها برأسى بين الحين والحين .

عميرة — بدر ؟ كان بدرأ كانت بالأمس فقط ! ! لقد عفى الزمن

على موتها وهضم (القلب) صرعاها ، وأمسينا من قريش على باب

ملحمة جديدة .

سهيل — متأوهاً — إن قريشاً لا شرف في خصومتها للإسلام من

هؤلاء اليهود ، أكرمنا جيرتهم . واحترمنا عقيدتهم وأنمينا ثروتهم ولما

نزل دسائسهم تألب علينا القبائل وتثير علينا حلفاءنا . وهؤلاء حلفائهم

من المشركين ما فتئت ألسنتهم تنشر قبيحة السوء فينا ، حتى ذهب بأشعارهم

وتقولاتهم الزكبان . تشوه من جمال الإسلام وتنال من رسوله

عليه السلام .

فشق سالم بن عمير شهوة طويلة ثم أرسلها زفرة حارة ظن جلساؤه

بعدها أنها غطاء مافي صدره من هموم وأمرار ، فشيخصوا إليه

يستمعون في لهف ماسيتبع ذلك ، ولكن مضت الثواني والدقائق —

وأفاسهم محبوسة وأحاسيسهم مرهفة — قبل أن يبوح بشيء . فنظر

بعضهم إلى بعض في تفحص واسترابة ، ثم سمع بعد ذلك صوت في نهاية

المجلس يقول :

لا بد أن يكون الخطب جلالاً

سهيل - وما الحيلة وقد حاولنا جاهدين ان نتعرف خطبه او نخف
كوبته فلم نفرز منه بطائل .
فأخذ عميرة يجمع أطراف إزاره استعدادا للعود الى منزله وهو يقول
- يوعى الله سالما ويكلؤه
سهيل - اذن فخذ الرفيق قبل الطريق فان الليل قد تصرم أكثره
فهد - خذوناني معكم فاني مشوق الى ام سعيد !! (١)
أصوات - ضاحكة - سويا ان شاء الله

وإذ ذلك قام كل من في المجلس إلا سالم بن عمير الذي ظل في مكانه
مطرقا صامتا مأخوذ الذهن كأن لم يحدث حوله ما يستحق الالتفات
ثم اتجهوا الى منازلهم في يثرب متتدين صامتين ، كأن كلا منهم
يسأل نفسه عن هذا السر الغامض الذي تنطوى عليه نفس سالم بن عمير
الا يرضى بالبوح به أو التلميح اليه ، فقطع عليهم صمتهم سهيل بن فهر قائلا
- ا كبرالظن أن عميرا يعتزم الليلة خطبا جسيما واقد كنت اقربكم
اليه ولقد سمعته يردد زافرا (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه)
كان يقولها ثم يسكت ، ثم يقول نعم فاقتلوه وحلقاه معه
فقاطعه عميرة قائلا

والله انه لحديث رسول الله سمعته في ملا من الناس ، فاعله تأثر به
وأخذ على طاقته ما أخذ مغتالي كعب بن الاشرف وأبي رافع اليهوديين
على أنفسهم ، من خلاص المسامين من دسائسهم والسنتهم الحداد .

(١) يقصد زوجته

عميرة — ولقد رأيت به بالأمس يشحذ من سيفه ولقد شمت (١) الليلة
شفرته وكأنها أنياب صل (٢) ماته ، فضحك «سهيل» ضحكة رددتها
أصداء الليل وقال :

كأننا سنسمع غدا عن مصرع عير (٣) جديد .

عميرة — إذا ذهب عير فعير في الرباط

فهر — ادفنوا أمره في احشائكم وانظروا ماذا ينفرج عنه نور
الصباح ، لعل ماتوخيناه حدس لا يواقع دخيلته

وكان السائر بالقرب من حى بنى عوف يسمع صرخا ونعيبا ،
وبكاء ونحيبا . فاذا مادنا من الحى استقبلته الجلبة والضوضاء ،
بالسوق والمناكب ، يخلق على الجميع وجوم وفزع . ويعروهم أذعر
وجزع . ويتخللهم تلفت وهلع . ثم سكنت الضوضاء فجأة على صوت
عملاق عريض المنكبين مرسل الذؤابتين (٤) يتحدث إلى الناس مبهورا
جاحظ العينين . ويقول :

لئن كان في العمر بقية لننتقم من قاتل أبي عهك شاعر بنى عوف
وسيدها المطاع . وليعلمن نبأه بعد حين .

كانت الساعة ظهرا والقيظ لافحا . والناس تتداعى على صوت

(١) رأيت (٢) ثعبان (٣) بفتح فسكون « حمار » (٤) ضميرتين
من الشعر يرسلها شجعان العرب وسادتهم على الاكتاف .

حويصة بن مسعود يأخذ بتلابيب أخيه حبيصة الصغير، ويتلاحى معه في عنف وشدة، وحببيصة لا يرد عن نفسه طادية أخيه (١) ولا يحاول الخلاص منه كولدبار وقف دون أبيه الهرم يؤنبه ويؤدبه في قوة وصرامة... قطع سعال الكبر على حويصة تلاحيه، وإن لم يرفع يده من تلابيبه ليستأنف المشادة من جديد، حتى إذا سكن عنه سعاله عاد يقول له :

كأنكم يا أصحاب محمد لا تريدون أن يبقى على ظهرها سواكم وصاحبكم، بالأمس اغتاتم كعب بن الأشرف ثم أبا رافع اليهوديين، ثم أنا عفاك، ثم سمحت لكم أريحيتمكم أن تقتلوا نساء بنت مروان لمجرد أنها نالت من صاحبكم في شعرها قدحا وهجاءا ولم يرحم قاتنها عمرو بن عوف — ذلك الأعمى (٢) — عليها أولادها الصغار يرضعون ثديها إذ ذاك، فنجاهم عنها وأدخل سيفه في صدرها حتى نفذ إلى ظهرها. ثم يتعدي بعد ذلك أهلها حين سأله عن جريمته فيقول لهم (نعم ! ! فكيعدوني جميعا ثم لا تنظرون. فوالذي نفسي بيده لو قتلتم بأجمعكم ماقات. لضربكم بسيفي حتى أقتلكم)

ثم عاد حويصة السعال مرة أخرى، ولما تزل يده ترتجف في مخنق أخيه، ثم استراح قليلا وراح يقول وقد أجهده الأعياء :

وأخيرا يا بن مسعود تعندي أنت علي ابن شبيمة اليهودي يجاورنا

(١) أخوه الأكبر علي الرغم من إسلام حبيصة وكفر حويصة إذ ذاك (٢) لم يكن أعمى ولكنه كان ضعيف البصر وإنما وصفه بذلك مبالغة في الشتم والتحقير

ويلا بسنا ويقاسمنا شر الحياة ونعماها

ثم اخذ صدره يرتفع وينخفض من شدة الانفهاك . قد محيصة يده
يخلصها يد أخيه من تلايبه ليريح ويمتريج ، دون أن يؤذيه أو يهينه
احتراما لوقاره وشيخوخته ، فنار حويصة في وجهه ثورة الاسد الهرم
ديس عربنه ، فجمع كل قوته وغضب غضبة ترنج لها عوده . وتراخت
يده فأدرك الأرض بآخر انفاسه . فوقف أخوه فوق رأسه مطرقا متأثرا
لضعفه ، وحاتقا على صخره ومشادته فيما لا يؤمن به ، ثم سمعه يقول في
رعشة المرتجف وهذيان المحموم (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه)
هكذا يحرضهم صاحبهم محمد ، على ازهاق أرواح جيراننا وحلفائنا !
ثم ضحك ضحكة هازئة ساخرة ، فبلغ حنق محيصة على أخيه غايته ولم
يستطع الاضطبار عليه بعد ذلك فرد عليه محمدا وقال :

صمن يا هذا .. والا ..

فعمادت القوة إلى الرجل من جديد عزة وابهاء ، وجهت عينه ، في وجه
أخيه وقال .. والا ..

والا ؟ ! والا ماذا ؟ تحدث يا ابن أمي لملك تريد أن تقول
والا قتلتك . ولا غرابة في ذلك . فان الذين قتلوا امرأة بين أولادها
الصفار بالأمس ، لا يتورعون عن قتل شيخ تقدمت به السن
وكساه المشيب ..

محيصة — انها مصارع السفهاء يوافون في أعراضنا ويرسلون الشعر
قحة وسوءا في نسائنا ، ويخمشون الجراح الجائنة في خصومنا ، ويؤلبون

علمنا اعداءنا، ويثيرونها شعواء ، تذهب فيها الارواح وتراق الدماء ،
فالقتل أقل جزاء لثؤلاء الاذنياء .

حويصة — هامداً — ولكن ..

ثم خنقته الدموع فلم يستطع أن يكمل كلامه، فسكت هنيهة ثم عاد
إلى معالجة الحديث أكثر هموداً مما كان وقال :

.. ولكن ابن شبيبة جار وفي كريم .. والله لرب شحم في بطنك
من ماله ..

حبيصة — والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت
عنقك

فاستند حويصة على راحته مرة أخرى ، وشخص إلى أخيه
مبهوراً وقال :

والله لو أمرك بقتلي لقلتني ؟!

حبيصة — نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربت بها .

حويصة .. والله ان دينا بلغ بك كل هذا لمجيب (١)

حبيصة — هكذا والله يا ابن أمي ثم أنشد يقول :

يلوم ابن امي لو أمرت بقتله	لطبتمت زفراه بأبيض قاصب
حسام كلون الملح اخلص صقله	متى ما صوبه فليس بكاذب
وماسرني أني قتلتك طائعا	وان لنا ما بين بصري ومأرب

(١) وهنا بدأ الاسلام يدخل قلبه نائراً بإيمان أخيه حتى أسلم

بعد ذلك .

الفراشه

بسم الله

لما هزمت قريش في بدر وطاحت ببعض
أولاد أبي سفيان وأصهاره ، نذر ألا يقرب
فراشه ، ولا يفتسل بماء ، ولا يدهن بطيب ولا
يذهب من شعره - حتى يغزو محمدا في حجر يثرب
ثم رأى أنه سيمر به وقت طول يستقبله
حزينه إلى فراشه ويطول فيه شعره ويبتن ربحه -
قبل أن يوفي بنذره ، فسافر ليلا إلى يثرب واشعل
النار في نخيل الضواحي زاعما أن هذا يحمله من
فذره وفي هذه الصورة ما يوضح مهزلة من
مهازل أبي سفيان في جاهليته

صدي طرق علي الباب يسرى إلى أذنه هامسا، لا يسكنه يوقظ نائما
ولا ناعسا. ثم ارتفع الطرق قليلا في دأب والحاح، فزق من نسيج
نومه وأمسى شبه حالم تتجاذبه حبال اليقظة والنام، ثم زاد الصدى
في أذنه فرفع رأسه قليلا من فوق الوسادة يتبين الطرق أحقية بقظة
أم طنين أحلام: فأدرك أن هناك طارقا فتشأب وتمطى ومسح عن عينيه
آثا والنعاس، ثم نهض مندفا صوب الباب، فطافت بخاطره صور سريعة
لتملك الاغتيالات الشنيعة، تقع في جوف الليل على خصوم المسلمين،
موقوف فجأة يرتجف من وقع هذه الخواطر في نفسه ثم صاح متزعجا،

— من بالباب ؟؟

— أبو سفيان بن حرب .

— ابن حرب ؟ ابن حرب بالحجاز، وأين نحن منه الآن

وابن هو منا ؟ !

قال هذا حبي بن اخطب في سرعة الخائف، ورعشة المرتعد،
ولكنه عاد فذكر ان صوته اشبه ما يكون بصوت ابي سفيان، فأخذ
يقدم رجلاه قلبية لاريحيته، ويؤخر الاخرى حرصا على حياته، ثم سار
صوب الباب يعلى نفسه بالحديث ويردد في لهجة مضطربة أن كان ابن
حرب فيا مرحبا به وأهلا .

فسمع أثناء ذلك من يقول له في خفوت افتح يا هذا ! فالكريم لا يرد
عن بابه في مثل هذه الساعة، فأثارت هذه الكلمة فيه اريحيته . وترجع
لديه من جرسها انه صوت أبي سفيان .

فتح حبيبي بابه . فسقط نور المصباح على وجهه تحتني تقاسيمه في ليله
من الشعر كثيف ، حتى لم يدر حبيي أهو أمام حيوان أو انسان ، لولا
أصابع تمتد اليه مصافحة ، وعينان تشعان من خلف هذا كله بالجسمالك
وموت قوى يقول :

— عم مساء يا ابن أخطب

— مرحبا بأبي سفيان وأهلا . وناقاة وبجلا ، ومستناخا سهلا .

خيرا .. ما وراك يا ابن العم ؟

أبو سفيان - مائتا راكب في عدتهم وسلاحهم يريدون غزو مجد
واصحابه في حجر يثرب (١)

حبي - شاهقا - حجر يثرب ؟! دعني وأبيك من حديث مجد وغزوه .
عسانا ننجو بانفسنا منه ومن أصحابه ، يفتالون كل يوم مريا من
سراة القوم

ابو سفيان - وكيف ترد عن بابك من استجار بك

حبي - لان الحرب متى وضعت أوزارها نجوتم بأنفسكم إلى الحجاز
وخلفتم ولائها لسكان يثرب لظا وججيا .

ص - دمة قوية أطرق ابو سفيان برأسه على إثرها طويلا حتى ظن
حبي أن فكرة الغزوة قد ماتت في خلد صاحبها ولكن أبا سفيان عاد
فرفع رأسه فالتقى نظره بنظر محدثه فرأى كل منهما صلابة الاصرار
في عين صاحبه على ما يرى ، فغادر منزل صاحبه غاضبا .

* * *

(١) كان أبو سفيان قد نذر بعد هزيمة قريش في (بدر) أن لا يمس

فراشه ولا يغتسل بماء وألا يدهن بطيب حتى يغزو محمدا في يثرب .

وكان المـسار خارج يثر بـ تستقبل أذنه أول ما تستقبل أزيز . انياب
الابل تجتر في جرس غير منتظم ، ويرى في اعتكار الليل اشباحا ملثمة
تسير هنا وتنتقل هناك في غير جلبة ولا ضوضاء ، والكل شاخص
صوب يثر كأنه على موعد ولقاء ، ثم كانت همهمة وتغامز ، وتواب
وتداخل وافعاء ، ظهر على أثرها رجلان تسبقهما رائحة الخمر ، قد فوات
الطبيعة بين تامتيهما ، وفرقت بين خطاهما . أحدهما طويل القامة عريض
المنكبين ، واسع الخطا والثاني ربيعة لا يشتمكي منه قصر ولا طول ،
يحاول جاهدا ان يدرك صاحبه في مشيته ، فلا يكاد يلمس غايته حتى
تكون قد غادرته خطى صاحبه ، يتصارع في رأسه بخار الخمر وشم
الامل جاء بحمقه .

ثم سمع أحدهم يقول لصاحبه :

— إذا كان القادم أبو سفيان بن حرب . فمن عسى يكون هـذا

الذي معه ؟

— إني أعرف في مثل مشيته (سلام بن مشكم) سيد بني النضير
وكنزهم . وعلى أي شأن فها قريب تنفرج ، ومالبت القوم هنيئة ، حتى
وافقهم أبو سفيان وصاحبه ، ثم جمع رؤساء القوم وأسرهم بالخطوة
المرسومة ، ثم سبقهم أبو سفيان إلى الطريق الموصل إلى مكة
انتظارا لصاحبه واستعدادا للفرار

* * *

واستيقظت ضواحي يثر عند السحر على صخب واستغاثة وجلبة
وضوضاء ، فألموا ليلها نهارا ، تحت أضواء النيران تشتعل في رؤوس

النخيل، فكانها عن بعد صفوف المشاعل، وعن قرب أفواه البراكين،
قد انتظم الناس حولها عقودا وسلاسل. ينظرون اليها بعيون جازعة
واستسلام خاشع. كأنهم عباد نيران. في أرض كسرى أنوشروان.
ومن خلفهم جماعة تغدو بسرعة وتروح. هذا يحمل طفلا ويقود
عجوزا. وذلك يرفع مناما وبتقذ شيئا. وثالث يولول ويهتج
والأبتاء، ورابع واخطباه فيك بأخاه، بينما كان حرس المسلمين اذ ذلك في
طريقه إلى مكة كالريح المرسله، يثير التراب بسرعه. ويهز النخيل
بقوته. ويحاكي النعامة في خفتها: وكما رأى الجرس ظلما قائما. أو
سوادا منعقدا، ظنوه جيش أبي سفيان، فتثر بالغيظ اسنانهم. وتتجدبه
جباهم وتلهب آباط الابل سياطهم، يستحثونها امعانا في السير، وايغالا
في نهب الخاريق، حتى إذا لم يعثروا على شيء سأل رسول الله عن طليعة
جيشه فيقال له لم تعد بعد. فينحني على نفسه يناحي ربه ويطلب اليه
العون والنصير، وناقته ترتفع به وتنخفض في حركة منتظمة كأنها
أم رؤوم تهدد ولدها الوحيد.

ثم وقف حرس المسلمين فجأة على رؤبة أباد ترتفع في الهواء إشارة
للقوف، فأخذ كل بزمام ناقته إلى الورااء بيد، وأخذ يعتمل سيفه
بالاخرى، ظنا منهم أنه قدحان وقت النزال ولا يكن ما أشد حزنهم حين
علموا من رجال الطليعة، أنهم لم يقفوا لجيش أبي سفيان على أثر، ولعله
ومن معه قد واقع مكة الان اودنوا منها، ولا جدوى ولا نفع من
متابعهم الى الحجاز في مثل هذا الجيش الصغير.

جاء سر التوم في شبه، وأتم وقد أسلم كل راسه بيديه تمر بها خواطرو
الماضي سرية حزية، وبسنة، وبسنة، فيها أشباح المستقبل مخينة عزنة حتى
دخل عليهم صفوان بين أديّة وابتدروهم بالسلام
فأفاقوا من تأملاتهم، وراح كل ينظر إلى الآخر كأن لم يره من
قبل أشدة ما كانوا فيه من تيه وذهول ثم تحدث أحدهم قائلاً
— إلى متى المظل في رحلة الشام والتسويق في ترحيلها، ورؤوس

أموالنا تتناقص كل يوم في أديتنا
أبو عزيز بن عمير — وكيف يكون الرحيل إلى الشام وهذا محمد
في طريقتنا إليه وزاد ما بيننا سوءاً حادث أبي سفريان الأخير أحرق
لهم نخيهم (بالعريض) (١) وقتل رجلين من أصحابه في حقهم
صفوان — ولكن أبا سفريان قد دفع ممن كل ذلك — ويقا القاه
المسلمين على طول الطريق، وأعلمهم شغلوا بجمعه وطمعوا في فضله
أبو عزيز — وهل كان المويق ثمنا لما صنع، أم تمنا الهراشه أن
يهجر ودمه أن يهدر!

فتضحك القوم ومال بعضهم على بعض ثم قال أمية بن مخنف .
والله لو طاحت رؤوس من كانوا مع أبي سفريان جميعاً كان ذلك ثمناً
زهيداً في سبيل عودة أبي سفیان إلى آدميته من جديد! لقد رحل
هذا المخلوق اشعث أغبر من بين الجمّة، كأنه قرد يجوز قعاد اليوم الينا
بشراً سوياً .

(١) مكان من أطراف يثرب

ضحك .

ابو سفيان — والله ان أذس لا أنسى صنيع (سلام بن مشكم) بعد
ان خذاني حبي بن اخطب في رعدة وفزع ، ثم سكت هنيهة كأنه
يستعرض ماضيه معه ثم اشد يقول :

ولان تخيرت المدينة واحدا لخلف فلم أنسدم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميता (١) مدامة على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيوشات ولم أكن لا فرح به ابشر بعز ومغنم
ابو عزيز — وأى مغنم تقريش الآن وقد سدت على قوافلها
طريق الشام .

طاب — وأى مغنم أعز علينا من إبي سفيان في مثل راحته
وفيض سعادته ، تحل من قسمه وتجرد من ادراجه ، وتمشت فيه نشوة
لمنى ، وزارته للنيمة موجة الشباب وقد سلخ من عمره مانعاهون .
أصوات — ضاحكة مازحة .

زعمه — دعونا من ابى سفيان ونشوته ، وراحته وسعاداته
واسلكوا بقوافلنا طريق العراق ولادلكم على رجل يسلك بكم هذا
الطريق لو سلكها معصوب العين لا هتدى .

صفوان — من هو فاجتنا إلى الماء قليلة ، فانما نحن شاتون .

زعمه — فرات بن حيان .

ابو سفيان — اذن فاستدعوه حالا واستأجروه .

* * *

(١) خمر .

رجل يدخل المسجد منتفش الشعر مستطيلاه بدت على ثيابه آثار
السفر ثم وقف عند الباب يتلفت عن يمين وشمال ، حتى إذا وقع نظره
على رسول الله عمده صوبه بتخطى رقاب الجالسين اليه ، والبعض في دهشة
هذه الجراءة ، والبعض الآخر يرى أنه لا بد أن هناك ما يدعو إلى ذلك
ثم دنا الاعرابي من أذن النبي وهمس اليه بكلمات وانصرف ثم انسحب
ورسول الله على أثر ذلك إلى بيته واستدعى اليه زيد بن حارثة
على عجل .

استيقظ أهل يثرب يوماً على صدى تكبير راعد ، رددته اجواز الفضا
واهاريج داوية ترجعها اصداء الصحراء . واطفال تسير بسرعة أمام
الركب فتشير امامه الغبار فيكاد يخفى تحتها ، لولا رايات بيضاء تداعبها
تموجات الهواء . واعواد من السعف تميد عن يمين وشمال في حواشي
الفضاء . ويرز من هؤلاء جميعاً زيد بن حارثة على ناقة شهيداء يطنح
وجهه بالبشر . ويفيض بالسعادة والهناء .

وفي ساحة المسجد وضع زيد بن حارثة بين يدي النبي مغانمه من
عير قريش في طريقها إلى العراق وقد بلغت ١٠٠٠٠٠ من الدراهم
فقسم رسول الله اربعة اجماسها بين افراد السرية بالسوية ، واحتفظ
بالخمس الباقي لنفسه ، ثم جرى بفرات بن حيان دليل قريش الى العراق
هوئولاً بالحبال فقدمه زيد الى رسول الله وقال :

— هذا كل من بقي من قريش مع العير . اما الباقيون فقد ولوا

مدبرين لا يلوون على شيء تاركين الرجل وما فيه .
وافترت شقة فوات بن حيان عن شهادة التوحيد لله ورسالة النبي
صلى الله عليه وسلم . فعق عنه النبي واطلق سراحه .
فعرف القوم عند ذلك مر الاعرابي الذي جاء فهمس في اذن
النبي . وسر غياب زيد بن حارثة ودحا من الزمن بعد استدعاء
النبي له .

تذييل

بالفصل المتقدم نفتح الحلقة الثالثة من سلسلة (صور اسلامية)
ولعل بين الحلقة الثانية والثالثة - من طويل الزمن - ما يدعو إلى
التساؤل عن سبب التأخير في إخراج هذه الحلقة ، رغم تهافت القراء
عليها ، ولعل هؤلاء المتسائلين لم ينسوا بعد ظروف الحرب التي ما تزال
البلاد تعاني آثارها ، بل وتعاني آثارها اليوم بحالة أفدح مما كانت عليه
أيام الحرب .

ولقد كان لقالة الورق أو غلائمه في السوق الحرة ، أثره الشديد على
الحركة الفكرية أيام الحرب ، وما أن وضعت الحرب أوزارها . حتى
انطلقت الأفكار تجري على الأوراق أدبا وعلما وثقافة ، نهضت المطابع
وانحمت بأطنان من الورق تنتظر دورها في الدخول إلى المطبعة ،
ووقفت (صور اسلامية) تنتظر دورها في تواضع صاحبة الألف
نسخة أو تزيد ، إزاء أصحاب الألوف الكثيرة

وما كاد نصفها يتمتع بنور الوجود حتى امتدت الأيدي بالسرقه
إلى الورق الأبيض وثالث الورق المطبوع . فلم يقدر لهذا الأبيض أن
يطبع . ولا لهذا المطبوع أن يطالع وجوه القراء الأعزاء ، ويحظي
باصطحابهم ، بل راحت تسعد الأفواه بأقراص الطعمية والبلح الامهات !!
ولو أن اللص - يتوب الله عليه - ترك نسخة واحدة مما مرق - هان
الخطب ، وخف المصاب ببضعة جنميات يشتري بها ورق أبيض ،
ولكنه استأصل بعض الملازم المطبوعة استئصالا . حتى أصبح من

العسير كتابة ما يمكن أن يقع موقع ملزمة بالضبط ، سيما بعد أن مزقت
الأصول ، وإذا أمكن فإن ذلك سيتم بعد عناء شديد ، ولكن الله الذي
يعلم غايتي من كتابة هذه السلسلة ، وضع يدي - بعد رأس - على نسخة
مطبوعة داخل مصحف كريم ، فأيقنت أن الله قد قبل وسيلتي لديه
وقربتي إليه

* * *

ثم جاء دور الورق الأبيض المقفود وكيف يكون الحصول على
مثله حجما ولونا وسمكا ، وأين المال الذي يشتري به وسط هذا الغلاء
الساكني ؟ سيما بعد أن عمرت طليعة المكتب جيبتي عصرا ،
وهصرته هصرًا

* * *

كتبت إلى أحد الأصدقاء من تجار الورق ورقة أطلب إليه فيها
كمية من الورق حددتها كما وكيفا . واعداء اياه باداء الثمن في نهاية
الشهر ، أملا في التوفيق إلى السداد ، فسارع الرجل - بكرمه الله -
بارسال الورق ، ثم قادته صوالحه في أوروبا فاجبي النداء عاجلا ، فكان
مفهره فسحة جديدة وهبة سماوية أخرى لم أجل السداد وما علمت
بمضوره ، حتى بادرت إلى لقائه لأقدم له حقه مشكورا مأجورا ،
وإذا بي أمام وجه ضامر حازم يهتز بالرفض شمالا وجنوبا ، فظننت
لأول وهلة أن الرفض منسوب على الجراء ذات المآذن الجميلة !! لعلمها
أقل من المطلوب ، ثم ظهر أن الرفض منسوب على استلام الثمن بأسره ،

لأنه علم بأمر سرقة الورق وما أقاسيه في سبيل اتمام الكتاب ، ثم شفع
ذلك بإيمان لاحيلة لي في احنائها

لقد عرتني دهشة لما عودنا تجار العصر الحديث مثل هذا التقدير
والكرم ، سيما من تاجر حديث ما زال ثراؤه يعبو نحو المصارف ،
ولكن إذا علم الناس أن الاستاذ محمد حلمي المنياوي فذ في كل شيء
لهذا تصاؤلهم عن سبب هذا التصرف الغريب ، فلقد كان - في إحدى
مؤسسات النشر موظفا فذا ، ثم غادرها متهما فذا ، ثم عاد إليه اعتباره
بريئا فذا ، ثم انه كان فقيرا فذا ثم أصبح غنيا فذا
وأؤ كد أنه لو سارت الأمور على النحو الذي اصطلمحت عليه مع
اعصاب الحاج حلمي المنياوي لتغيرت أوضاع الدنيا وتخلقت الدنيا في
يوم واحد بدل خلقها في ستة ايام

* * *

والحصول على ورق هذا الكتاب في ظروف الحرب . وبطء الطبع
وسرقة الورق الأبيض والمطبوع ، والحصول على صورة من ملزمة
مفقودة ثم الحصول على الورق بالمجان على الرغم مني
كل هذا يدل على ما يحمل صاحب هذا الكتاب من نوايا صادقة ،
وما سيقوم به الكتاب من شأن في تسهيل قراءة السيرة المحمدية ،
في هذا التسهيل ما فيه من العون على ثقافة بعض أبناء الجيل الجديد
تتقيفا يقرينا إلى مثلنا الاسلامية العليا
وما دمنا في صدد شكر من ساهموا في انجاز هذا الكتاب فلا
أنس شكر فضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد المتعال المصحح بالمصري لمقام

به من المعونة في تصحيح اكثر صفحات هذا الكتاب ، كما نشكر
الشاعر الحساس الأستاذ خالد الجرنوسي لمعونه الادبية في تصوير بعض
المواقف التاريخية شعرا يحمل مسحة ذياك العهد وتقاليده ، وكذلك
بالاستاذ المرصفي الرسام والخطاط بجريدة المصري لما قامت به وبشأن
من تقويج فصول الكتاب بعنواناته الجميلة

* * *

هذا وارجو الله توفيقا وعونا على إخراج بقية السلاسل ، حتى
تكون اهلا ثقة من كتبوا لنا من جميع انحاء العالم العربي والاسلامي
تشجيعا بريئا كريما ضاق المقام عن نشره ، الا انه ان نم شيء فانما ينه
عن اتصال اشدان الثقافة بين مصر والعالم الاسلامي ، وعن تجارب
ارواح المسلمين في انحاء الارض على اختلاف الوانهم ولغاتهم واجناسهم
فالهم اجعلها خالصة لوجهك الكريم

اعتذار

وقع خلال الطبع بعض اخطاء نحويه ولفويه وفنيه
وقد ضاق المقام عن استدراكها في باب من التصويب
لكنها سوف لا تخفى كثيرا على فطنة القارئ وان
خفيت فاننا نرجو المعزرة

فهرس الكتاب

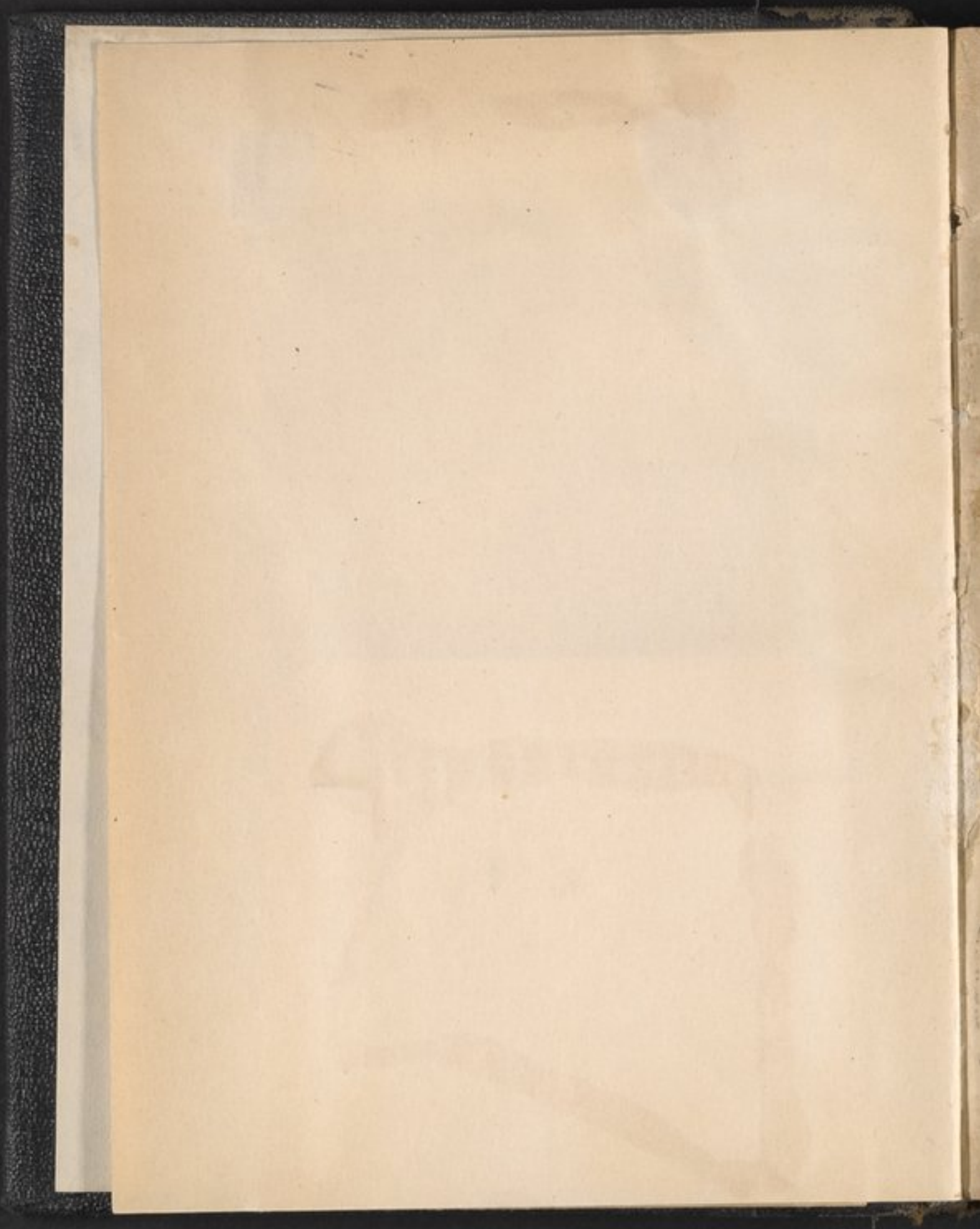
الموضوع	العنوان	رقم الصفحة
---	مقدمة الجزء الثالث	٥
مؤامرة قريش لقتل رسول الله	جنة الدم	١١
استقبال رسول الله في المدينة	اول العهد بيثرب	٤٠
نوم علي بن ابي طالب في فراش رسول الله مفتديا	رمز الفداء	٥٣
رسول الله بنفسه		
التشريع الداخلي لسكان المدينة المسلمين ويهود	براعم سياسية	٦٦
بناء رسول الله بهائشة وعلى بها طمه	من افراح النبوة	٨٥
تصرافية سلمان الفارسي	من النار الى النور	١٠١
فراوه بدينه الى القدس	» » »	١١٣
عمله عند يهودي كعبد ثم اسلامه	» » »	١٢٨
علي يد رسول الله بالمدينة	الله اكبر	١٤٠
الاذان للصلاة	طلائع الحق	١٥٥
مناوشات رسول الله لقوافل قريش وهي في طريقها الى الشام	تقرير المصير	١٦٥
غزوة بدر	» »	١٧٧
قدوم قريش الى بدر		

الموضوع	العنوان	رقم الصفحة
بدء المعركة	» »	١٨٤
هزيمة قريش وتحديث رسول الله لقتلهم	» »	١٩٣
الخلاف في امر الاسرى	» »	٢٠٢
اغتيال شعراء اليهود الذين شوخوا دعوة الاسلام وشهروا	مصارع السفهاء	٢٠٩
برسول الله صلى الله عليه وسلم قتل ابي رافع اليهودي	» »	٢١٩
قتل اليهودي الذي كشف عن سواة مسلميه في سوق الحلي	» »	٢٢٧
اغتيال ابي عفاك وعصماه بنت مروان وابن شيبينه	» »	٢٣٥
حميلة ابي سفيان المضحكة في غزوة المدينة ليلا ثم فراره الى مكة	الفرار	٢٤٢

طبعت في دار الطباعة والنشر

لمصر والسودان

١٧ طارة الرويعي بمصر



JUL 1973

BP
70
M3x
v.3



